أعلام المسلمين
٨٩

يوسُف بن تاشفين
رحمه الله

مُوحِّدُ المَغْرِبِ، وَقائِدُ المُرابِطِين وَمُنقِذُ الأَنْدَلُسِ مِنَ الصَّلِيبِيِّين

تأليف
الدكتور حامد محمد خليفة

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

أعلام المسلمين

٨٩

يوسف بن تاشفين

موحد المغرب، وقائد المرابطين

ومنقذ الأندلس من الصليبيين

٤٠٠ - ٥٠٠ هـ = ١٠٠٩ - ١١٠٦م

تأليف

الدكتور حامد محمد خليفة

دار القلم

دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى العاملين المخلصين

الذين يتطلعون لبناء الأمة عقيدةً ووحدةً على منهج

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه

الكرام يبتغون بذلك الله والدار الآخرة .

وشعارهم قوله تعالى إنما يتقبل الله من المتقين

حامد

هٰــذا الرَّجُــل

● أنا أولُ منتدبٍ لنصرةِ هذا الدّين، ولا يتولّى هذا الأمرَ أحدٌ إلاّ أنا بنفسي.

يوسف بن تاشفين

● يا يوسف! أنتَ أخي وابن عمي، ولم أرَ مَنْ يقوم بأمرِ المغرب غيرك ولا أحقَّ به منك، وقد خلعتُ نفسي، وولَّيتُكَ عليه، فاستمرَّ في تدبير ملكك وأنت حقيق به، وخليق له.

إمام المرابطين أبو بكر بن عمر

● كان بطلاً شجاعاً، نجداً حاذقاً، جواداً كريماً، زاهداً في زينة الدنيا، عادلاً متورِّعاً، متقشِّفاً يأكل من عمل يده، عزيزَ النفس، كثيرَ الخوف من الله.

صاحب (الحلل الموشيّة)

● اتَّفق على تقديمه أشياخُ المرابطين، لما يعلمون من دينه وفضله، وشجاعته وحزمه، ونجدته وعدله، وورعه وسداد رأيه، ويُمن نقيبته.

ابن أبي زرع

● أشربت قلوب أهل الأندلس حُبَّ يوسف وأصحابه.

المراكشي صاحب (المعجب)

● كان يوسف هذا رجلاً شجاعاً، عادلاً مقداماً، حازماً سائساً للأمور، ضابطاً لمصالح مملكته، مؤثراً لأهل العلم والدين، كثير المشورة لهم.

ابن خلكان

● كـان رجـلاً عادلاً صالحاً، شـجاعاً مرابطاً، أيمنَ النـاسِ نقيبـةً، وأسعدَهم ولايةً، وألزمَهم نصراً.. محباً للعلماء، مكرماً للصلحاء، محافظاً على الدين، مستشعراً للتقوى.

لسان الدين ابن الخطيب

● كانت البـلاد تنقاد بحكمـه، والمنابـر تهلّ باسـمه، وسمع الرعيةُ بمقدمه، وانثالوا عليه انثيال الجياع على الوليمة، وتباشروا به تباشير البلد بالديمة.

ابن بسام الشنتريني

● كان رحمه الله خائفاً لربه، كتوماً لسره، كثير الدعاء والاستخارة، مقبلاً على الصلاة، يأكل من عمل يده، أكثرُ عقابِه الاعتقالُ الطويل، إلا من انتزى وشقَّ العصا، فالسيف أحسم لانتشار الداء.

ابن الصيرفي

● فـي كـلِّ يـومٍ غـزوةٌ مبـرورةٌ — تـردي عـديـدَ الـروم أو تفنيـهِ
تصلُ الجهادَ إلى الجهادِ موفَّقاً — حَتَـمُ القضـاءِ بكـلِّ مـا تَقْضِيْـهِ
متـــواضعـــاً للهِ تظهِـــرُ دينَـــهُ — فـي كـلِّ مـا تبـديـهِ أو تخفيـهِ

أبو بكر بن سوار

* * *

مقـــدّمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وبعد:

إن هذا البحث يعرّف بدولة المرابطين منذ نشأتها حتى وفاة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمه الله عام (٥٠٠)هـ، وما لهذه الدولة من أثر حميد في نشر عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى، وطمس كل معالم الشرك والجهل في البلاد التي جاهدت فيها حتى أكرمها الله تعالى بتوحيدها في بلاد المغرب العربي، ومن ثم بلاد الأندلس، تلك البلاد التي كانت تعاني شتاتاً وتمزُّقاً وصراعاً لا مثيل له حتى صدق فيها قول الشاعر:

حتى إذا سِلْكُ الخلافة انْتَثَرْ   وذهب العين جميعاً والأثرْ
قامَ بكل بقعةٍ مَليكُ   وصاحَ فوقَ كلِّ غصنٍ ديكُ

كانت حياة التمزق عامة في العالم الإسلامي تقريباً، إلا أنها في

المغرب والأندلس كانت ظاهرة للعيان، بادية في كل مظاهر الحياة، لم تغيرها المصائب والنكبات التي كانت تقع على المسلمين في تلك البلاد، لاسيَّما في الأندلس التي كانت تتساقط قلاعها، وتخضع حصونها للصليبية التي ترفع شعار استرداد الأندلس من أيدي المسلمين، وزاد تلك الحال سوءاً النزاعُ المستمر بين حكام الطوائف الذين تمادَوا في التفريط بمصالح أمتهم، والانسلاخ من مسؤولياتهم في حماية بلادهم ورعاياهم، فبدلاً من أن يصحوا على الهجمات الصليبية التي لم تميز بين القريب منهم والبعيد، بدلاً من الصحوة والوحدة والثبات بوجه عدوهم تساقط هؤلاء في أحضانه، يُغرونه ببلادهم، ويكشفون له عوراتهم، ويعطونه أسرارهم، ويتحالفون معه ضد أنفسهم وأمتهم وإخوانهم، ويتسابقون في تلبية شروطه وتحقيق رغباته.

انسلخوا من عقيدتهم فلم يعودوا قادرين على القيام بمسؤولياتهم وحماية رعاياهم الذين ملكوا أمورهم، وأطاعوا العدو فيهم مداراةً ونفاقاً له.

ولم يكن هذا الواقع خافياً على المسلمين، وهذا ما عبَّر عنه الشاعر السميسري بقوله:

نـادِ الملوكَ وقلْ لهم	ماذا الذي أَحْدَثْتُمُ
أسلمتمُ الإسلامَ في	أسْرِ العِدى وقعدتُمُ
لا تُنكروا شَقَّ العصا	فعصا النبيِّ شَقَقْتُمُ
وجب القيامُ عليكمُ	إذ بالنَّصارى قُمْتُمُ

ومع كل هذا الواقع المرير فقد ضيَّق أمراء السوء على دعاة الجهاد والتصحيح، الذين أصبحوا يبحثون عن سبل الخلاص التي لاحت لهم بظهور يوسف بن تاشفين الذي أصبح ملاذاً للعلماء والضعفاء والمضطهدين، ورمزاً للأمة بأسرها حتى صدق فيه قول الشاعر:

فـإذا أرادَ اللهُ نَصْـرَ الـدِيـن استصرخَ النـاسُ ابـنَ تـاشُفيـنِ
فجاءهم كالصبحِ في إثْرِ غَسَقْ مُستـدرِكـاً لمـا تبقّـى مـن رَمَـقْ

فمن هم المرابطون؟ وما هي دعوتهم؟ وما المبادئ التي اعتنقوها؟ وما مدى إخلاصهم لها؟.

ومن هو يوسف بن تاشفين؟ وكيف برز في صفوف دعوة المرابطين؟ وما هي أهم إنجازاته؟.

وكيف وحَّد المغرب واستنقذ الأندلس من مخالب الصليبية؟ وكيف قطع الحبال التي كان يصلها حكام الطوائف بالدولة الصليبية وطاغيتها ألفونسو السادس؟ وكيف وحَّد المغرب والأندلس؟.

وبأية وسيلة أعاد للإسلام روحه في دولة المرابطين وذروة سنامه في الجهاد ضد الصليبيين؟.

وما هي الوسائل التي تعامل بها معهم؟ وهل استخدم السياسة والمفاوضات معهم؟.

وإذا لم يستخدم الدبلوماسية السياسية فما هي سياسته مع هؤلاء؟.

وما مدى نجاح السياسة التي اعتمدها يوسف بن تاشفين في تعامله مع ألفونسو السادس؟ وما مدى صدق سياسة المرابطين مع شعارهم المتمثّل في قوله تعالى:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وما مدى انسجام دولة المرابطين وسياستهم الداخلية والخارجية مع هذا الشعار؟.

إن الإجابة على هذه السلسلة من التساؤلات ستظهر جلية في طيِّ هذه الدراسة، وسيتضح أن سياسة المرابطين تنبثق من صميم الشريعة الإسلامية، وأنها تَبَنَّتْها وسيلةً وحيدة لوحدة الأمة وحمايتها، ونشر العدل والطمأنينة فيها، إن في هذا البحث صوراً كثيرة تؤكد تمسك المرابطين ـ وفي مقدمتهم ابن تاشفين ـ بالشريعة الإسلامية وتعاليمها، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، تلك التعاليم التي لو طُبقت في أي عصر أو مصر لنهضت به وأصلحت أحواله مهما بلغت من التردي والضعف والضياع.

ومن سمات سياسة المرابطين، التي ستتضح في هذه الدراسة أيضاً: الاستعدادُ الدائم والحذر المستمر، وعدم الركون إلى أي عهد أو وعد من مصدر صليبي، مُسْتَقين ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وسيتبين أن سياسة الحصار والتجويع والعقوبات الجماعية، التي تطبَّق في هذا العصر هي سياسة صليبية، استُخدمت ضد المسلمين في الأندلس، وأن سياسة تجريد المسلمين من السلاح أيّاً كان نوعه، وسياسة التزوير والاتهام ونقض العهود، وقتل الضعفاء والأطفال والنساء، وإحراق العلماء وهم أحياء، والقتل الجماعي، ونهب الأموال، وممارسة كل أشكال العدوان، دون وازع من ضمير أو مراعاة لعرف أو قانون، إلى غير ذلك من ضروب الهمجية والوحشية هي من صميم السياسة الصليبية ومن جملة أعرافها.

وسيتبين في هذه الدراسة أيضاً أن الصليبية لديها ألوان من الأساليب السياسية والإغراءات والوعود المعسولة، سقط فيها الكثير من حكام المسلمين فخسروا بلادهم وممتلكاتهم، وخسروا دنياهم وأخراهم وذلك هو الخسران المبين.

وسيتضح أيضاً أن الصليبية القديمة مثلما هي المعاصرة، لا يوجد في قواميسها الوجدانية مسمَّيات تحمل معاني الحلال والحرام، أو الصدق والكذب، أو الوفاء والغدر، لاسيَّما إذا تعلق الأمر بالمسلمين، فكل شيء ممكنٍ مباحٌ لها، وبالقدر الذي يجيد به الصليبي أساليبَ الغش والخداع والنصْب والابتزاز لما في أيدي المسلمين، وبالقدر الذي يتمكن فيه من إيقاع الفتن وتشكيك المسلمين بعضِهم بالبعض الآخر، وعقْد الاتفاقيات السرية التي يكيد فيها بين حكام المسلمين، ويوقع

بينهم الشر والبغضاء والتناحر، وغير ذلك من المسميات التي تغص بها قواميس السياسة الصليبية وتبيحها، وبقدر ما يتقن ذلك يكون مقدَّراً ومحترَماً ضمن مفاهيمهم وأعرافهم.

وسيتضح أن ما ورد في هذه المقدمة ليس إلا بعضاً من الحقيقة التي تمثل سيرة بعض زعماء الصليبية من أمثال رودريجو دياث الملقب بالقنبيطور.

وسيتضح أيضاً أن الازدواجية كانت تحكم مناهج زعماء الطوائف أخلاقياً وسياسياً وعسكرياً، يظهر ذلك في سِيَرِ الكثير منهم مما كان له أسوأ الأثر على شعوبهم، وأفدح النتائج على سياساتهم، وما ذلك إلا لتجردهم من معاني القيم وثوابت الدين، وارتكابهم المعاصي وولوغهم في الحرام فلم يجنوا من سياساتهم المتذبذبة الحائرة في انتسابها سوى الهوان والذل، وقد أشار إلى هذا الجانب الفقيهُ الزاهد ابن عَسَّال بقوله:

لولا ذنوبُ المسلمينَ وأنهم ركبوا الكبائرَ ما لهنَّ خَفاءُ
ما كان يُنْصَرُ للنصارى فارسٌ أبداً عليهم فالذُّنوبُ الداءُ

إن الدارس لأحوال دولة المرابطين، وسياستهم الداخلية والخارجية، يجد أن السمة البارزة في هذه السياسة هي تبني فكرة الجهاد، وتسخيرُ كل الطاقات والتوجهات لخدمة هذا المبدأ، والانسجام التام بين سيرة قادة هذه الدولة المجاهدة وبين مبادئهم المعلَنة:

فهذا إمام المرابطين عبد الله بن ياسين صائماً في النهار مكتفياً بأكل ما يقع تحت يده من صيد البر والبحر، لا ينافس أحداً من رعيته على ما في يده من الدنيا، يؤمُّ الناس في الصلاة، ويقودهم في الجهاد، حتى قضى نحبه شهيداً في سبيل عقيدته عام ٤٥١هـ. ومن قبله القائد العام لقوات المرابطين يحيى بن عمر، الذي أمضى أيام حياته مجاهداً حتى نال أمنيته في الشهادة بحدود عام ٤٤٨هـ، ومن بعده قائد المرابطين أبو بكر ابن عمر الذي استُشهد عام ٤٨٠هـ، في بلاد السودان بعد أن فتح فيها بلاداً مسيرتها ٩٠ مرحلة، وكان هذا شأن جميع قادة المرابطين.

ومنهم يوسف بن تاشفين أعظم قائد في دولة المرابطين، إذ رَبَتْ جيوشه على مئة ألف مجاهد، فلم يُصَبْ بداء العظمة وحب الذات، ولم ينغمس في السعي لتلبية شهواته وتحقيق أهوائه، وإشباع أتباعه، بل كان لا يأكل إلا خبز الشعير، ولا يلبس إلا الخشن من الثياب، ولا يتناول إلا لحوم الإبل وألبانها، مؤكداً بذلك تمسكه بروح الإسلام وزهد المؤمنين، وسَيره على خطى الأولين الخالدين من أئمة المسلمين بلا تغيير ولا تبديل.

إن وقوف قادة المرابطين عند حدود الإسلام والتزامهم الكامل بتعاليمه، هو الذي صنع لهم المجد الذي وصلوا إليه، وفتح لهم أبواب القَبول والمحبة بين جماهير المسلمين.

لقد بَرهن المرابطون من خلال مسيرة حياتهم التي تقلَّبت صفحاتها بين مواقف الجهاد ومواقف الصبر والزهد، على قدرة الإسلام

الهائلة في التصدي والاقتحام، وتلبية كل ما تحتاجه الأمة، وإصلاح كل فساد يحدث في حياتها.

وأقاموا الحجة على الأدعياء الذين تاجروا بمبادئ الإسلام، ورفعوا الرايات وكتبوا الشعارات، يُحاكون الدعوات والحركات الإسلامية التي سقاها أبناؤها بدمائهم، وأنفقوا في سبيلها أموالهم وممتلكاتهم، حتى نَمَتْ وآتَتْ أكلها خيراً وعزاً وعدلاً لكل أبناء الأمة والبشرية، فلم يمتازوا عن المسلمين إلا بإيثارهم لهم، وخدمتهم لعقيدتهم والانتصار لمبادئها.

فشتَّان بين الرجال الذين حملوا دعوة الإسلام، وأعطَوها كل شيء، مدَّخرين الأجر والثواب عند الله تعالى، وبين الذين يزعمون أنهم على آثارهم، ويريدون من الإسلام أن يعطيهم كل شيء لمجرد الزعْم والادعاء، فجلبوا على المسلمين الكثير من البلاء والنكبات، وعلى حركة التجديد الإسلامية ألواناً من الهوان والضعف والتعثُّر، أسَرَتْهم التُّرَّهات، ومزَّقتهم الإقليميات وتعدُّدُ الولاءات، والله تعالى يقول:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ [التوبة: ١٦].

وقال جلَّ في علاه: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

إن الـذيـن يـزعمـون أنهـم يحملـون مبـادئ الإسـلام والعـدل والمساواة، ولا زالت تُعشِّش في صفوفهم الإقليميات والحزبيات والنفعيات، على حساب الحق والعدل ووحدة المسلمين وأخوتهم، إنما يحملون أهواءهم وشهواتهم وغاياتهم، بعيدين عن معاني الرباط والمرابطة، وعن معاني الجهاد التي طبَّقها المرابطون عملياً على واقع الحياة، إذ لم تكن مبادئ الإسلام في يوم من الأيام نظرية فقط، أو مَطِيَّةً لأحد، ولم تأتِ لتلبية رغبة فئة أو طبقة من الناس، وهي لا تقبل الخلط ولا التدليس، محفوظـةٌ بحفظ الله وميسَّـرةٌ للجميع، يفهمها الأمي والمثقف، والعربي والعجمي، وجاءت لحفظ كرامة الجميع وحقوقهم وإنسانيتهم. . . قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فالإسلامُ علَّم أبناءه أن لهم حقوقاً وأن عليهم واجبات، وأنه لا يوجد خُصوصياتٌ وتَبَعيات، وأنْ ليس لأحد حقوقٌ زائدة على حقوق الناس، وبهذا حكم الراشدون، ومن هنا بدأ أبو بكر رضي الله عنه عهده بقوله: «لقد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسـأتُ فقوِّموني». وقـولِ عمر رضي الله عنه: «لا تمنعوهم حقوقَهم فتكفِّروهم». وقولِ عثمان رضي الله عنه في كتابه الذي بعثه للأمصار: «وقد سلطتُ الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يُرفع

علي شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيتُه، وليس لي ولا لعمالي حق قبل الرعية».

إن هذه المعاني يجب أن تسريَ في نفوس المسلمين؛ حتى تصبح مقياساً يُعرف بها الزائف الدَّعِيُّ من الصادق الوفي لمبادئ دينه وعقيدته، كما اتخذها المرابطون مقياساً وميزاناً لذلك.

الدكتور حامد محمد خليفة

الفصل الأول

نشوء دولة المرابطين

الفصل الأول

نشوء دولة المرابطين

مما يتبادر إلى الذهن في بداية هذا البحث التساؤلُ عن اسم المرابطين، من أين جاء؟ وبماذا يرتبط؟ وأيضاً التساؤل عن اسم الملثَّمين الذي هو تسمية أخرى تُطْلق على المرابطين، فما حقيقة هذه التسميات؟ وما هي مدلولاتها؟ ومن الذي أطلقها؟.

ولذا تَوجَّب التعريف بها قبل الخوض في طيَّات هذا البحث:

المرابطون: وردت الإشارة في القرآن الكريم إلى الرِّباط والمرابطة في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وتيمُّناً بهذا الرباط وهذه المرابطة أطلق الشيخ (عبد الله بن ياسين) اسم المرابطين على إخوانه بعد أن زاد عددهم على ألف رجل، وذلك لما علِمه فيهم من صبر وحماس لنصرة الإسلام والدفاع عنه، ولما لاحظه من شدة بأسهم وقوة اندفاعهم في الجهاد، فيروى أنه:

«كان يلي قبيلـةَ (لمتونة) جبلٌ فيه قبائلُ من البربر على غير دين الإسلام، فدعاهم عبد الله بن ياسين إلى الدين فامتنعوا، فأمر يحيى بن عمر بغزوهم، فغزاهم بلمتونة فانتصروا عليه وسبَوهم، وقسموا سبيهم بينهم، وأخذ أميرهم خمسهم، وهو أول خمس قسمه اللمتونيون في صحرائهم، وكـان فَقَدَ في ذلك الوقت من عسكرهم أكثـرَ من نصف عددهم، وكـان إمامهم عبد الله بن ياسـين يصبرهم إلى أن ظفـروا بأعدائهم، فسمَّاهم عبد الله بالمرابطين، وسمى أميرهم يحيى بن عمر أميرَ الحق»[1].

وسيتضح في هذا البحث أن عبد الله بن ياسين قد رابط في إحدى الجزر القريبـة من مصب نهر السنغال، وهناك أسس جماعة ممن تبعه ورابط معه في تلك الجزيرة، فربما عُرفوا بهذا الاسم أيضاً نسبة إلى ذلك الرباط الذي كان مَقراً لهم. إلا أن ابن ياسين أسبغ على هذا الاسم الصفة الرسمية بعد تلك المعركة، ولم يكن هذا الشيخ أول من أسس الربط، إذ إن الربط كانت معروفة في الدولة الإسلامية، تقام في الثغور المحاذية للأعداء يسكنها العلماء والدعاة والمجاهدون، ويأوي إليها الزهاد والصالحون، واسم (المرابطون) عند الفرنجة (Al-moravades) مشتقاً من الرِّباط الذي انطلقوا منه[2].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: ٤/ ١٢.
(٢) فيليب حتي، تاريخ العرب المطول: ٤/ ١٢.

الملثَّمون: أما الملثَّمون أو أهلُ اللثام فهو اسم اختص به قسم كبير من قبائل صَنْهاجةَ الصحراء، الذين يُكوّنون القسم الأساسي من القبائل التي ناصرت دولة المرابطين بزعامة قبيلة لمتونة.

ولا يزال الطوارق الحاليون، الذين خَلَفوا المرابطين بعد سقوط[1] دولتهم يحملون الكثير من صفات المرابطين، والتي منها اللثام وطريقة المعيشة والصفات الجسمية، ولا يزالون يحتلون نفس المناطق التي سكنها الملثمون. وعلى الرغم من أن اللثام يُستعمل في معظم المناطق الصحراوية في العالم لضرورة تفرضها البيئة على البدو المقيمين في البراري دفعاً لضرر الرمال وحرارة الصيف أو برد الشتاء إلا أن مُغالاتهم في استخدام اللثام إلى الحد الذي يَستقبحون فيه كَشْفَ وجوههم أمرٌ مثيرٌ للاستغراب. فلا بد إذاً من محاولة لتتبع الأخبار حول هذا الموضوع والكشف عن الأسباب التي دعت هذه القبائل للتشبث بهذا الزِّي.

هناك عدة احتمالات وتفسيرات لهذه الظاهرة، فمن المحتمل أن يكون اللثام عادة قديمة مكتسبة، تناقلتها أجيالُ الملثمين منذ عهود ما قبل الإسلام لأسباب أمنية أو اجتماعية، فضلاً عن ظروف البيئة التي يعيشون فيها «وقيل: إنهم كانوا في الصحراء يتلثَّمون لشدة الحر والبرد

---

(١) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: ٢٤/ ٢٦٣.

كما يفعل العرب في البرية، والغالب على ألوانهم السُّمْرةُ، فلما ملكوا البلاد ضيّقوا اللثام. وقيل: إن طائفة منهم من لمتونة الصحراء خرجوا للإغـارة على عدوهم، فخالفهم العدو إلى بيـوتهم ولـم يكن بهـا إلا الصبيان والمشايخ والنساء، فلما تحقق الشيوخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب رجالهن، ويتعمَّمْنَ بالعمائم، ويَستُرْنَ وجوهَهنَّ باللثام، وأن يُضيّقنه حتى لا يُعْرَفْنَ؛ ففعلْنَ ذلك، ولَبِسْنَ السلاح، وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن، واستدرن هُنَّ بالبيوت. فلما أشرف العدو رأى جمعاً عظيماً هاله وقال: هؤلاء حول حريمهم يقاتلون عليها قتال نخوة، وقد ترجَّلوا للموت، والرأيُ أن نسوق النَّعَم ونمضي، فإنْ تَبِعونا قاتلناهم خارج البيوت، فبينما هم في جمع النعم من مراعيها إذ أقبل رجـال الحي فصار العدو بينهم فقُتلوا شرَّ قتلة، ولم يسـلم منهم إلا القليل، وقَتل النساء منهم أكثر مما قتل الرجال، فاستنُّوا اللثامَ من ذلك الوقت»[1].

ومما قيل في سبب اللثام شدةُ الحياء الذي اتصف به الملثَّمون، قال الفقيه الكاتب أبو محمد بن حامد في يوسف بن تاشفين وبنيه:

ملكٌ له شرفُ العُلى من حِمْيَرٍ ... وإن انتمَـوا صنهـاجـةً فهـمُ هُـمُ
لمـا حَـوَوا أحـوازَ كـلِّ فضيلـةٍ ... غلب الحياءُ عليهِمُ فتَلَثَّموا[2]

---

(١) م. ن.
(٢) م. ن.

وقال آخر:

إذا الْتَثَموا بالرَّيط خِلْتَ وجوههم أزاهـرَ تبـدو مـن فُتـوقِ الكمـائـمِ
أو التـأمـوا بـالسـابِـرِيَّـةِ أبـرزوا عيونَ الأفاعي من جُلود الأراقمِ[١]

وهناك من يرى أنه استُعمل لتغطية الجزء الأسفل من الوجه ربما اتقاءً لعين الحسود. ويذهب البعض إلى أنه قد يرجع إلى أصول دينية سحرية[٢] قديمة، واستمرت هذه القبائل تتوارثه إلى عهد المرابطين. وقد يكون هناك روايات أو تفسيرات أخرى لهذه الظاهرة.

ويُستنتج من هذه الروايات أن هذه التسمية لها أصل تاريخي جعل هذه القبائل تتمسك به، إلا أن المرجَّح في استخدام اللثام هو ظروف المناخ الصحراوي الجاف في الصيف، والقارص في الشتاء، هو الذي فرض هذا اللثام على القبائل، كما أن الرياح العاتية التي تُهيل الرمال معها فرضت على سكان الصحراء أن يضيّقوا هذا اللثام لحماية عيونهم وأفواههم من سَفْوِ الرمال. وربما استُخدم اللثام لأسباب أمنية أو تمويهية تخدم أغراضاً عسكرية. وعلى كل حال فإن اللثام عادةٌ اعتادها القوم وحافظوا عليها حتى أصبحت تتكرر تلقائياً، إلى الحد الذي أصبح فيه هذا الاسم يطلق على عموم المرابطين عند الكثير من المؤرخين.

---

(١) م. ن.
(٢) شعيرة، تاريخ المرابطين السياسي، ص٣١.

المؤسسون لدولة المرابطين:

عند الحديث عن أي جانب من جوانب الحياة في دولة المرابطين أو أي قائد من قادتها لا بد من التعريف بمؤسس هذه الدولة، وواضع منهجها ودستورها وقوانينها، والذي وضع لمساته المباركة في كل صفحة من صفحاتها المشرقة في تاريخ الإسلام الزاهي المصون.

إلا أننا لا نستطيع أن نتجاوز دور الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، صاحب الفكرة الأولى، والساعي الحثيث لتوحيد صفوف قبائل الملثمين، وتصحيح عقيدتهم، وربط آمالهم ومشاعرهم بعقيدة التوحيد.

١ ـ يحيى بن إبراهيم:

كانت تجارة السودان مصدر رخاء قبائل صنهاجة الصحراء، إلا أن مملكة غانة تمثل خطراً دائماً على هذه التجارة، ولدرء هذا الخطر كثيراً ما يقوم نوع من التحالف بين قبائل (لمتونة ومسوفة وجدالة)، هذه القبائل التي تسكن آخر بلاد الإسلام في ذلك الوقت[١] وكان الأمير يحيى ابن إبراهيم يتزعم قبيلة جدالة، وله رئاسة قبائل صنهاجة الصحراء.

وقد أوتي من رجاحة العقل وبعد النظر وصدق الإيمان، ما جعله يتحسَّس أوضاع بلاده، وما هي عليه من الضياع الفكري والديني والسقوط

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٧٩؛ السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى: ٢/ ٤.

الأخلاقي؛ لهذا عزم على تصحيح هذا الواقع وتبديل تلك الحال. ففي حدود عام ٤٢٩هـ[١] عَهِدَ الأمير يحيى بن إبراهيم بالإمارة لابنه إبراهيم ابن يحيى[٢]، وارتحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج، وللبحث عمَّن يعينه على تحقيق أهدافه التي تحسسها في أعماق نفسه، ولما قضى الأمير يحيى بن إبراهيم حجَّه وزيارته وقَفَلَ عائداً إلى بلاده عرَّج في طريقه على القيروان، فلقي الشيخ أبا عمران الفاسي شيخَ المذهب المالكي، وحضر مجلس درْسه، وتأثَّر بوعظه[٣]، مما لفت انتباه الشيخ أبي عمران إليه، فلما تداولا الحديث رآه الشيخ أبو عمران محباً للخير، صحيحَ العقيدة، فأعجبه حاله، وسأله عن قبيلته ووطنه فأخبره أنه من قبيلة جدالة إحدى قبائل صنهاجة، فقال له الشيخ: ما مذهبكم؟ فقال الأمير: ما لنا علم من العلوم ولا مذهب من المذاهب؛ لأننا في الصحراء منقطعون، لا يصل إلينا إلا بعض تجار جهَّال لا علم عندهم، وفينا أقوام يحرصون على تعلم القرآن والتفقُّه في الدين لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فعسى يا سيدنا أن تنظر لنا[٤] من طلبتك من يتوجَّه معنا إلى بلادنا ليعلمنا ديننا وشرائع الإسلام.

---

(١) حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص١٠٠.

(٢) السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى: ٢/ ٦.

(٣) الحلل الموشية لمؤلف مجهول، ص١٨؛ السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى: ٢/ ٦.

(٤) الحلل الموشية، ص٢٠.

فقال له الشيخ: سأنظر لك إن شاء الله في ذلك، وبعد أن تدارس الشيخ أبو عمران الأمر مع تلاميذه قال للأمير يحيى بن إبراهيم: إني سأدلك على رجل من فقهاء المغرب الأقصى من أهل السوس[1]، عرفتُه فقيهاً حاذقاً ورعاً أخذ عني علماً كثيراً، واسمه (واجاج[2] بن زلو اللمطي) من أهل السوس الأقصى فخاطبه الشيخ بكتاب جاء فيه:

«أما بعد؛ إذا وصلك حاملُ كتابي هذا ـ وهو: يحيى بن إبراهيم الجدالي ـ فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته، يُقرِئهم القرآن، ويعلمهم شرائع الإسلام، ويفقههم في دين الله، وله ولك في ذلك الثواب والأجر العظيم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً».

فسار يحيى بن إبراهيم بكتاب الشيخ أبي عمران حتى وصل إلى الفقيه الشيخ واجاج بن زلو اللمطي وكان ذلك بحدود عام ٤٣٠هـ[3]، فنظر واجاج في كتاب الشيخ ثم جمع تلامذته فقرأه عليهم وندبهم لما أمر به الشيخ أبو عمران فانتدب لذلك رجل منهم يقال له عبد الله بن ياسين.

---

(١) م. ن.

(٢) واجاج: والجيم تلفظ مصرية، من أهل السوس الأقصى تتلمذ على أبي عمران الفاسي في القيروان ثم عاد إلى السوس فبنى داراً سماها دار المرابطين لطلبة العلم وقراءة القرآن.

(٣) السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٧.

٢ ـ عبد الله بن ياسين[١]:

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك علي بن ياسين الجزولي واسم أمه (تين يازامارن)[٢] من أهل جزولة، من قرية تسمى (تماماناوت) في طرق صحراء مدينة غانة، وكان من حُذَّاق الطلبة، ومن أهل الفضل والدين والورع والسياسة، مشاركاً في العلوم[٣]. فخرج مع يحيى بن إبراهيم إلى الصحراء واستقبلهم أبناء (جدالة ولمتونة) وفرحوا بمقدمهما وتيمَّنوا بالشيخ عبد الله بن ياسين وبالغوا في إكرامه وبرِّه، فشرع يعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين ويسوسهم بآداب الشرع الحنيف.

ويبدو أن الشيخ اختار نخبة من أبناء هذه القبائل لكي يفقههم في أمور دينهم حيث اجتمع عليه نحو سبعين شيخاً من فقهائهم وأهل الخير منهم ليعلمهم فانقادوا له انقياداً عظيماً ولازموه مدة طويلة[٤].

وجعل الشيخ يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر ويحاول كبحهم عن كثير من مألوفاتهم الفاسدة والتي منها زواجهم بأكثر من أربع حرائر فقال لهم: «ليس هذا من السنة وإنما سنة الإسلام أن يجمع الرجل بين أربع نسوة حرائر فقط وله فيما شاء من ملك اليمين سعة»[٥].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١١؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨١.
(٢) البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص١٦٥.
(٣) المصدر السابق نفسه؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٧٨.
(٤) الحلل الموشية، ص٢٠.
(٥) السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٧.

إلا أن تدخل الشيخ في حياتهم الخاصة، التي كانوا يحيونها بلا ضابط من شرع أو قانون وما جشَّمهم الشيخ من التزام الجماعة وأداء الزكاة ومحاولة الشيخ عبد الله بن ياسين حملهم على الالتزام الشرعي الكامل، ولِمَ لا وعبد الله بن ياسين هو ذلك الفقيه المالكي المتقشف، الذي أمضى شطراً من حياته في الدرس والتحصيل، وقد دخل بلاد الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأمضى بها سبعة أعوام حصل فيها على علوم كثيرة[1]. وعاد إلى المغرب الأقصى وأقام عند الشيخ الفقيه واجاج، فهو إذاً مُلِمٌّ بالعلوم الشرعية على المذهب المالكي خاصة فلا مجال عنده لأنصاف الحلول وهو الزاهد العابد.

وبما أن الجهل كان منتشراً في القبائل والمرء عدو لما يجهل لا بد أن يلقى عبد الله بن ياسين معارضة للانعتاق من النظام والالتزام بالواجبات الشرعية التي يؤكد عليها، وهذا ليس بالغريب، فقد عودي الرسل وكُذِّبوا وأوذوا، وضُيِّق على الدعاة المخلصين على مر العصور، وشُرِّدوا وسُجنوا وقُتلوا، وهذه سنة الله تعالى في خلقه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

---

(١) ابن عذاري، البيان: ٤/ ١٠.

إذاً: ما يلقاه الدعاة من العنت والمقاومة لقيه ابن ياسين، فقد نقض عليه الأمور وعطّل مساره الدعوي، رجل اسمه (الجوهر بن سحيم)[1] ـ أو سكّم[2] عند البكري ـ وكان فقيهاً وله بعض الأنصار، منهم رجلان من عِلية القوم، وهما كما ورد اسمهما عند البكري (أيار وإينتكو) ويبدو أن هؤلاء كانوا يرصدون أخطاء ابن ياسين، ويشيعونها بعد التزيُّد فيها وتنميقها وجعلها تخدم أغراضاً أخرى، منها التخلص من ابن ياسين الذي يعمل على توحيد الصفوف، ووضع المناهج الواضحة المستندة على الكتاب والسنة، مما لا يترك مجالاً للترقي في هذه الحياة الجديدة إلا لأصحاب الزهد بالمكاسب الذاتية، سواء كانت مادية أو معنوية، وهذا ما لا يرضي أصحاب الأغراض والأهداف المرسومة للوصول إلى غايات معلومة لديهم.

قال البكري: «وكأنهم وجدوا في أحكامه بعض التناقض»[3]، لا نشك بأن ابن ياسين لديه بعض الأخطاء لأنه بشر لا يوحى إليه وهو يجتهد، والنبيّ ﷺ يقول: «كُلُّ ابنِ آدمَ خَطَّاءٌ، وخيرُ الخطَّائينَ التوَّابونَ».

ولا شك أيضاً أن الجوهر وأصحابه أخذوا يُروِّجون هذه الأخطاء

---

(١) المصدر السابق: ٤/٨.
(٢) البكري، المغرب، ص١٦٥.
(٣) م. ن.

ويشككون في إخلاص ابن ياسين وذلك لتضليل الرأي العام لدى قبائل الملثمين وتجريد ابن ياسين من الأنصار، ولاسيَّما وأن هذه الشائعات صادفت هوى لدى عامة الناس وضعفاء الإيمان والجهلة، وما أكثرهم في تلك القبائل؛ وذلك للتملُّص من النظام، وتطبيق الحدود الشرعية، بعد أن اعتاد هؤلاء أن يعيشوا كما يشاؤون.

وبالفعل تم لهذه المجموعة تنفيذ مخططها في بداية الأمر فهاجموا ابن ياسين «وعزلوه عن الرأي والمشورة، وقبضوا منه بيت مالهم، وطردوه وهدموا داره، ونهبوا ما فيها من أثاث، فخرج عبد الله بن ياسين منهم خائفاً»[1].

وهذا هو مطلب أعدائه، ولكن هل يستكين هذا الداعية أمام هذه العقبة الكأداء؟.

قبل أن نعرض لما حصل لابن ياسين بعد هذه المحنة، من المستحسن أن نبحث عن أحواله وسيرته معهم، وهل زاحمهم على ما في أيديهم من متاع الدنيا؟ هل استبد بالأمور من دونهم، وهل صنع الأتباع من المتنفعين وخصهم بالمغنم، كما يفعل أدعياء الإيمان... إلخ؟.

يتبين لنا أن عبد الله بن ياسين صاحب مؤهلات متميزة، ويتمتع بإيمان عميق وإخلاص عظيم لعقيدته، استطاع أن يثبت الأسس الأولى لحركة من أعظم الحركات الإسلامية المتمثلة بقيام دولة المرابطين

---

(١) م. ن، ص١٦٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٩.

ودورها المشرّف في توحيد الصفوف، وإنقاذ الأمة الإسلامية من الضياع الذي كان يهددها في القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي.

وأقام مدينة استخدمها حاضرة[1] له، وأمر أن تكون دُورها متساوية البنيان لا تعلو دار على أخرى.

فكأنه أراد أن يضرب لهم مثلاً في المساواة، مبتدئاً من البناء، جاعلاً من نفسه مثلاً وقدوة لهم؛ فانتهج سبيل الزهد والبعد عن المطايب التي يتنافسها الناس، مكتفياً بأقل المأكل والملبس.

أما كيف تصرَّف بعد خروجه متخفياً من داره؟ فهناك ثلاث روايات:

إحداها رواية البكري[2] التي تذكر أنه عاد إلى شيخه (واجاج) الذي مهد له طريق العودة ثانية.

والرواية الثانية ـ وهي أرجح من الأولى ـ تقول: إن عبد الله بن ياسين كتب إلى شيخه، ولم يتوجه بنفسه إليه، فأعلمه بما جرى في جدالة[3]، وبيَّن له حاله معهم، فشقَّ على الشيخ (واجاج) ما أعلمه به، فكتب إلى بعض شيوخ (جدالة) يعاتبهم على ما صدر لعبد الله بن ياسين

---

(١) البكري، المغرب، ص١٦٥ واسم هذه المدينة (ارتننى).

(٢) المصدر السابق، ص١٦٦.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٩.

منهم، وما بلغه من فعل المشاغبين عليه وهو مقيم بينهم، وعاتبهم في ذلك عتاباً شافياً، لكونهم قد انقادوا له، ثم انتقدوا ما أشاع عدوه عليه.

ويبدو أن الجداليين المذكورين ندموا على ما جرى منهم، فكتبوا إلى الشيخ (واجاج) معتذرين عن تقصيرهم في حق ابن ياسين، عندها أمر الشيخ (واجاج) تلميذه ابن ياسين بالعودة بعد أن كتب لمشايخ تلك القبائل يعلمهم أن من خالف ابن ياسين فقد خالف الجماعة[1].

أما الرواية الثالثة: وهي أن ابن ياسين لما رأى إعراضَ القوم عنه، واتّباعهم لأهوائهم عزم على الرحيل إلى بلاد السودان، الذين دخلوا في دين الإسلام يومئذ؛ إلا أن الأمير يحيى بن إبراهيم لم يتركه وقال له: «إنما أتيتُ بك لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي، وما عليَّ فيمن ضلَّ من قومي». ثم أشار عليه بقوله: «هل لك في رأي أشير به عليك إن كنت تريد الدار الآخرة؟» قال: «وما هو؟» قال: «إن هنا جزيرة في البحر فيها الحلال المحض من شجر البرية وصيد البر والبحر، ندخل فيها ونقتات من حلالها، ونعبد الله تعالى حتى نموت»[2].

وهكذا دخل ابن ياسين مع الأمير يحيى بن إبراهيم وسبعة رجال من قبيلة (جدالة) إلى تلك الجزيرة التي يرجح أنها كانت على مصب نهر

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٩؛ والبكري، المغرب، ص١٦٤.

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (العبر): ٦/ ١٨٣ وتقع هذه الجزيرة في نهر النيل السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى: ٢/ ٨.

السنغال في المحيط الأطلسي، وابتنى فيها رباطاً انبثق منه فجر جديد عمَّ بنوره المغرب كله وبلاد الأندلس، وخرَّج رجالاً مؤمنين غايتهم نشر الإسلام والجهاد في سبيل الله تعالى، وأقام ابن ياسين وصحبه في ذلك الرباط يعبدون الله تعالى حوالي ثلاثة أشهر[(١)]، فتسامع الناس بخبرهم وأنهم يطلبون الجنة والنجاة من النار، فأخذوا يتوافدون إلى ذلك الرباط، حتى كثر التائبون، مما حدا بابن ياسين أن يضع المناهج والخطط للاستفادة من هذه الحالة الجديدة، فاستخدم أسلوب الدعوة إلى الله، وذلك لتصفية القلوب وغرس الإيمان فيها.

فأخذ يقرئهم القرآن ويستميلهم إلى الخير، ويرغِّبهم في ثواب الله ويحذرهم من عذابه الأليم، حتى تمكن حبه من قلوبهم فأطاعوه؛ لما رأوا فيه من خصال الخير والزهد في حطام الدنيا، والتفاني لنصرة الإسلام من خلال تربية جيل مؤمن بالله متفهم لما له وما عليه.

وهكذا لم تمض إلا مدة يسيرة حتى اجتمع له نحو ألف[(٢)] رجل، ومن هنا كان العبء ثقيلاً على ابن ياسين، لكنه بما أوتي من علم وحكمة وألمعية في الفكر التنظيمي المستند إلى الشرع الحنيف، وبما له من خبرة سابقة مع هذه القبائل استطاع أن يُحكم البناء، وأن يجعل من هؤلاء

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٧٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/١١.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٧٩؛ السلاوي، الاستقصا: ٢/٨.

الجفاة الصحراويين نموذجاً يكاد يكون فريداً في الانضباط والطاعة والانقياد التام للمبادئ التي آمن بها عن رويّة وعلم.

ولكي لا يترك ثغرة في بنائهم الفكري بدأ معهم من الوضوء، حتى إذا فهموه علّمهم فروض الصلاة، ومن ثم الزكاة، وأقرأهم القرآن، وشرح لهم السنن وما أوجب الله من ذلك[1].

حتى إذا آمنتْ قلوبهم وسمت مداركهم وقالوا: سمعنا وأطعنا ـ خوّفهم من النار وما أعدَّ الله فيها من العذاب للكفرة والمذبذبين والمتخاذلين الذين تكالبوا على المتاع القليل والحطام الفاني، وجعلوا كتاب الله وراءهم ظِهْرياً حتى إذا ما أشفقت قلوبهم ووجلت نفوسهم، وذلك بعد مجاهدة للنفوس وكبح للشهوات، وبعد جوع وعطش وسهر ـ وصف لهم الجنة وما أعد الله فيها من النعيم الدائم، وشوّقهم إليها وأرشدهم إلى أقصر الطرق الموصلة إليها ألا وهو طريق الجهاد والتضحية بالنفس والمال والولد، حتى إذا آنس منهم ذلك دعاهم لبدء الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد واللسان وقال لهم:

«معشرَ المرابطين، إنكم جمعٌ كثير، وأنتم وجوه قبائلكم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف وتنهَوا عن المنكر، وتجاهدوا

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٧٩.

في سبيل الله حق جهاده»[1].

إذاً آن لابن ياسين أن يأمر فيُطاع ويقول فيُسمَعَ له، بل آن له أن يجني ثمار غرسه وكدِّه المتواصل، منذ أن وطئت قدماه بلاد الملثمين، تمثَّل ذلك باستجابة المرابطين له وذلك عندما قالوا له: «أيها الشيخ المبارك، مُرْنا بما شئتَ تجدْنا سامعين لك مطيعين ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا»[2].

إن هذا النص لافت الانتباه، فمن يتمعَّن فيه يستطيع أن يلمس الحال الجديد ويرى إلى أي حد تمكنت دعوة الحق، دعوة النور والعدل في نفوس هذه الكوكبة المؤمنة التي تجاوزت كل العواطف، وسمت فوق كل الروابط من خلال خدمة راية الجهاد التي رفعها ابن ياسين، ولِمَ لا يتحرر ولاء هؤلاء لدعوة الحق التي اعتنقوها وهم يتلون قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ [المجادلة: ٢٢]. فإذا حصل الولاء التام لله ولرسوله حصلت الولاية والنصرة من الله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠]. من خلال هذه

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٧٩.
(٢) المصدر السابق نفسه.

المفاهيم كان استعداد المرابطين للتضحيـة والعطاء.

ولكن هنا قد يرد تساؤل وهو: بِمَ بلغ ابن ياسين هذه المكانة الرفيعة عند تلامذته ومريديه؟ والإجابة على ذلك بكلماتٍ محدودةٍ، أنه بلغ هذه المكانة بالإيمان والصدق، والولاء الكامل لله ورسوله، والتفاني في خدمة العقيدة، يضاف إلى ذلك الزهد والورع اللذان تحلّى بهما طوال حياته... فهذا البكري يقول: «وعبد الله بن ياسين مقيم فيهم متورع عن أكل لحومهم وألبانهم، وإنما كان عيشه من صيد البرية»[1].

هذا هو أمير جماعة المرابطين المطاع، يصوم النهار ويقوم الليل، مؤثراً لإخوانه زاهداً بما في أيديهم، لا ينافسهم على دنياهم، قانونه الشرع الكريم، يطبق على الصغير والكبير، وعلى الجندي والأمير، وعلى القريب والبعيد، وتحت هذه المظلة الشرعية الكل سواء، وإنما يرتقي أهل الدين والإيمان في هذا المجتمع ممن جعلوا رائدهم وهمتهم خدمة الأمة والتضحية في سبيلها والأجر من الله، فلا إقليمية ولا قبلية بل أمة واحدة كما أرادها الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، إن أي مسلم يحب هذه الصفات ويؤمن بها ويتعلق بأهلها ويحبهم ويتفانى في طاعتهم في أي عصر وجدت، إن هذا الودّ الذي نشأ بين ابن ياسين وإخوانه كان مبنياً على قول رسول الله ﷺ:

---

(١) البكري، المغرب، ص١٦٩.

«ازهـد في الدنيـا يُحبَّـك الله، وازهـد فيما عنـد النـاس يحبَّـك الناس»[1].

ومن هنا نفهم سر النجاح المتواصل الذي شهدته دعوة المرابطين، بينما سقطت دعوات حملت المبادئ التي حملتها دعوة المرابطين، ونادت بما نادى به ابن ياسين لكنها لم تحمل صدقه وإخلاصه، فما إن تتحقق لها بعض المكاسب الفانية حتى يتهاوى أمراؤها على تلك المكاسب متنازعين، فينفتح باب الهوى والعصبية المقيتة التي لا ينتج ولا يثمر سوى تكتلات خاوية، وأطراف متناحرة لا همَّ لها سوى المتاجرة بالمبادئ والانسياق وراء بريق الدرهم والدينار، ورسول الله ﷺ قال: «تَعِسَ عبدُ الدينار والدرهم والقَطيفة والخَميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يُعْطَ لم يَرْضَ»[2].

لقد كانت دعوة المرابطين شفاء لجروح عميقة في جسد الأمة العربية والإسلامية في القرن الخامس الهجري، حيث كانت الصليبية قد آلت على نفسها أن تقتلع الوجود العربي الإسلامي في الأندلس، رافعة شعار الاسترداد، وهي نفسها تتلمَّظ في عواصم أوروبة للانقضاض على بيت المقدس، وتمزيق جسد الأمة، وتوهين عقيدتها، والسيطرة على مقدساتها وثرواتها.

---

(١) النووي، رياض الصالحين، ص١٦٩.
(٢) المصدر السابق، ص١٦٨.

إن ابن ياسين كان يفضل جانب الدعوة والإصلاح لعودة المسلمين إلى الشرع الإسلامي في حياتهم، لكن إذا تمادوا في غيِّهم ولجّوا في طغيانهم حكَّم السيف حتى يسود الحق ويُمحَق الباطل، وعليه قال لإخوانه الذين رعاهم وفقَّههم في رابطته التي كانت على مصب نهر السنغال[1]: اخرجوا إلى قومكم على بركة الله، وأنذروهم وخوِّفوهم عقاب الله، وأبلغوهم حجته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحق فخلُّوا سبيلهم، وإن أبوا عن ذلك ولجُّوا في طغيانهم استغثنا بالله عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين.

فسار كل رجلٍ منهم إلى قومه وعشيرته، فوعظهم وأنذرهم ودعاهم، فلم يجد غير الإعراض والصدود، فخرج إليهم ابن ياسين وجمع أشياخ قبائلهم ووجوهها، وقرأ عليهم حجة الله، ودعاهم إلى التوبة، وأقام ينذرهم سبعة أيام، وهم في كل ذلك لا يلتفتون إلى قوله ولا يزدادون إلا فساداً! فلما يئس منهم قال لأصحابه: قد أبلغنا في الحُجة وأنذرنا وأعذرنا وقد وجب علينا الآن جهادهم فاغزوهم على بركة الله[2].

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٢٧.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٧٩؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٢٨.

بدء الجهاد بالسيف :

بعد المبادرة الدعوية الشاملة التي قام بها ابن ياسين وإخوانه المرابطون، لم يعد هناك مجال للحلول الوسط بل أصبحنا نَلْحَظُ موقفين متناقضين: موقف جاهلي يصر على حالة التشرذم والتشتت الاجتماعي والضياع والانحطاط الخلقي، وموقف آخر يتوقد حماساً لحماية الأمة ومبادئها والعودة بها إلى طريق الحق بعد توحيد الصفوف وتحكيم الشرع الإسلامي في كل شؤون الحياة، وعلى هذا كان لا بد من الصراع بين هذين الموقفين، وإن كان يبدو لأول وهلة أن أصحاب الباطل أطول باعاً وأكثر جمعاً، إلا أن أصحاب الحق أثبَتُ قدماً وأشد إصراراً على النجاح والتضحية، وعلى الرغم من أن الجولة الدعوية الأخيرة التي شملت قبائل الملثمين لم تؤدِّ أغراضها إلا أنها لم تَخْلُ من بعض الفوائد المهمة، فعلى المستوى الإعلامي أُعذروا أمام الجميع، وعلى المستوى العملي انضم إليهم بعض المسلمين الراغبين في الجهاد حتى بلغ عدد المرابطين ثلاثة آلاف رجل(١).

فنفذ ابن ياسين وعيده بالجهاد مبتدئاً بقبائل (جدالة)، حتى حاقت بهم الهزيمة، وقُتل منهم الكثير من المعاندين، واستسلم الباقون، وأسلموا إسلاماً جديداً وحسنت حالهم، وأدَّوا ما يلزمهم من جميع

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٢٨؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٠.

ما فرض عليهم[1]، ثم جاهد قبائل (لمتونة) حتى ظهر عليهم وأذعنوا إلى الطاعة وبايعوا على إقامة الكتاب والسنة.

ويبدو أن لمتونة لم تعاند كثيراً بل آثرت الطاعة والانصياع للحق، مما كان له أثر طيب في انتشار الدعوة بين أبنائها، فحسُن إسلامهم وكانوا أشد القبائل تمسكاً بدعوة الجهاد. فلما رأت القبائل الصنهاجية الأخرى ما آل إليه الأمر في (جدالة ولمتونة) سارعت هذه القبائل إلى التوبة والإقرار بالسمع والطاعة، ويبدو أن ابن ياسين الذي عايش هذه القبائل وتفهَّم طباعها وعاداتها اتخذ لنفسه طريقة خاصة انفرد في بعض جوانبها عن فقهاء المسلمين وعن فقهاء المذهب المالكي خاصة، فمن ذلك مثلاً امتحانه لكل من أراد الانضمام إلى صفوف المرابطين ـ أي بعد أن سمع دعوته السلمية الشاملة ولم يستجب لما دعاه إليه ـ بضربه مئة سوط تطهيراً له عما ارتكبه من ذنوب وآثام سابقة، ومن ثم يعلمهم القرآن وشرائع الإسلام والصلاة وأداء الزكاة وإخراج العشر.

ومما انفرد به ابن ياسين أيضاً محاسبته كل من يتخلف عن صلاة الجماعة، حيث يجلد خمسة[2] سياط عن كل ركعة تفوته، والحقيقة أن الإسلام أكد على العمل الجماعي في كل جوانب الحياة وقد شدد النبي ﷺ على حضور صلاة الجماعة بقوله:

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٠.
(٢) البكري، المغرب، ص١٦٩.

«والذي نفسي بيده لقد هممتُ أن آمرَ بحطب فيُحتطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذَّن لها، ثم آمر رجلاً فيؤمّ الناس، ثم أُخالف إلى رجال فأُحَرِّق عليهم بيوتهم»[1] أي لتخلفهم عن صلاة الجماعة.

ولهذا نلاحظ أن القاضي (عياض) يبرر عمل ابن ياسين هذا بقوله: «إذ كانوا عنده ممن لا تصح له صلاة إلا مأموماً لجهلهم بالقراءة والصلاة»[2].

وبعد أن نظَّم ابن ياسين جانب الدعوة وجانب العبادة نلاحظ أنه يلتفت إلى الجانب الاقتصادي، فيتخذ بيتاً للمال[3] جعل من موارده الزكاة والعشور والفيء والأخماس، مما ساعد على تنظيم العمل العسكري الجهادي أيضاً، حيث تمكن المرابطون من شراء السلاح والعُدد العسكرية، وإعداد الجيوش التي ألقي على كاهلها حماية دعوة المرابطين وتطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد التي يسيطرون عليها، ومن ثم مجاهدة الوثنيين والروافض والباطنية في بلاد المغرب.

ومع ذلك لم ينس ابن ياسين الجانب العلمي[4]؛ فنراه يتفقد

---

(١) النووي، رياض الصالحين، ص٣٢٠ حديث متفق عليه.

(٢) القاضي عياض، ترتيب المدارك: ٤/ ٧٨١. قلت: يبرر هذا العمل سياسة لا شريعة (ن).

(٣) ابن زرع، روض القرطاس، ص٨٠.

(٤) م. ن.

الطلبة في البلاد المجاورة، فيرسل الأموال والمساعدات إلى طلبة العلم في بلاد المصامَدة وإلى القضاة هناك.

إن هذه الالتفاتة الطيبة نحو طلبة العلم لهي إحدى روائع ابن ياسين، حيث لم يشغله عن هذا الجانب مسائل الإمارة الفتية، ولا المشاركة في الأعمال العسكرية وقيادة الجيوش وإعدادها، لهذا كان لها أطيب الأثر في النفوس، ولاقت الارتياح التام في الأوساط العلمية المتمثلة بالربط والمدارس الفقهية آنذاك.

كما ساهمت إعلامياً بالتعريف بقائد المرابطين ودعوته «فاشتهر أمرهم في جميع بلاد الصحراء وبلاد القبلة وبلاد المصامَدة وسائر أنحاء المغرب، وأنه قام رجل بجدالة يدعو إلى الله وإلى الطريق المستقيم، ويحكم بما أنزل الله، وأنه متواضع زاهد في الدنيا، وانتشر ذلك عنه في بلاد السودان»[١].

وبفضل هذه النظرة الشمولية المتوازنة في دعوة المرابطين، استطاعوا تحقيق الكثير من المكاسب: فعلى المستوى الداخلي طبقت أحكام الشريعة الإسلامية على الجميع، التي تمتاز بقدراتها الواسعة على نشر الاطمئنان والثقة في النفوس، من خلال معالجتها مشكلات المجتمع كافة، وإيجاد الحلول العملية لها، فبفضلها زال التحاسد والتنافس بين قبائل الملثمين، وضاعف اجتماعهم الديني على عصبيتهم القبلية قوتهم

---

(١) م. ن.

بالاستبصار والاستجابة في الجهاد، وهكذا تغلب المرابطون على القبائل البربرية الكبرى وأخضعوها لسلطانهم[1].

فاستقامت[2] السبل، وقرئ القرآن وأُديت الزكاة وأقيمت الصلاة، واستتبَّ الأمن مما جعل ابن ياسين رمزاً لدعوة المرابطين اجتمعت عليه القبائل الصحراوية «والكل له مطيع، وسيرته في أموره هناك وتقريراته معروفة، يتأثر عليها مشيخة المرابطين ويحفظون من فتاويه وأجوبته مما لا يعدلون عنه»[3].

وعلى الصعيد الخارجي وجد لهم القَبول في الرأي العام «وطار ذكر ابن ياسين في العالم وتمكن ناموسه من القلوب وأحبه الناس»[4] مما فتح لهم أبواب التوسع ونشر الدعوة المرابطية في الاتجاهات المحيطة بهم كافة.

يذكر أن يحيى بن إبراهيم[5] الجدالي، قد توفي في هذه الفترة

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص١٥٨.
(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٢٨.
(٣) القاضي عياض، ترتيب المدارك: ٤/ ٧٨١؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٠.
(٤) السلاوي، الاستقصا: ٢/ ١٠.
(٥) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٢٨؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٠.

فعزم عبد الله بن ياسين على تقديم رجل يقوم بأمر المرابطين في حربهم وجهادهم لعدوهم.

وكانت قبيلة لمتونة من أكثر قبائل صنهاجة طاعة وديناً وصلاحاً، ومن أكثرها انضباطاً وتضحية، لذلك كان ابن ياسين يكرمهم ويشرفهم.

فلما أراد أن يختار القائد العسكري للمرابطين رأى أن يجعله من أبناء هذه القبيلة المخلصة فجمع رؤساء القبائل وقادتها وتدارسوا هذا الأمر وتشاوروا فيه فتم الاتفاق على تقديم[1] يحيى بن عمر اللمتوني.

٣-يحيى بن عمر اللمتوني المرابط[2]:

ذكرنا أن يحيى بن إبراهيم أمير (جدالة) كانت له رئاسة قبائل (صنهاجة) كافة ومن المعلوم أن هذا الأمر يعطي بني جدالة مكانة متميزة بين قبائل الملثمين.

والذي يبدو بعد وفاة هذا الزعيم صاحب الدور الريادي في دعوة المرابطين أن قبيلة (جدالة) أرادت أن تقدم أميراً منها خلفاً له على قبائل صنهاجة، إلا أن عبد الله بن ياسين رفض هذه النزعة القبلية التقليدية الضيقة حيث إن الأمر في الإسلام شورى، وإنه للأكفأ والأكثر استعداداً للعطاء والتضحية، ونظراً لتوافر هذه الصفات في الأمير اللمتوني

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٠.

(٢) المصدر السابق نفسه.

يحيى بن عمر فإنه اختاره وقلّده قيادة صنهاجة، وكان من أهل الدين المتين والزهد والجهاد، شديد الطاعة[1] لعبد الله بن ياسين فيما يأمره وينهاه.

فمن حسن طاعته له أنه قال له يوماً بعد إحدى الوقائع العسكرية: أيها الأمير، إن عليك حقاً أدبياً. فقال له يحيى: وما الذي أوجبه علي؟ فقال له عبد الله: لا أخبرك به حتى أؤدبك وآخذ حق الله منك، فضربه الأمير ضربات بالسوط[2]، ثم قال له: إنما ضربتك لأنك باشرت القتال بنفسك. وكان يرى أن دوره القيادي في التحريض على القتال وترتيب الصفوف، وتقوية النفوس وإدارة المعركة أهم من مشاركته في القتال.

لكننا سنلاحظ أن الشيخ أبا محمد عبد الله بن ياسين لم يلتزم بهذا، حيث إنه كان يباشر القتال بنفسه ورزق الشهادة في حربه مع قبائل برغواطة..

إن الأمير يحيى باشر مهامه بنجاح وبسط سلطان المرابطين على بلاد الصحراء وغزا بلاد السودان الغربي ففتح الكثير من مواقعها.

إلى أن كان العام ٤٤٧هـ أو ٤٤٦هـ اجتمع فقهاء (سجلماسة)[3]

---

(١) البكري، المغرب، ص١٦٦؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٢٨.

(٢) البكري، المغرب، ص١٦٧.

(٣) سجلماسة: مدينة سهلية وهي قاعدة ولاية مشهورة تلي الصحراء الفاصلة بين=

وفقهـاء (درعـة) وكتبـوا إلى عبد الله بن ياسين والأمير يحيى بن عمـر وأشياخ المرابطين، كتاباً يرغبون فيـه بتخليصهم من عَسْـفِ وجَـور حكامهم، ويطلبون منهم تطهير بلادهم من المنكرات، وإنقاذ أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار الذي يلقونه من أميرهم[1] مسعود بن وانودين الزناتي المغراوي، فلما وصل الكتاب إلى عبد الله بن ياسـين جمع رؤساء المرابطين، وشاورهم في الأمر فقالوا لـه: «أيها الشيخ، إن هذا مما يلزمنا ويلزمك فَسِرْ بنا على بركة الله تعالى»[2] فدعا لهم بخير وحثهم على الجهاد والاستعداد.

ويرى البكري أن المرابطين غـزوا (سجلماسة) بعد أن خاطبـوا أهلها ورئيسهم مسعود المغراوي فلم يجيبوهم إلى ما أرادوا فغزوهم بجيش عدته ثلاثون ألفاً[3]، فسار الجيش حتى وصل (درعة) فأخرج منها عامل مسعود المغراوي ووجد فيها خمسين ألف[4] ناقة كانت في مراعيها للأمير مسعود الذي علم بذلك فجمع جيوشه وخرج نحوهم،

= المغرب وبلاد السودان وليس في جنوبها ولا غربها عمارة، بناها بنو مدرار عام ١٤٠هـ شغلت أدواراً سياسة وتجارية هامة إلى فترة غير بعيدة وهي تدعى اليوم الريسالي.

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨١.
(٢) م. ن.
(٣) البكري، المغرب، ص١٦٧.
(٤) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨١.

فالتقوا في مواقع عظيمة كتب الله فيها النصر للمرابطين، وقُتل مسعود المغراوي وكثير من جيشه، وفرَّ الباقون؛ فأخذ عبد الله بن ياسين الغنائم والأسلحة فأخرج منها الخمس وفرَّقه في فقهاء (درعة وسجلماسة) وصلحائهما وقسم الباقي على المرابطين، وارتحل من فوره إلى سجلماسة وقضى على مقاومة بني مغراوة، ومن ثَمَّ عمل على تفقد أحوالها وتطبيق الشريعة فيها، فغيَّر ما وجد فيها من المنكرات وقطع المزامير وأحرق الخمارات وأزال المكوس وأسقط المغارم[1]، وترك ما أوجب الكتاب والسنة، وعيَّن عليها عاملاً من (لمتونة) ثم انصرف إلى الصحراء.

استشهاد يحيى بن عمر:

اختلف المؤرخون حول وفاة الأمير يحيى بن عمر بن تلاكاكين أو تلاجاجين (بالجيم المصرية).

فبينما يرى ابن أبي زرع ومن أخذ عنه مثل الناصري في (الاستقصا) أنه قضى في جهاده ببلاد السودان عام ٤٤٨هـ، يرى ابن الخطيب أنه استشهد في وقعة مع الزناتيين بسجلماسة عام ٤٤٧هـ، وذلك عندما ثار أهل سجلماسة على من أبقاهم ابن ياسين من المرابطين فيها فقتلوهم، فكرَّ للأخذ بثأرهم الأمير يحيى فكانت عليه وقيعة قتل فيها.

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨١.

أما البكري وابن عذاري وصاحب (الحلل الموشية) فإنهم يؤكدون بأنه استشهد عام ٤٤٨ هـ.

قال البكري: إن أهل (سجلماسة) غدروا بالمرابطين الذين تخلفوا فيها وقتلوا منهم عدداً كبيراً في المسجد، فندب ابن ياسين المرابطين لغزو زناتة بعد أن تواترت إليه رسل (سجلماسة) تطالبه بذلك إلا أن بني (جدالة) أبوا عليه وذهبوا إلى ساحل البحر.

وقد يكون تعيين يحيى بن عمر أميراً على صنهاجة خلفاً للأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي من أسباب هذا التخلف عن ركب المرابطين - فأمر[١] عبد الله الأمير يحيى أن يتحصن بجبل (لمتونة) - وهو جبل منيع كثير الماء والكلأ في طوله مسافة ستة أيام وفي عرضه مسافة يوم - وهناك حصن يسمى (أركي)[٢] حوله نحو عشرين ألف نخلة بناه يانوا بن عمر، أخو يحيى بن عمر فصار يحيى إلى جبل (لمتونة) وذهب عبد الله بن ياسين إلى مدينة (سجلماسة) في مئتي رجل من قبائل صنهاجة، ونزل موضعاً يقال له تامدولت - حصنٌ فيه مياه ونخل كثير - فاجتمع لعبد الله جيش كثيف من قبائل (سرطة[٣] وترجة) ولهم هنالك حصن، وكان أبو بكر بن عمر أخو يحيى بن عمر في (درعة) فأمَّره ابن ياسين مكان أخيه يحيى.

---

(١) البكري، المغرب، ص١٦٧.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب ويسميه (أزكي): ٤/ ١٤.

(٣) م. ن: من لمتونة ومسوفة ولمطة ومزجة.

ويبدو أن بني جدالة استغلوا انقسام جيش المرابطين لضرورة متطلبـات ذلك الظرف، فحاصروا يحيى ومن معه في جبل (لمتونـة) وذلـك عام ٤٤٨هـ في ثلاثين ألفاً، إلى أن التقوا في معركة عنيفة هناك قُتل فيها الكثير من الجانبين، وكان على رأسهم الأمير يحيى بن عمر.

ولموقع هذه المعركة ومكانها قداسة عند القبائل الصحراويـة، ويسبغون عليها مسحة أسطورية، فهم يذكرون أنهم يسمعون في هذا الموضع أصواتَ المؤذنين في أوقات الصلاة، لذلك يتحامونه ولا يدخله أحد، ولم يؤخذ منه سيف ولا درقة ولا شيء من أسلحتهم ولا ثيابهم[1].

وبهذا يتبين لنا أن هناك إجماعاً على أن يحيى بن عمر قضى شهيداً وأن الخلاف حول مكان استشهاده. وبويع خلفاً له أخوه أبو بكر بن عمر بن تلاكاكين.

٤ ـ أبو بكر بن عمر:

لما علم عبد الله بن ياسين إمام المرابطين وشيخهم باستشهاد القائد العام للجيش يحيى بن عمر عام ٤٤٨هـ ولّى مكانه أخاه أبا بكر بن عمر في هذا العام، وقلّده أمور الحرب والجهاد، وكان رجلاً صالحاً ورعاً، فجعل على مقدمته ابن عمه يوسف[2] بن تاشفين، الذي سيكون

(١) البكري، المغرب، ص١٦٧؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٤.
(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٢.

مدار بحثنا إن شاء الله، ويبدو أن هذه أول مرة يذكر فيها يوسف بن تاشفين، لهذا فإن الأخبار عن حياته الأولى نادرة أو تكاد تكون معدومة.

وعلى كل حال فإن ابن ياسين وثق الأمور للأمير أبي بكر بن عمر الذي كان أميراً على بلاد درعة، وأخذ له البيعة من أهل (سجلماسة) وبايعه بعض الزناتيين فضلاً عن قبيلة (لمتونة)[1] وسائر الملثمين.

وبعد أن فرغ ابن ياسين من ترتيب أمر قيادة الحرب ندب المرابطين للجهاد في بلاد المصامدة وبلاد السوس؛ فاجتمعت له جيوش عظيمة قادها الأمير أبو بكر إلى أهدافها بنجاح، فصار إلى بلاد السوس وغزا (جزولة)، وفتح مدينة ماسة ومدينة تارودانت وجميع مناطق السوس.

وكان في مدينة تارودانت قوم من الروافض يقال لهم (البجلية) ينسبون إلى علي بن عبد الله البجلي الرافضي الذي نشر ذلك المذهب في بلاد السوس أيام الخليفة العُبيدي ـ عبيد الله المهدي ـ فأشاع هذا البجلي مذهبه في تلك المنطقة؛ فتوارثه أهلها جيلاً بعد جيل لا يرون الحق إلا فيما يؤيدهم، إلى أن جاهدهم أمير الحق أبو بكر بن عمر، وأزهق باطلهم عندما فتح عاصمتهم (تارودانت) وأعاد أهلها إلى الإسلام، فالتزموا السنة والجماعة بعد أن جعل أموال مقاتليها الذين قتلوا فيئاً للمرابطين، فأظهر الله المرابطين وعلت كلمتهم وأتموا سيطرتهم على

(١) الحلل الموشية، ص٢٣.

معاقل السوس كافةً؛ فأطاعتهم جميع قبائلها[1].

وعيَّن ابن ياسين ولاته على جميع نواحيها، وأمرهم بإقامة العدل فيها وإظهار السنة وأخذ الزكاة والعُشر[2]، وأسقط ما سوى ذلك من المغارم المحدثة. وبذلك نلحظ بوضوح تمسك المرابطين بتطبيق أحكام الشريعة في كل أرض يسيطرون عليها، وهذا ما أوجد نوعاً من التعاون بين كثير من الأهالي وجيش المرابطين، تخلصاً من جور وعسف الكثير من الأمراء الذين كانوا يَحكمون على هواهم، حيث كان كل أمير يشكل دولة مستقلة يسوسها بما تمليه عليه رغبته وهواه، وهكذا استمر المرابطون ـ وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين ـ يعملون جاهدين على إعادة المسلمين إلى تحكيم الشرع الإسلامي في دنياهم، لكونه الحصن الوحيد الذي يتوفر فيه العدل والأمن والقوة.

وانطلاقاً من هذه النظرة قام عبد الله بن ياسين بجولة دعوية شاملة إلى بلاد المصامدة، ومدينة (أغمات) وذلك في مستهلٍّ عام ٤٥٠هـ، فخرج من (سجلماسة) قاصداً إلى (أغمات) فاجتمع بقبائل (وريكة وهيلانة وهزميرة)[3]، وطاف على قبائل المصامدة وقبائل بلاد تامسنا،

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٢٩؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٢.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٢.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٥؛ الحلل الموشية، ص٢٣.

داعياً هذه القبائل للعودة إلى الإسلام والانسلاخ من أخلاق الجاهلية وعاداتها التي كانت تتمثل بالفوضى السائدة في هذه القبائل.

فالفتنة قائمةٌ والغارات مستمرةٌ والنهب والسلب من عادات الكثير من أبنائها، نتيجة لغياب الوعي الإسلامي فيها فانتشر الجهل والتنافس والتشتت.

وكان ابن ياسين يعرف هذه العادات، ويعلم أنها منتشرة في حياة القبائل مما جعل مهمته ليست باليسيرة، لكن إيمانه بعقيدته وغيرته على المسلمين ورغبته في العمل على تنفيذ أوامر الشرع في الوحدة وإقامة سبل المودة بين الناس وتوفير الأمن والعدل والمنعة في دنيا المسلمين، كل هذه العوامل كانت تُولِّد لديه إرادة تَضْعُف أمامها كل العقبات، لذلك نراه يخاطب هذه القبائل بقوله:

«ألا تعرفون أنه من مات منكم في هذه الحروب الجاهلية فإنه من أهل النار»[1]. لا شك أنهم يعرفون ذلك مثلما يعرفون أن قتال المسلم للمسلم كفر وسِبابه فسوق، لكن الشيطان إذا استحوذ على القلوب أماتها، والجهل إذا تمكن من البصائر أعماها، ولا سبيل للتخلص من هذه الصفات إلا بالإيمان والتذكير بالآخرة، والمصير الأبدي فيها إما في شقاء أو سعادة.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٥.

لهذا نلاحظ أن ابن ياسين أراد أن يسلك معهم هذا المسلك لكي يحيي القلوب، ويُجلي الضمائر بالعودة إلى طريق الحق والرشاد الذي يحب فيه المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه.

ومن هذا المنطلق قال لهم ابن ياسين: «اتقوا الله وارتدعوا عما أنتم عليه من فتنتكم وقدِّموا على أنفسكم من يؤلِّفكم» فقالوا له: «ما هو فينا... ولا في قبائلنا، وكل قبيلة منا ترى أن يكون الأمير منها».

فقال لهم: إن أنتم سمعتم مني أدلكم على رأي صالح يُصلح الله به أحوالكم، هذا أمير لمتونة الصحراء أهل الزهد والورع ـ وقد كانوا سمعوا به ـ وما أصلح الله من البلاد على يديه»[1]، فاستجابوا لهذا الرأي فأخذ عليهم العهود والمواثيق بذلك.

وبعد أن حقق ابن ياسين أهدافه السامية في هذه الرحلة السلمية التي سادت فيها روح الأخوة عاد إلى (سجلماسة)، فتلقاه الأمير أبو بكر ابن عمر على مسيرة يوم منها، وسُرَّ بقدومه عليه؛ فبشره ابن ياسين بما أفاء الله له على يديه، فشكره الأمير أبو بكر على ذلك ودعا له. فقال له أبو محمد عبد الله بن ياسين: «تأهَّبْ للحركة إليهم وقدومك المبارك إليهم»[2].

---

(١) م. ن.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٥.

فأخذ أبو بكر من غد ذلك اليوم في الحركة والاستعداد، فرتب أمور (سجلماسة) وولى عليها أحد إخوانه مع جمع وافر من (لمتونة) تحوُّطاً للأمور، وخرج الأمير أبو بكر من (سجلماسة) في شهر ربيع الآخر من عام ٤٥٠هـ وبصحبته إمامه عبد الله بن ياسين وعسكر فيه أربعمئة فارس وثمانمئة راكب على النُّجُب وألفا راجل، وقد وصلت هذه القوة العسكرية إلى (أغمات وريكة)[١] في جمادى الأولى من العام نفسه، واستقبلت من قبل بعض مشايخ المصامدة على مسافة مرحلتين[٢] من (أغمات).

وبهذه الحالة دخل الأمير أبو بكر بن عمر المدينة المشهورة واستقر[٣] بها مع إمامه عبد الله بن ياسين، لتكون قاعدة انطلاق جديدة نحو تحقيق الأهداف النبيلة التي رسمها مؤسس دعوة المرابطين والمتمثلة في حماية الأمة وتوحيد أقطارها تحت راية الإسلام الخالدة.

ومنذ وصول المرابطين إلى (أغمات) جاءهم كثير من وفود القبائل

---

(١) أغمات: قرب وادي درعة وهي مدينتان: إحداهما تسمى أغمات وريكة، والأخرى أغمات هيلانة، وبينهما ثمانية أميال، وأغمات وريكة للأعيان، وبها ينزل التجار، لأنها كانت دار التجهيز إلى الصحراء. استولى عليها ابن ياسين عام ٤٤٩هـ وبهذا يتفق مع صاحب القرطاس، الحميري، الروض المعطار، ص٤٦.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٦.

(٣) السلاوي، الاستقصا: ٢/ ١٥.

المحيطة بها تبايع على السمع والطاعة لقيادة هذه الدعوة المنبعثة من ضمائر أبناء الأمة ولتساهم في العمل الجاد المبذول لتحقيق غاياتها البناءة.

ولكن على الرغم من انتشـار روح العمل الجماعي في منطقـة (أغمات) لـم تخل الساحة آنذاك ممن لا تروق لهم صحوة الأمة وعودتها إلى مبادئها التي حققت لها العزة والرقي، وكان على رأس هؤلاء أمير أغمات نفسه (لقوط بن يوسف بن علي المغراوي)[1] الذي جمع أعوانه لصد المرابطين ومقاومتهم، لكي يبقى مستمتعاً بالتسلط على أغمات ومناطقها، على حساب المصلحة العليا للأمة.

ولطالما وقف أمراء السوء هذا الموقف وحاربوا المصلحة العامة وعمقوا الفرقة ونشروا التفرقة والطائفية بكل معانيها البغيضة بين أبناء الوطن الواحد لا يردعهم أي وازع عن تنفيذ رغباتهم والمحافظة على ملذاتهم مهما كانت نتائج الأعمال التي يقومون بها، حتى لو كان ذلك في مقاومة وحدة الصف ولمِّ الشمل.

ولكن أبناء أمتنا إذا وقفوا مع الحق ووعَوا الظروف التي تحيط بهم، فإنهم قادرون على تفويت الفرصة على الأعداء وتحويلها إلى كوارث تنصبُّ على أصحابها والمخططين لها، وهذا ما جرى للقوط بن

---

(١) السلاوي، الاستقصا: ٢/ ١٥.

يوسف أمير أغمات ـ وما أكثر اللُّقطاء الذين تحكَّموا في الكثير من أجزاء الأمة فساموا أبناءها الهوان! ـ الذي علم أن لا طاقة له بالمقاومة ففر إلى بني (يفرن) ملوك (سلا وتادلا) ومعه جميع حشَمه[1].

ولما استقرَّ المرابطون في أغمات أخذوا يعدون العدة لضم بلاد (تادلا وسلا) وإنقاذ أهلها من جور القوانين إلى عدل الشرع الحنيف.

لهذا دخلوا (تادلا) وحاسبوا من ظفروا به ممن حمل السلاح من بني (يفرن) أمراء (تادلا) وظفروا بلقوط المغراوي فقتلوه[2] ثم دخلوا مدينة (سلا) لتكون مع (تادلا) لبِنة صالحة في بناء المرابطين الشامخ.

* * *

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٢؛ السلاوي، الاستقصا: ٢/ ١٥.
(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٢.

الفصل الثاني

المرابطون وقبائل برغواطة
واستشهاد عبد الله بن ياسين

الفصل الثاني

المرابطون وقبائل برغواطة
واستشهاد عبد الله بن ياسين

من خلال متابعاتنا في هذا البحث أخبار ابن ياسين وإخوانه المرابطين وتحركاتهم العسكرية والسياسية، التي تهدف إلى توحيد الصف وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، نستطيع أن نستنتج أنهم كانوا يتبعون ثلاث طرق للوصول إلى غاياتهم:

أولى هذه الطرق: أنهم كانوا يتخذون صفة المنقذ، وذلك عندما يراسلهم أهل بعض البلدان يطلبون منهم أن يأتوا إليهم ليخلصوهم من جور أمرائهم، وليطبقوا أحكام الشريعة في بلادهم، ويطهروها من المنكرات وأخلاق الجاهلية التي عمت في أرجائها، وهذا ما فعله أهل سجلماسة ودرعة[1] عندما استغاثوا بالمرابطين فأغاثوهم، ولبوا رغباتهم، وقدموا تضحيات جسيمة في سبيل ذلك، كان منها استشهاد القائد العسكري للمرابطين الأمير أبو زكريا يحيى بن عمر.

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨١.

أما الطريق الثانيـة التي اتبعها المرابطون، فهي طريـق الحوار والدعوة إلى الحق من خلال الجولات التي يقوم بها الداعية ابن ياسين، وهذا ما تمثل في منطقة أغمات[1] عندما حصل ابن ياسين على البيعة للأمير أبي بكر بن عمر من قبائل تلك المنطقة.

أما الطريق الثالثة: فقد استخدمت مع الحكـام المارقين عـن الإسلام، الذين يقفون في وجه دعوة المرابطين ويناصبونها العداء، وفي البلاد التي تنتشر فيها الأفكار الهدامة والمبادئ الضالة، وذلك بحمل هـؤلاء على العـودة إلـى الإسـلام، وتخليصهـم مـن الخـرافـات والشعوذة. وقد اتبعت هذه الطريق مع البجلية[2] وقبائل برغواطة.

وكان المرابطون يرون جهاد هذه الطوائف واجباً عليهم، ويعدُّونه أولى من أي جهاد آخر، فما إن فرغ ابن ياسين من منطقة (تامسنا) حتى أخبر أن بساحلها قبائل برغواطة في عدد عظيم، وأنهم مجوس كفار[3]، لم يكن ابن ياسين يجهل أمر برغواطة ولكنه كان يعد العدة ويتحين الفرصة للانقضاض عليها.

يذكر صاحب البيان أن ابن ياسين عندما أنهى رحلته العلمية التي استغرقت سبعة أعوام في الأندلس رجع إلى المغرب الأقصى، فمرَّ

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٥.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٢.

(٣) م. ن.

بتامسنا، ووجد فيها أمماً لا تحصى أكثرهم تحت أمراء برغواطة.

وكانت قوتهم آنذاك تتألف من أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل انضم إليهم من سائر القبائل الموالية لهم ما يزيد على عشرين ألف مقاتل ما بين فارس وراجل[1]، فلا بد إذاً من أن ابن ياسين تذكر ما عاينه من أحوال تلك البلاد، ورأى أن من المحتَّم عليه جهادهم قبل غيرهم، كيف لا وهو ينكر على المسلم التأخر عن صلاة الجماعة؟ فهل يتأخر هو عن العمل على تخليص مجتمع كامل من فكر هدَّام نشر الرذيلة والشذوذ في أرجائه؟!.

ومن المناسب هنا أن نُعرِّف ببرغواطة ومذهبها بلمحة موجزة عن تاريخها.

لمحة تاريخية عن برغواطة:

هناك عدة روايات حول أصل برغواطة ومذهبها، منها ما أورده ابن أبي زرع بقوله: إن برغواطة قبائل كثيرة وليس لهم أب واحد ولا أم واحدة، وإنما هي أخلاط من قبائل البربر اجتمعوا إلى صالح بن طريف القائم بتامسنا حين ادَّعى النبوة في أيام هشام بن عبد الملك بن مروان وكان أصله من (برناط) حصن في الأندلس، فكان يقال لمن تبعه ودخل في ديانته (برناطي) نسبة إلى ذلك الحصن فعرَّبته العرب وقالوا:

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٠.

برغواطي، فسميت هذه الفئة برغواطة.

وكان (صالح بن طريف) الذي ادعى النبوة رجلاً خبيثاً يهودي الأصل، نشأ ببرناط في الأندلس، ثم رحل إلى المشرق، واشتغل بالسحر، فجمع منه فنوناً كثيرة، ثم قدم إلى المغرب، فنزل في منطقة تامسنا، فوجد بها قوماً من البربر يعشش فيهم الجهل فأظهر لهم الإسلام والزهد واستمالهم بسحره ولسانه، واستهواهم بتمويهاته، فقدموه على أنفسهم، وأقروا بفضله، واعترفوا بولايته، وقال لهم: أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤]. وكان ذلك حوالي عام ١٢٥هـ.

وقد شرَّع هذا المتنبئ ديانة خاصة لبرغواطة كلها بدع وضلالات، فمن ذلك فرض عليهم صيام رجب، وإفطار رمضان، وخمس صلوات بالليل وخمساً بالنهار، وشرع لهم في الوضوء غسل السُّرَّة والخاصرتين، وأكثر صلاتهم إيماء لا سجود فيها، وأباح لهم أن يتزوجوا ما يشاؤون من النساء ماعدا بنات العم، وحرم عليهم رأس كل حيوان، وحرم ذبح الديك، ومن ذبح ديكاً وأكله عليه عتق رقبة.

وأعجب من ذلك أنه كان يأمرهم بأن يتبركوا ببصاق ولاتهم، وزعم أنه أوحي إليه قرآن، ومن شك في أي شيء من هذه التشريعات فهو كافر، وقرآنه يحتوي على ثمانين سورة سماها بأسماء الأنبياء، منها: سورة آدم، وسورة نوح، وسورة الأسباط، وسورة بني إسرائيل،

وسورة غرائب الدنيا[1].

ثم خرج هذا المتنبئ ـ صالح بن طريف ـ وغاب وكان قد قال لهم: إنه سيرجع إليهم في دولة السابع منهم[2]، وأوصى بشريعته لابنه إلياس بن صالح الذي لم يكن متحمساً لديانة أبيه. وبعد أن هلك هذا خلفه ابنه يونس بن إلياس بن صالح فأظهر تعصبه وقتل من لم يدخل في أمره وحرق كثيراً من قرى (تامسنا) لخلافهم له، وقتل منهم في موضع يقال له (تالوكالات) أكثر من سبعة آلاف نفس![3].

وماذا يُرتجى من الأعداء إذا تحكموا في رقاب المسلمين سوى هذا الحصاد؟! وكم من المتنبئين فعلوا ما فعله هذا المبتدع في أمتنا، مستغفلين أبناءها الذين انحرفوا عن منهجها السامي، صامِّين آذانهم عن النداء الخالد الذي يحذِّرهم من الجهل والغفلة، وأن أعداءهم لا يدخلون عليهم إلا من هذه الأبواب؛ حتى إذا تحكَّموا بمقدراتهم ساموهم الهوان!!. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وبعد هلاك يونس بن إلياس انتقل أمر برغواطة إلى أحد أقاربه

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٢ ـ ٨٤.
(٢) السلاوي، الاستقصا: ٢/١٦.
(٣) المصدر السابق نفسه.

ويدعى (أبا غفير) كانت له وقائع مشهورة في البربر، وقد أشار الشاعر سعيد بن هشام المصمودي إلى أبي غفير هذا بقوله:

وهـذي أمـةٌ هَلَكـوا وضَلُّـوا وعـاروا لا سُقُـوا مـاءً مَعينـا
يقـولـون: النبـي أبـو غفيـر فـأخـزى اللهُ أمَّ الكـاذبينـا
سيعلـم أهـل (تـامسْنـا) إذا مـا أتَـوا يـوم القيـامـة مُقْطِعينـا
هنـالـك يـونـسٌ وبنـو أبيـه يقـودون البـرابـرَ حـائـرينـا[1]

وقد اتّخذ أبو غفير هذا أربعاً وأربعين زوجة، ثم خلفه ابنه أبو حفص ابن أبي غفير.

وقد قاتل المسلمون برغواطة هذه على مرّ العصور، فقد جاهدهم الأمويون والأدارسة وأمراء المغرب[2] إلى أن جاءت دولة المرابطين ودخلت بلاد تامسنا فأولوا جهادهم أهمية كبرى.

ومما تقدّم نلاحظ أن المغرب كان يعاني محنة كبرى من جرّاء وجود هذه القبائل التي عمّرت واستعصت على كل الدول التي حاربتها وإن كانت قد مُنيت بخسائر كبيرة في أكثر الحروب التي خاضتها.

استشهاد الشيخ عبد الله بن ياسين ووصيته:

منذ أن وصل المرابطون إلى تامسنا، لم يعد يفصل بينهم وبين

---

(١) السلاوي، الاستقصا: ٢/٧.
(٢) م.ن.

برغواطة أي حاجز، فرأى ابن ياسين تقديم جهادهم على غيرهم[1]، فسار إليهم في جيش المرابطين، وكان أمير برغواطة أبو حفص بن عبد الله الذي ينتهي نسبه إلى صالح بن طريف المتنبّئ «فأخلص ـ ابن ياسين ـ فيهم الجهاد ورام التقرّب إلى الله باستئصال كلمتهم»[2].

فكان بينهم حروب عظيمة وملاحم شديدة قتل فيها الكثير من المرابطين، وأصابت عبد الله بن ياسين سيد المرابطين جراح كثيرة أثقلته، فحُمِلَ إلى معسكره وبه رمق، فجمع أشياخ المرابطين وأدلى لهم بوصيته التالية: «يا معشر المرابطين إني ميت في يومي هذا وأنتم في بلاد أعدائكم، فإياكم أن تجبنوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وكونوا ألفة وأعواناً على الحق وإخواناً في ذات الله تعالى وإياكم، والمخالفة والتحاسد على طلب الرئاسة فإنّ اللهَ تعالى يؤتي ملكه من يشاء ويستخلف في أرضه من أحب من عباده، وإني ذاهب عنكم فانظروا من ترضونه لأمركم يقود جيوشكم ويغزو أعداءكم ويقيم فيكم زكاتكم وأعشاركم»[3].

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٤.
(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٣٠.
(٣) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٤؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٣٠.
ودفن ابن ياسين بموضع مرتفع قريب من مدينة الرباط يعرف باسم كريفلة (Kurifla) ولا يزال مقامه هناك. ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٣٠.

ومن خلال هذه الوصية يتبيّن لنا أنّ ابن ياسين كان مخلصاً في كلّ ما يدعو إليه إلى حد الاستشهاد وبذل الدماء في سبيل عقيدته التي آمن بها، فلا يشغله عن بذل النصيحة لإخوانه ألم الجراح ولا نزيف الدماء التي تجري من جسده ولا قعقعة السلاح من حوله، بل إن حرصه على إتمام رسالته والبذل في سبيلها كان يشغله حتى عن نفسه.

وعلى هذا المستوى من الإيمان الراسخ واليقين الثابت يسلم ابن ياسين الروح لبارئها ليتحقق فيه قول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وذلك يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى سنة إحدى وخمسين وأربعمئة للهجرة[(١)] بعد حياة حافلة بالجد والنشاط ضرب فيها أروع الأمثلة في الصبر والثبات على هذا المبدأ، وبالزهد بالدنيا وما فيها من نعيم، حيث اكتفى بالقليل من المتاع، بل عاش متقشفاً عابداً عالماً معلماً في جميع أطوار حياته، التي تقلبت بين حالة الغربة وقلة الأنصار في بداية دعوته، عندما استضعف وهدم بيته، وخرج خائفاً مستخفياً يخشى القتل أو السجن على أيدي متنفذي القبائل. وكذلك في جزيرته التي رابط بها حتى ثاب المؤمنون إليه، فنظَّم إمكانياتهم، ونمَّى مواهبهم، وهذَّب نفوسهم بأدب الإسلام، بدلاً من

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٤؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٣٠؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٦؛ الحلل الموشية، ص٢٣؛ البكري، المغرب، ص١٦٨.

الأخلاق القبلية الجاهلية التي كانوا يحملونها[١].

وبقي عبد الله بن ياسين على ما هو عليه عندما كثر من حوله الأنصار، وأصبح يقود الجموع ويفتح الفتوح ولم يتغير بعد أن أصبح إماماً وقائداً تبايعه القبائل على السمع والطاعة، وتفتح له المغرب أبوابها رغبة ورهبة فازداد تواضعاً وخشوعاً لله رب العالمين، وتمسكاً بأهداب الدين واقفاً عند حدوده مكثراً من الصيام والقيام، ناذراً وقته للجهاد والتعليم والتعلم، حتى تمكن من تخريج جيلٍ من العلماء المجاهدين، الذين ثبتوا على خطاه التي رسمها لهم في سيرة حياته، فواصلوا مسيرته وحققوا أهداف دعوته، فمضى إلى ربه وهو يطمع بما أعده الله تعالى للمؤمنين الصابرين المجاهدين الزاهدين، وبقي المرابطون متمسكين بعقيدتهم الخالصة لله تعالى يدعون الناس إليها ويجاهدون في سبيلها حتى بنوا مجداً شامخاً اعتز به الإسلام والمسلمون، وذَلَّ به الشرك والمشركون.

مبايعة أبي بكر بن عمر خلفاً لابن ياسين:

هو الأمير أبو بكر بن عمر بن تلاكاكين اللمتوني، وأمه من قبيلة (جدالة) اسمها صفية[٢] وهو نفسه الذي خلف أخاه القائد العسكري

---

(١) الحلل الموشية، ص٢٣؛ البكري، المغرب، ص١٦٨.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٥.

للمرابطين والذي استشهد دفاعاً عن الإسلام وعن المبادئ التي اعتنقها المرابطون.

فأبو بكر كان معروفاً لدى المرابطين لكونه يشغل أعلى منصب بعد الشيخ عبد الله بن ياسين.

هذا وما إن اجتمع زعماء المرابطين لدراسة الأوضاع وتلافي الحال، ولإيجاد قائد وإمام لهم بعد فقدانهم لقائدهم الكبير الشيخ ابن ياسين، حتى كان أبو بكر بن عمر هو أول المرشحين لهذا المنصب لما له من خبرة ودراية بالمرحلة التي تمر بها جماعة المرابطين، ولما كان يتمتع به من ثقة وصحبة للشيخ عبد الله بن ياسين أكسبته تجارب كثيرة ولَّدت لديه قدرة عالية على معالجة الأحداث الصعبة والأمور الشائكة وعلى أن يكون رمزاً للمرابطين من خلال امتثاله التام لمنهج المرابطين والخط الذي سلكه الشيخ عبد الله بن ياسين وما يترتب على ذلك من الزهد والتقشف والإيثار والتضحية والصيام والقيام ونشر العدل، وعدم المحاباة على الحق، وتنفيذ شعار المرابطين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكل ما تقدم تمت البيعة لأبي بكر بن عمر دون أي متاعب أو عقبات، لهذا لم ينازعه أحد على الإمارة طوال حياته واستمر في تنفيذ برامج الدعوة في كل جوانبها.

فما إن فرغ من أمر البيعة حتى وضع الخطط الناجعة لاستئصال هذا الداء العضال، الذي استعصى على الدول الإسلامية السابقة، والذي

يمثل خنجراً مسموماً مغروزاً في الجسد الإسلامي لما له من خطورة عسكرية، ولما قام به من دور هدام كلّف المسلمين الكثير من التضحيات ولاسيَّما المرابطين، الذين خسروا أعز شيء لديهم، وهو فقدانهم لمرشدهم ومؤسس دولتهم الشيخ ابن ياسين أثناء جهاده لهذا الكيان العاتي.

فقد عبأ أبو بكر جنده وقصد مواصلة الجهاد، وتخليص الأمة من هذا الشر المستأصل متوكلاً على الله في كل أموره[1].

وهكذا استمر القتال الذي ثبت فيه المجاهدون ثباتاً عظيماً حتى هبَّتْ لهم ريح النصر، وقُذف في قلوب البرغواطيين الرعب، ففروا من النزال، والمرابطون يتبعونهم في كل مكان حتى فرَّقوا جموعهم واستأصلوا قوتهم؛ فأذعنوا بالطاعة والانقياد، وأسلموا إسلاماً جديداً، نبذوا من خلاله كل الأفكار المخالفة للكتاب والسنة، والتي خوَّلت لهم حرب المسلمين واستباحتهم في كثير من المواقع والحملات التي شنوها على المسلمين المجاورين لهم.

وبقضاء المرابطين على برغواطة، وتحطيم قوتها العسكرية، وفضح أفكارها الشاذة واستئصالها، يكون المرابطون قد قدموا خدمة كبرى للأمة بأجمعها وعلى مر العصور، حيث أنيرت هذه الزاوية

---

(١) م. ن.

المظلمة بمبادئ الحق، وأصبحت جزءاً من كيان الأمة وثغراً من ثغورها الصامدة، فضلاً عن أنهم مهدوا الطريق لربط أقاليم المغرب فيما بينها بعد إزالة هذا الكيان الغريب في تركيبه وتفكيره، ومن ثم تكوين الدولة الواحدة التي تخضع لقيادة واحدة وقانون واحد.

وبعد هذا الإنجاز الكبير الذي تحقق بقيادة الأمير الجديد للمرابطين أبي بكر بن عمر «لم يبق لديانتهم أيُّ أثر إلى اليوم... وجمع أموالهم وغنائمهم وقسَّمها بين المرابطين ورجع إلى مدينة أغمات»[1].

وفي أغمات أخذ أبو بكر بن عمر يُعد العدة ويضع الخطط للمرحلة المقبلة، وقد جاءته أعداد كبيرة من قبائل صنهاجة وجزولة والمصامدة، فترتب عليه استيعاب هذه الأعداد الجديدة وتوجيهها على طريق الجهاد لتنفيذ البرامج المرسومة للمرابطين.

وهكذا تمكن الأمير أبو بكر من إعداد جيش كبير أخضع به منطقة (فازاز) وجبالها وسائر بلاد (زناتة) وفتح مناطق (مكناسة ولواتة)[2].

ويبدو أن هذه المناطق كانت خاضعة للأمير المهدي بن يوسف بن توالي، الذي التقى الأمير أبا بكر وأعلن له الطاعة بعد أن قدَّر أن لا طاقة له بحرب المرابطين. وبهذا الصدد يذكر ابن الخطيب أن «ملك هذه

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٥.
(٢) المصدر السابق نفسه؛ الناصري، الاستقصا: ٢/ ٢٠.

البلاد يومئذ المهدي بن يوسف بن توالي جرت عليه الهزيمة إلى أن التقى الأمير أبا بكر بالطاعة»[1].

وبإقرار هذه المناطق بالطاعة للمرابطين، والانضمام إلى صفوفهم انتهت الخطوة الأولى التي رسمها أبو بكر بن عمر للمرحلة التي تلت القضاء على برغواطة، ثم عاد ثانية إلى مدينة أغمات وذلك[2] عام ٤٥٢هـ.

اختيار يوسف بن تاشفين قائداً للمغرب:

وقبل الحديث عن هذه المرحلة لا بد من التعريف بيوسف وذكر بعض خصاله فهو: يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورفيت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة بن أمية بن واتلمي بن تامليت الحميري من قبيلة لمتونة الصنهاجية. وأمه بنت عم أبيه فاطمة بنت سير بن يحيى ابن وجاج بن وارتقطين.

كانت قبيلته تسكن المنطقة الممتدة من وادي نون إلى رأس موغادور إلى مدينة أزكي شرقاً، وكانت المناطق الشمالية مقراً لبني وارتقطين حول المدينة المذكورة وقد يكون يوسف وُلد في تلك المنطقة.

وعُرفت قبيلته بالسيادة، وبسطت سيطرتها على صنهاجة،

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٣٢.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٥؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٣٢.

واستطاعت الاحتفاظ بالرئاسة منذ أن جعلها فيها الإمام ابن ياسين بعد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، لذلك فإن المنزلة الاجتماعية التي ترعرع في ظلها هذا الأمير بدت مظاهرها واضحة في سلوكه وعلى حد قول أشباخ: خُلِقَ للزعامة[1].

ملكٌ له شَـرَفُ العلى مـن حِمْيَرٍ وإن اتهموا صَنهاجـةً فهمُ هُمُ[2]

كان يوسف أسمر اللون نقيّهُ، معتدل القامة نحيف الجسم خفيف العارضين، رقيق الصوت أكحل العينين أقنى الأنف، له وفرة تبلغ شحمة الأذن، مقرون الحاجبين أجعد الشعر[3].

كـان يجمع بين جمال الطلعـة وبين جمال الجسم وبين أبـدع المواهب. كان بطلاً شجاعاً نجداً حاذقاً جواداً كريماً زاهداً في زينة الدنيا عادلاً متورعاً متقشّفاً (لباسه الصوف وطعامه خبز الشعير ولحوم الإبل وألبانها)[4]، يأكل من عمل يده عزيز النفس كثير الخوف من الله[5].

---

(١) الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: ٢/ ٦٥.
(٢) وفيات الأعيان: ٧/ ١٣٠؛ نخب تاريخية، ص٣١. والبيت للكاتب أبي محمد ابن حامد؛ جذوة الاقتباس: ٢/ ٥٤٥.
(٣) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٧؛ جذوة الاقتباس: ٢/ ٥٤٥؛ شذرات الذهب، ص٤١٢.
(٤) روض القرطاس، ص٨٧؛ الحلل، ص٥٩؛ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص٦٦؛ جذوة الاقتباس: ٢/ ٥٤٥.
(٥) الحلل، ص٥٩؛ الاستقصا: ١/ ١٢١.

كانت تسكن جسده نفس معتدلة وعاطفة وقَّادة وفكر نافذ، ثم واتته الأحداث فشحذت مواهبه، واحتك بمستويات حضارية تتراوح بين أهل الصحراء وأهل الأندلس، فكان له تقويم صادق لكل منهما، وخاض حروباً لا عهد له ببعضها فبرهن عن حسن تفهم وابتكار، وكانت شهامته وشغفه بالحرب يُسبغان عليه خِصال الفروسية، واحتقاره لمظاهر الترف تكسبه محبة شعبه، وتقوي في نفوسهم عواطف التوقير والشرف[1]. كان حليماً يحب الصفح عن الذنوب مهما كبرت، ماعدا الذين يرتكبون الخيانة بحق الدين فلا مجال للعفو عنهم.

ومن البديهي أن يوسف تأثر بشيخه عبد الله بن ياسين، وتعلم منه وحاكاه في علمه وزهده وورعه وجهاده.

إن الكتابة عن هذه المرحلة تستوجب الانتباه الشديد والتحوُّط الزائد، لما يلاحظه المطالع لهذه الفترة التاريخية من تفاوت شديد في الروايات يصل إلى حد التناقض، ولاسيَّما عند تناول الفترة الممتدة من عام ٤٥٢هـ إلى عام ٤٦٢هـ.

فهذا البكري يصمت عن ذكر أي حدث في هذه الفترة فهو يثبت استشهاد الشيخ عبد الله بن ياسين عام ٤٥١هـ ثم يتحدث عن بعض كراماته وعن بعض أحكامه وفتاويه، ثم يذكر اللثام الذي تلتزمه قبائل

---

(١) روض القرطاس، ص٨٧.

الصحراء كافة، كذلك يصف بعض عاداتهم وطعامهم وبعض الغرائب الموجودة في بلادهم من الحيوانات والمعادن النادرة وكل ما يذكره عن هذه الفترة قوله: «وأمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمئة أبو بكر بن عمر وأمرهم منتشر ومقامهم بالصحراء».

وواضح من هذا النص أنه لا يعبر عن هذه الفترة الهامة من حياة دولة المرابطين الناشئة التي كانت تزخر بالعطاء في كل جوانب الحياة وطوال أيامها الخالدة.

أما صاحب (الحلل الموشية) فهو يغفل الحديث عن هذه الفترة أيضاً فيذكر استشهاد عبد الله بن ياسين في جهاد برغواطة ثم يقول: «ولما كان في سنة ستين وأربعمئة استقامت الإمارة للأمير أبي بكر بن عمر»[1].

وهكذا يتبين لنا أيضاً أن الأحداث من ٤٥١هـ - ٤٦٠هـ لا يوجد لها أي إشارة أو حديث عند صاحب الحلل. وينضم ابن عذاري في بيانه إلى البكري وصاحب الحلل في عدم الحديث عن هذه الفترة. لكن قد يكون للعبارة التي أوردها بعد ذكره لاستشهاد ابن ياسين مبرراً له فهو يقول: «وفي ابتداء هذه الدولة اللمتونية اختلافٌ اختصرنا منه ما وقع الاتفاق عليه»[2].

---

(١) الحلل الموشية، ص٢٣.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٧.

هذه الروايات يقابلها روايات أخرى تتحدث عن هذه الفترة بشكل مفصل. ولكن الأمر المحير هو التفاوت الواضح في اعتماد تاريخ معين لأحداث كثيرة مرت في هذه الفترة كان من أهمها عودة أبي بكر بن عمر إلى الصحراء، وبناء مدينة مراكش واتفاق هذه الروايات على الأسباب التي دعت إلى عودة أبي بكر إلى الصحراء، والأسباب التي دعت إلى بناء مدينة مراكش أيضاً. ومن الطبيعي أن اعتماد هذه الروايات سيترتب عليه الأخذ بها أيضاً في قضية بداية تاريخ البطل الكبير يوسف بن تاشفين وعودة أبي بكر بن عمر ثانية إلى المغرب.

ولكن بعد أن وضح لدينا الآن أن هذه الروايات قد جعلت عودة أبي بكر إلى الصحراء وبناء مدينة مراكش، واستخلاف يوسف بن تاشفين على المغرب بعد عام ٤٦٠هـ، أصبح من المناسب أن نورد الروايات التي أرّخت لهذه الأحداث بغير هذا التاريخ، لكي يتولد لدينا تصور كامل عن هذه الفترة التي مرت بها دولة المرابطين.

إن الروايات التي تتحدث عن هذه الفترة أي الممتدة بين عامي ٤٥١هـ ـ ٤٦٠هـ جعلت عودة الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء عام ٤٥٣هـ، قال ابن أبي زرع: «فلما أراد السفر دعا ابن عمه يوسف بن تاشفين فعقد له على المغرب، وفوّض إليه أمره، وأمره بالرجوع إلى قتال من به من مغراوة وبني يفرون وقبائل البربر وزناتة، واتفق على تقديمه أشياخ المرابطين لما يعلمون من دينه وفضله وشجاعته وحزمه

ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويُمن نقيبته، فرجع يوسف بن تاشفين إلى المغرب بنصف جيش المرابطين وارتحل الأمير أبو بكر بن عمر بالنصف الثاني إلى الصحراء، وذلك في شهر ذي القعدة من سنة ثلاث وخمسين وأربعمئة ٤٥٣هـ»[١].

وقال ابن الخطيب: «وإلى هذا العهد وهو سنة ٤٥٢هـ اثنتين وخمسين وأربعمئة بلغه اختلال أحوال الصحراء ووقوع الفتن بين قومه فأشفق من ذلك وعزم على القفول إلى الصحراء، فارتحل إلى سجلماسة وأقام بها أياماً. . . ثم دعا يوسف بن تاشفين. . .»[٢].

فقد أقام أبو بكر بن عمر في سجلماسة حتى عام ٤٥٣هـ ثم انطلق إلى الصحراء عند ابن أبي زرع. وقد أخذ بهذه الرواية الناصري في كتابه (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) فقال: «كان سفر أبي بكر بن عمر إلى الصحراء في ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمئة»[٣].

وقد أخذ ابن خلدون بهذه الرواية أيضاً. وعلى هذا الأساس يكون الأمير يوسف بن تاشفين قد تقلد أمور المغرب بتكليف من أبي بكر بن عمر وإقرار من المرابطين بعد الاتفاق على تعيينه في هذا المنصب وذلك عام ٤٥٣هـ.

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٦.
(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٣٢.
(٣) السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٢١.

ويتبين أنا أبا بكر بن عمر ذهب إلى الصحراء في هذا التاريخ نفسه يصحبه نصف الجيش بدلاً من ثلثيه كما هو عند ابن عذاري[١].

وقد كان السبب الرئيس لخروج الأمير أبي بكر إلى الصحراء هو قدوم رسول من هناك يستنجد به لإصلاح الأوضاع فيها بعد اختلالها. فقد قال هذا الرسول لأبي بكر: «أيّد الله الأمير، إن جدالة أغارت على إخوانك فقتلوا الرجال وسلبوا الأموال وهزموهم»[٢]، فلما علم بذلك قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦][٣].

وكان أبو بكر رجلاً صالحاً ورعاً فعظُم عليه اقتتال المسلمين فيما بينهم؛ فعزم على السير إلى الصحراء ليصلح أحوالها أولاً، ومن ثم الإقامة فيها لجهاد الكفار من السودان[٤]، مما يستوجب عليه أن يضع الخطط المحكمة والمدروسة لكل عمل يقدم عليه، سواء كان على الصعيد الإداري أو العسكري وحتى الاجتماعي.

فعلى الصعيد الأول نراه يقدر هذا الأمر حق قدره ألا وهو إدارة المغرب، حيث القبائل القوية والحصون المنيعة والأعداء المحيطون بكيان المرابطين الناشئ والذين يرون فيه الخطر الداهم على مصالحهم

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٢١.

(٢) المصدر السابق: ٤/ ٢٠.

(٣) م. ن.

(٤) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٦.

وآمالهم، كما أن الكثير من القبائل التي خضعت مجدداً للمرابطين لا زالت لا يُركن إليها ولم يكن ولاؤها تاماً حيث لم تترسخ مبادئ المرابطين في تعاملهم بعد؛ لهذا كان على أبي بكر أن يبذل كل ما يستطيع لتقديم الحل المأمون والذي يضمن استمرار بقاء الدعوة وانتشارها في المغرب.

وقد وفِّق أبو بكر في هذا الجانب أيَّما توفيق عندما اختار يوسف بن تاشفين خَلَفاً له على المغرب أميراً مفوَّضاً باتخاذ كل ما يراه مناسباً لضمان تحقيق أهداف المرابطين وغاياتهم التي تتمثل في العمل على وحدة الصف وتطبيق أحكام الشرع كما مر معنا سابقاً.

وعندما فرغ أبو بكر من أمر إدارة المغرب وضمان استمرارية العمل الجهادي هناك نراه يلتفت إلى الجانب العسكري، وينظر إلى إمكانياته ومَهامِّه بعين العسكري المجرب فيتشاور مع أمراء المرابطين في أمر الصحراء والقوات المناسبة لتحقيق الأهداف هناك وتنفيذ المهام بشكل صحيح وقوي.

ولتحقيق هذه الآمال كان الموقف يتطلب من أبي بكر بن عمر اقتسام الجيش مع خليفته في المغرب لكي يتمكن كل منهما من أداء مهامه باقتدار وكفاءة[1].

---

(١) لا بد أن نتذكر هنا عام (١٣هـ) في عهد الصديق أبي بكر رضي الله عنه عندما=

وفي مدينة سجلماسة اقتسم أبو بكر بن عمر وابن عمه يوسف بن تاشفين جيش المرابطين، لينطلق كل منهما إلى مهمته، فرجع يوسف بن تاشفين بجيشه إلى المغرب وارتحل الأمير أبو بكر بن عمر بجنده إلى الصحراء.

أما في الجانب الاجتماعي بل العائلي، فإن ابن عمر ضرب مثلاً فريداً سما به على كل العواطف وتجاوز كل العقبات والشواغل التي تعيق مسيره أو تضعف نصرته لدعوته التي اعتنقها ونذر نفسه لها. ومما يدل على أصالة الانتماء للإسلام في أعماق ابن عمر أنه آثر أن يتحمل عناء السفر إلى الصحراء وأن يقوم هو بمهمة الإصلاح بين المسلمين مفضّلاً ذلك على البقاء في المدن والحواضر المغربية الكبرى، والتي تتوافر فيها كل سبل الراحة والترفيه، علماً أنه كان يستطيع أن يكلف أحد قواده الكبار بهذه المهمة لكنه آثر الباقي على الزائل وفضل الآخرة على الدنيا، وابتغى الأجر والمثوبة من الله، فهاهو ذا يحاور زوجه زينب النفزاوية التي تزوجها منذ عهد قريب ويقول لها: «إني سائر إلى الصحراء برسم الجهاد لعلّي أرزق الشهادة والفوز بالأجر الوافر، وأنت امرأة ذات حسن وجمال لا طاقة لك على بلاد الصحراء، ولا يمكنني أن أمشي عنك وأنت

= أمر خالد بن الوليد بالتوجه إلى الشام واقتسام الجيش مع المثنى بن حارثة الشيباني. وذلك لكي يكون هناك ربط للأحداث في تاريخنا الإسلامي بشكل عام. انظر الطريق إلى دمشق، لأحمد عادل كمال، ص٢٣٨.

في عصمتي فإن أنا متُّ كنتُ مسؤولاً عنك! والرأي أن أطلقك»[1].

وبهذا يثبت الأمير أبو بكر بن عمر أنه فوق الدنيا بأجمعها فوق أملاكها ومدنها وأموالها وحِسانها، كما أثبت أنه الخليفة الصادق لابن ياسين الذي توسم فيه الخير ووكل إليه أمور المرابطين.

إن أبا بكر بن عمر هذا هو ابن الإسلام، ابن دعوة المرابطين ولذا كان كل وقته وطاقاته ملكاً لهذه الدعوة، ساعياً سعياً حثيثاً وراء الشهادة، لكي يحظى بالنعيم الأبدي، ولكي يخلَّد في التاريخ أنه حجة على الذين يتساقطون في منتصف الطريق، عاكفين على بعض المظاهر البراقة مكتفين بالأسماء من دعواتهم وبالألقاب التي تنسبهم إلى الخط الذي سلكه أبو بكر بن عمر، بينما هم في حقيقتهم على غير مسلكه وبعيدون عن نهجه، لا همَّ للكثير منهم سوى مركب يختال فيه، أو لقب يعتاش من ورائه.

كان أبو بكر بن عمر مثالاً طيباً لمن يريد أن يخدم أمته الإسلامية بعفته وتضحيته وسيرته، فهاهو ما إن يصل إلى الصحراء حتى يصلح أحوالها ويجمع أبناءها على مبدأ الجهاد والإخاء والوحدة، وما إن تهدأ الأحوال وتستقر الأوضاع وتطَّهر النفوس حتى يجمع جيشاً تحت راية الجهاد ضد الشرك والوثنية التي كانت تسود بلاد السودان الغربي وفي مملكة غانة المجاورة لأرض المرابطين، والتي كانت تشكل خطراً على

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٦.

مؤخرة الجيش المرابطي الذي كان يقوده الأمير يوسف بن تاشفين في الشمال، فهاهو ذا يجمع الصفوف ويعبئ الكتائب وينطلق كالسهم إلى أرض الوثنية داعياً إلى الإسلام إلى دين الحق والعدل والمساواة، ومجاهداً كل ما يعترضه في هذا السبيل، ويستمر على هذه الحال حتى يفتح من أرض السودان مسيرة ثلاثة أشهر[1]، فأمَّن حدود بلاده مع غانة، ووضع في وجه خطرها سداً منيعاً من أبناء الأمة الذين آمنوا بمبادئ الخير والسلام التي ينادي بها الإسلام.

عودة أبي بكر بن عمر إلى الصحراء وأسبابها:

تبين أن أبا بكر بن عمر اعتمد على قائده وابن عمه يوسف بن تاشفين، وجعله على نصف جيش المرابطين المكلف بمهام الشمال في المغرب، بينما قاد الأمير أبو بكر بن عمر بقية الجيش المتجه نحو الجنوب.

ولا شك أن فكرة تقسيم الجيش إلى قسمين كبيرين لكل منهما قيادته المستقلة ومهامه المناطة به فكرة عسكرية فرضتها الظروف التي استجدَّت على المرابطين في ذلك الوقت، حيث تطلَّب الأمر أن يكون هناك جيش للصحراء يقوم بمهمة نشر الأمن والاستقرار وإصلاح ذات البين في منطقة الصحراء، التي هي الوطن الأصلي للمرابطين والرافد

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٦.

القوي لجيوش المرابطين، ومن ثم متابعة الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية جنوباً حيث ينتشر الشرك والوثنية والتكتلات العسكرية، التي طالما هددت بلاد الصحراء التي تسكنها قبائل المرابطين قبل اعتناقهم لدعوة الشيخ عبد الله بن ياسين، ونستطيع القول: إن نجاح قوات أبي بكر بن عمر في الجنوب أسهم إسهاماً واضحاً في تفرغ جيش الشمال الذي يقوده يوسف بن تاشفين لمهامه الواسعة وهو مطمئن لسلامة خطوطه الخلفية واستقرار الوضع في الجنوب.

والحقيقة أن اختيار يوسف بن تاشفين لقيادة جيش الشمال وإدارة أموره لم يكن من الأمور السهلة، وذلك لصعوبة المهمة وجسامة المسؤولية المترتبة على ذلك، حيث تكمن في الشمال أخطار هائلة وصعوبات جمَّة، تتمثل بوعورة المنطقة، وتنوع تضاريسها ولشدة مراس القبائل القاطنة في الشمال، وكثرة القلاع والحصون، ووجود الأسر الحاكمة، والقوى المنظمة التي تشكل إمارات مستقلة لها من الجيوش والقادة ما يضاهي قوة المرابطين الناشئة في الجانب العسكري، ولولا تفوق المرابطين بالروح المعنوية واستعدادهم المطلق للجهاد والشهادة في سبيل الإسلام وتثبيت مبادئه ونشر أحكامه وتمسكهم بتعاليم الدعوة المرابطية التي نشرت النظام ورسخت مبادئ العدل والأخوة والمساواة لما استطاع يوسف بن تاشفين إتمام مهامه كلها، وتنفيذ مخططاته ومشاريعه الجريئة، لذلك كان اختيار أبي بكر ليوسف ابن تاشفين بعد تجربة طويلة وخبرة واسعة بقدراته وإمكانياته العسكرية

والإداريـة، فضلاً عن ثباتـه على الخط الذي رسـمه مؤسـس دعـوة المرابطين لإخوانه المتمثل بالتمسك الشديد بهدي الإسـلام وأحكام الشرع والزهد والتقشف والسمو عن مفاتن الدنيا ومغريات السلطان.

بل إن أبا بكر لجأ إلى الدعاء والصلاة والتوسل إلى الله تعالى، بأن يوفقه في اختيار الرجل الصالح والقائد الكفء لاستخلافه[1]. ولحسن حظ المرابطين فقد أجمع ذوو الرأي فيهم على تقديم يوسف بن تاشفين، حيث كان هذا التقديم نابعاً عن قناعة تامة «لما يعلمون من دينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويُمن نقيبته»[2].

وبهذا الشعور العالي بعظم المسؤولية أنهى أبو بكر بن عمر علاقته بالشمال، فلمع نجم يوسف بن تاشفين نظراً لما تحقق على يديه من النجاح الباهر في أعماله العسكرية والإدارية، على الرغم من فداحة الأخطار المحيطة بكيان المرابطين الناشئ، وكثرة الأعداء الذين أخذوا يتجمعون للثأر من المرابطين، مستغلين توجه الأمير أبو بكر بن عمر بنصف الجيـش إلى الصحراء، لكنهم فوجئوا بعبقريـة القيادة الجديدة وشـجاعة ابن تاشفين وحزمـه وذكاء مشـاريعه المضادة لمخططـات الأعداء. فقد أخذ بمبدأ حشد الطاقات جميعها من أجل المعركة وكل شيء من أجل النصر.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٢٠.
(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٧٢.

فواجه أعداءه مواجهة شاملة، وسيَّر قُوَّاده لمقاتلة الأعداء في كل المناطق التي يتجمعون بها، فالهجوم خير وسيلة للدفاع وقد أثمرت هذه الجهود نتائج طيبة تمثلت بسقوط العديد من القلاع، وخضوع أغلب مناطق المغرب الأقصى في الشمال لسلطة المرابطين، كما أسفرت هذه الأعمال عن زيادة قوة الجيش المرابطي وتوسع خبراته، حيث أصبح هذا الجيش يتحرك في الجبهات كلها بأوامر يوسف بن تاشفين.

عودة أبي بكر بن عمر من الصحراء وأسبابها:

وفي الوقت الذي كانت به جيوش يوسف بن تاشفين تحرز الانتصارات الكبيرة وتوسع من رقعة نفوذها، كان الأمير أبو بكر بن عمر قد أنهى مهامه في الصحراء، حيث قضى على أسباب الفتن والخلافات، وأصلح بين القبائل وأنشأ قوة تكفلت بحماية حدود الدولة في الجنوب، وأخذت على عاتقها حمل لواء الجهاد والدعوة في مناطق السودان الغربي، فسنحت الفرصة لأبي بكر بالعودة إلى المغرب لتفقد أوضاعه والاطمئنان على سير الأحداث وأحوال الرعية والولاة في الشمال وكان ذلك حوالي عام ٤٦٥هـ[١].

وحول هذه العودة واللقاء الذي تم بين يوسف بن تاشفين وأبي بكر ابن عمر نلاحظ أن كثيراً من الروايات[٢] تحاول أن تظهر هذا اللقاء على

(١) الحلل الموشية، ص٦٤.

(٢) روض القرطاس، ص٨٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٢٣.

غير صورته الحقيقية، بل إن بعض المؤرخين يعطون هذه الروايات مُسْحَةً خيالية بعيدة جداً عن الواقع الذي كان يعيشه كل من هذين القائدين المجاهدين الزاهدين، ويحاول هؤلاء أن يدخلوا قضية زينب النفزاوية على أنها امرأة مهيمنة على مجرى السياسة في دولة المرابطين، كل ذلك للغمز من طاعة الأمير يوسف بن تاشفين وإخلاصه، متناسين أن يوسف كان من تلاميذ ابن ياسين المخلصين والذين لازالوا يحفظون وصيته لهم التي أدلى بها قبيل استشهاده، يحثهم فيها على التعاون ونبذ الحسد والتباغض، من أجل الرياسة. بل إن هذه الروايات تحمل في طياتها ما يناقضها في هذا الادعاء وذلك من خلال الأفعال والأقوال التي دارت بين هذين المجاهدين الكبيرين.

وخلاصة القول: إن هذه الروايات[1] تذكر أن أبا بكر بن عمر عندما كان مقيماً بالصحراء اتصل به ما تأتى ليوسف بن تاشفين من عظمة الملك واتساع الفتح فبدا له في أمره؛ فأقبل من الصحراء لاسترجاع أمره، وعزل يوسف بن تاشفين، إلا أن يوسف استشار زوجته زينب النفزاوية التي كانت «عنوان سعادته والقائمة بملكه والمدبرة لأمره. . .»[2]، فأشارت عليه بأن يترك ما كان معتاداً عليه من الأدب والتواضع مع الأمير أبي بكر

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/ ٢٣؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٣٢؛ ابن خلدون، العبر: ٦/ ١٨٤.
(٢) السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، ص٢٣.

وأن يظهر الترفُّع والاستبداد أثنـاء اسـتقباله ومن ثـم يلاطفه بالهدايـا والأموال والخِلع، وهكذا فعل فاستقر له الأمر. . . إلا أن إيراد مثل هذه الروايات لا يعدو كونه حديثاً مستطرفاً صيغ بهذه الصياغة إما لإمتـاع القارئ بمثل هذه الغرائب، أو للغمز من إخلاص يوسف لأمرائه وبالتالي الطعن في صدق انتمائه لدعوة المرابطين.

وإلا لماذا التأكيد على دور هذه المرأة وإظهارها بمظهر المستبد بأمور السياسة والحكم في دولة ناشئة شُغْلها الشاغل الجهاد في سبيل الله وإقامة دولة الإسلام على الأرض؟.

بل إن هذه الدولة في تلك الفترة كانت تقاتل على كل الجبهات، والأعـداء يحيطون بها من كـل الجـوانب، ويتربصـون بها للانقضاض عليها وتحطيمها، وإن دولة هذه حالها ستكون أبعد ما تكون عن النسـاء والتفرغ لرغباتهن التي غالباً ما تكون في تُرَّهات الحيـاة وسَفاسِف الأمور.

فدولة المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين كانت دولة عمل وجد وجهاد، وإن المرأة في هذه الدولة كانت مشغولة بملء الفراغ الذي يتركه غياب الرجال على الجبهات.

هذا ولا بد من التعريف بقضية هذه المرأة بشكل أوسع، فهي في روض القرطاس[(١)] زينب بنت إسحاق الهوَّاري، رجل من التجار أهله

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٤.

من القيروان، وكانت هذه المرأة تلقب بالساحرة لما تتمتع به من جمال وعقل.

وعند ابن خلدون: «زينب بنت إسحاق النفزاوية، وكانت إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة...»[1].

ولما استولى أبو بكر بن عمر على مدينة أغمات تزوجها أبو بكر بعد مقتل زوجها لقوط بن يوسف المغراوي، وكانت قبل لقوط هذا عند يوسف بن عبد الرحمن بن وطاس شيخ وريكة إحدى قبائل مدينة أغمات، وبعد مغادرة أبي بكر بن عمر المغرب إلى الصحراء تزوجها يوسف بن تاشفين بوصية من أبي بكر بن عمر نفسه، وكان يوسف متزوجاً بنساء لهن من الجمال والمكانة العالية ما هو معروف لدى المرابطين كافة منهن زوجته (قمر) أم ولده علي، الذي خلف يوسف في إمارة المسلمين والتي كانت تسمى أم الحسن أو فاض الحسن.

وكذلك (عائشة) أم القائد المعروف بالشجاعة وحسن التدبير والحملات المظفرة ولاسيَّما في الأندلس.

ولو كان لزينب هذا الدور المهيمن على سياسة يوسف لفرضت على زوجها أن يكون ابنها تميم هو ولي عهده، وهو قائد مجرّب ومشهور، ولاستطاعت أن تستخدم من الوسائل والأساليب ما يمكنها

---

(١) السلاوي، الاستقصا، ص١٥.

من الوصول إلى غاياتها مادامت الرواية تذكر أنها هي المدبرة لشؤون المغرب وهي صاحبة الحزم ورجاحة العقل. ولكن من الواضح أن اختيار يوسف بن تاشفين ولدَه علياً ولياً لعهده وأميراً للمسلمين من بعده على الرغم من أنه أصغر من أخيه تميم. وكذلك قصر الفترة الزمنية التي قضتها زينب عند زوجها ابن تاشفين قبل وفاتها وكونها متزوجة قبله ثلاث مرات تدل على ضعف هذه الرواية على الرغم من تداولها الواسع.

وإن هذا يدل على أن يوسف لم يكن ممن يتأثر بالنزعات العاطفية وهو صاحب الحزم ذو التكوين العسكري والفكر القيادي المبدع، بل إن كانت هناك مؤثرات فهي مؤثرات الشيخ عبد الله بن ياسين التي تركها في نفوس المرابطين عموماً والتي تغذي في نفوسهم حب الجهاد، والتمسك بسبل القوة والاستعداد الدائم للتضحية في سبيل الله. وإن الشهرة التي كانت لزينب ربما تكون قد جاءت لما لهذه المرأة من شهرة سابقة ولما تمتعت به من مكانة وجمال ورياسة، قبل يوسف بن تاشفين في دنيا الفوضى التي كانت تضرب بأطنابها قبل سيطرة المرابطين على هذه البلاد، واستمرار المؤرخين بترديد هذه الأحاديث في عصر يوسف بن تاشفين ـ هذا فيما إذا استمر المؤرخون بترديد هذه الشهرة في عهد يوسف ـ لكنني أذهب إلى أبعد من الدفاع عن إخلاص يوسف وإمكانياته الواسعة التي خدم بها الإسلام، وعن صفاء العلاقة وسيادة الأخوة الصادقة بينه وبين أبي بكر بن عمر، أذهب إلى الشك بهذه الرواية من أساسها، وأن كل ما قيل في هذا الموضوع هو مختلق ولا أساس له من

الصحة، وأن زينب لم تكن على قيد الحياة أثناء عودة أبي بكر بن عمر من الصحراء إلى المغرب حيث توفيت عام ٤٦٤هـ[١] بينما كانت عودة أبي بكر بن عمر عام ٤٦٥هـ[٢].

وبالكشف عن فساد هذه الرواية يتبين أن قادة الإسلام هم حملة الراية المحمدية، تلك الراية التي لا يقوى على رفعها إلا من طهرت قلوبهم، وصفت نواياهم وسمت نفوسهم فوق كل المؤثرات، فهم أكبر من أن يقعوا تحت تأثير الحسناوات، وأعظم من أن يستعبدهم حب الزعامة فيفسد عليهم صفاء الأخوة وحسن المعاملة، فالمعاني التي يحملونها في حناياهم ارتفعت بهم إلى عالم الصدق والزهد وحطمت كل حظوظ النفس في بواطنهم.

تنازل أبي بكر عن الإمارة ليوسف بن تاشفين:

وأما اللقاء الذي تم بين أبي بكر ويوسف بن تاشفين، كان لقاء طبيعياً أخوياً يشكل نقطة إيجابية مضيئة في تاريخ المرابطين.

ويمثل صورة رائعة تبين المستوى العالي الذي ارتقى إليه هؤلاء القوم، في أدب التعامل وحفظ الحقوق والالتزام بالطاعة، ورعاية العهود والمواثيق، ومقابلة الإحسان بالإحسان، فهاهو يوسف بن

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٦.
(٢) السلاوي، الاستقصا، ص٢٤.

تاشفين ما إن يسمع بقدوم أبي بكر بن عمر من الصحراء إلى المغرب حتى ينهض لاستقباله الاستقبال الذي يليق بمقامه كقائد أول في دولة المرابطين، وكمرشد روحي لجماعات الملثمين.

فخرج يوسف بجنده وحرسه، واستقبل أبا بكر في منتصف الطريق، بين أغمات ومراكش، بمنظر رائع واستعراض عسكري بديع، عبَّر فيه الجند عن مدى الانضباط والطاعة التي أصبحت حالة ثابتة في جيش المرابطين، فازدادت ثقة الأمير أبي بكر بخليفته على المغرب، وأعجب أشد الإعجاب بما شاهد من مظاهر القوة وحسن التدريب والإعداد الذي يبعث على الاطمئنان، والتفاؤل بمستقبل مشرق لدعوة المرابطين ودولتهم.

وعندما التقى القائدان نزل يوسف بن تاشفين إلى الأرض، وجلس مع أبي بكر على بُرْنُسٍ بُسط لهما في ذلك الموضع، فسمي ذلك المكان فحص البرنس إلى الآن. فتكلم الأمير أبو بكر مع يوسف في مصالح المسلمين، وأحوال الأمة ومتطلبات المرحلة المقبلة وفيما يكفل النجاح التام لمسيرة المرابطين الظافرة ثم قال له[1]: يا يوسف، أنت أخي وابن عمي، ولم أرَ من يقوم بأمر المغرب غيرك، ولا أحق به منك وأنا لا غَناء لي عن الصحراء، وما جئت إلا لأسلم الأمر إليك وأهْدِنُك في بلادك، وأعود إلى الصحراء مقرّ إخواننا ومحل سلطاننا،

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٢٤؛ الحلل الموشية، ص١٥.

وقد خلعتُ نفسي لك، ووليتك عليه فاستمر على تدبير ملكك وأنت حقيق به وخليق له، فدعا له الأمير يوسف وشكر وقال له: «لك عليّ ألا أقطع دونك أمراً ولا أستأثر - إن شاء الله - بشيء عليك»[1].

وأحضر أشياخ لمتونة وأعيان الدولة، وأمراء المصامدة، والكتّاب والشهود، والخاصة والعامة، وأشهد على نفسه بالتخلي له عن الأمر بوطن المغرب وقام فودعه الأمير يوسف بن تاشفين وعاد أبو بكر إلى موضع نزوله من أغمات، ورجع يوسف إلى مراكش[2] موضع ملكه، وشرع في إعداد حملة واسعة لدعم إمكانيات الأمير أبي بكر على شكل هدية متميزة لما حملت من لطائف عبَّر فيها يوسف بن تاشفين عمَّا يكنه للأمير أبي بكر من مودة وإجلال وتقدير وإيثار وثقة متبادلة، فهذا أبو بكر يفضل يوسف على سائر أبنائه وإخوانه وأبناء عمومته الآخرين.

ويثبت يوسف أنه أهل لهذه الثقة وجدير بهذا المقام وأهل له، حيث قام بتنفيذ المهام الموكلة إليه كافة، فأنجز فتح المغرب الأقصى بأجمعه، ووحد دويلاته وقبائله المتناحرة، ووجهها لخدمة أهداف الجهاد وإعادة حياة العزة والكرامة للمسلمين من خلال التضحيات الكبيرة التي قدمها جند المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين. ونظراً لهذا النجاح الكبير نلاحظ أن أبا بكر يؤكد تولية يوسف مرة ثانية ففي سفر

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٢٥.
(٢) الحلل الموشية، ص١٦.

أبي بكر الأول إلى الصحراء عين يوسف نائباً في المغرب، وبعد ثباته على المبادئ التي رسمتها جماعة المرابطين يأبى أبو بكر إلا أن يتخلى ليوسف عن القيادة في المغرب ويصر إصراراً جازماً على أن يخلع نفسه عن أمور الحكم هناك بل ويحضر الشهود والكتاب، ويجمع الأمراء ووجوه الناس ويشهدهم على نفسه أنه برئت ذمته من أمور المغرب، وأنهم في حِلٍّ من بيعتهم له وعليهم أن يسمعوا ويطيعوا القائد الجديد الذي حقق وحدة البلاد ونال حب الناس وثقتهم به.

بهذه النفوس المؤمنة وبهذه العقلية المتفتحة والناضجة كانت تدار شؤون دولة المرابطين، فالقيادة للأكفأ، والكفاءةُ هي الالتزام الكامل بالمبادئ، وهي الاستعداد الدائم للعطاء والسهر والنَّصَب، والانعتاق من رِبْقَةِ الشهوات المادية والمعنوية؛ بل إنها توثيق الصلة بالله طمعاً بما عنده من الثواب والأجر الجزيل والإحساس بمتطلبات الأمة والعمل على إنجازها.

لكل ما سبق لم يلاحظ أن خلافاً حصل في دولة المرابطين حول شؤون السلطة ولم نشاهد انقساماً في صفوف الجماهير، ولا تكتلات للمعارضة ضد السلطة المرابطية على طول أيام يوسف الحافلة بالإنجازات العظام. وعلى كل حال فإن أبا بكر لم يكتف بما اتخذ من إجراءات عملية في باب تثبيت الأمر ليوسف بن تاشفين في المغرب، ولم ينس من تزويده بنصائحه المعبرة عن سلامة السرائر ونظافة النيات من كل شائبة، توجيهات تدل على عظمة أولئك الرجال وشدة صبرهم

وإشفاقهم على سلامة رعاياهم وحرصهم على الخروج من المسؤولية بكل عفة ونزاهة وهذا ما نقرؤه بوصية أبي بكر التالية:

«يا يوسف إني قد وليتك هذا الأمر، وإني مسؤول عنه فاتقِ الله في المسلمين وأعتقني وأعتق نفسك، ولا تضيع من أمور رعيتك شيئاً؛ فإنك مسؤول عنهم والله تعالى يصلحك ويمدك، ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك، وهو خليفتي عليك وعليهم!»[1].

هذه المعاني هي التي يعمل دعاة الإسلام على ترسيخها في نفوس القادة؛ لأن النفوس التي تستشعر المسؤولية تجاه شعوبها ستواصل العمل من أجل خدمة تلك الشعوب فلا تستأثر بخيراتها، ولا تغفل عن تفقد حاجاتها، ولا تقحمها فيما لا تطيق. إن الشعوب أمانة في أعناق قادتها، أمانة ذات أعباء تحتاج إلى صبر واحتمال، وهذه الأمانة يحاسب عليها الله سبحانه وتعالى حساباً عسيراً، «فما من والٍ يلي أمر عشرة من المسلمين إلا جاء يوم القيامة ويداه مشدودتان إلى عنقه، فعدله إما يطلقه أو يوبقه». ومقابل هذه المحاسبة لمن يقصر تجاه مسؤوليته وضع ربنا سبحانه وتعالى جزاء وافياً ومكاناً عالياً لمن يؤدي هذه الأمانة بشرف وبنزاهة، فمقامه فوق مقام الزهاد وأهل التقوى، وإنه من المقربين عند الله، فهو أول السبعة الذين يُظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٧.

لا شك أن هذه الـوصية القيمـة تبين النظرة التي ينظر بها قـادة المرابطين إلى المسؤولية، وهي التي تبرز لنا حالة التقشف والزهد التي كان يتحلى بها هؤلاء. إن هذه النظرة وهذا الفهم لمسيرة الحياة هو الذي جعل قادة المرابطين يتقدمون الصفوف في سوح الجهاد بحثاً عن إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، فما أندر هؤلاء الرجال الذين يحملون مسؤولياتهم بأمانة وإخلاص! إنهم من طراز الخالدين الذين سطروا تاريخنا المجيد بحروف من نور وبصفحات مشرقة.

وبعد أن يسمع المجاهد الكبير يوسف بن تاشفين هذه الوصية، يأبى إلا أن يكون اسم أبي بكر بن عمر هو الاسم الرسمي في الدولة، فلا يقضي أمراً دون مشورته ولا تُضرب نقود إلا واسم أبي بكر يطرزها، إلى جانب اسم يوسف بن تاشفين ثقة متبادلة ووفاء بوفاء، ثم يعود كل من هذين القائدين إلى مقره، فأبو بكر نازل في أغمات، ويوسف يعود إلى مُرَّاكُش ليتحسس من هناك ما يستطيع أن يقدمه من ضيافة ومساعدة لنزيله الكبير أبي بكر بن عمر، فيشرع في إعداد هذه الهدية رسالة مودة ووفاء إلى نهاية الطريق.

هدية ابن تاشفين إلى أبي بكر بن عمر:

بعث يوسف بن تاشفين من مدينة مراكش إلى أبي بكر المقيم بمدينة أغمات والذي يستعد للعودة إلى الصحراء لمتابعة أعماله هناك بهذه الهدية.

«كان معظم ما فيها خمسة وعشرين ألف دينار من الذهب العين، وسبعين فرساً، منها خمسة وعشرون مجهزة بجهاز محلًى بالذهب، وسبعين سيفاً، منها عشرون محلاة والخمسون غير محلاّة، وعشرين زوجاً من المهامز المحلاة من الذهب، ومئة وخمسين من البغال المتخيَّرة من الذكور والإناث، ومئة عِمامة مقصورة، وأربعمئة من الشواشي[1]، ومئة غفارة، ومئتين من البرانس، منها بِيض وكحل وحمر، وألف شقة من الكتان، ومئة شقة من أشكر، وسبعمئة كساء بيض ومصبوغة، ومئتي شال مختلفة الألوان والأنواع، ومئتي جبة واثنتين وخمسين جبة أشكر لاط[2] ملف رفيع، وسبعين كبة ملف، وسبعة بنود كبار منها بند واحد محلى، وعشرين جارية من الأبكار، ومئة خادم وإحدى وخمسين خادماً، وعشرة أرطال من العود الرطب، منها رطلان من الغالي النفيس، وخمسة نوافج من المسك الطيب، ورطلان من العنبر الطيب، وخمسة عشر رطلاً من النَّد، إلى غير ذلك مما يطول ذكره من البقر والغنم والقمح والشعير»[3].

وأرفق يوسف هذه الهدية برسالة يعتذر فيها ويرغبه في قبول هذه الهدية ويحلف[4] له أنه ما بقي عنده شيء مما ادخره واقتناه، فقبلها الأمير

(١) شاشية: نسبة إلى الشاش وراء نهر جيحون.
(٢) نوع من الثياب الصوفية يخاط منها الأردية والأكسية.
(٣) الحلل الموشية، ص٢٨.
(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٢٦.

أبو بكر وقال: هذا خير كثير من يوسف. فناول إخوانه من تلك الخيرات وانصرف إلى الصحراء فأقام بها يجاهد المشركين المتاخمين لحدود الصحراء التي تقيم بها قبائل الملثمين إلى أن نال أمنيته في الشهادة في بعض غزواته بعد أن أصابه سهم مسموم فمات رحمه الله وذلك عام ٤٨٠هـ[1] بعد مسيرة حافلة بالعطاء والجهاد والدعوة في سبيل رفعة الإسلام وأهله. فيتابع حمل الراية من بعده أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي يمضي على نفس الطريق لم يبدل ولم يغير، فأشاد البنيان وحمى البلاد وأقام الدين ونصر السنة.

* * *

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٧.

الفصل الثالث

يوسف بن تاشفين

وتوحيد المغرب

الفَصْل الثالث

يوسف بن تاشفين

وتوحيد المغرب

حالة المغرب أيام ظهور المرابطين:

كانت المغرب والأندلس في أيام ظهور المرابطين تعيشان حالة من الفوضى والاضطراب السياسي، الذي عانت منه شعوب تلك البلاد معاناة مرة حيث غاب القانون وفقد الأمن والاستقرار، ففي المغرب كانت الفوضى تضرب أطنابها في كل جوانب الحياة: فالفقر منتشر، والجهل حالة عامة للبدو وسكان الصحاري، والكيانات الإقليمية والقبلية الضيقة تساهم إسهاماً كبيراً في تشجيع كل النشاطات السلبية، فالغارات بين القبائل قائمة بسبب وبدون سبب، وزعماء تلك الأقاليم متمسكون بسلطاتهم الهامشية تلك، وكل منهم يعمل على ضمان استمرارها وتوسيعها على حساب جيرانه بأي طريقة كانت.

فأصبح المغرب في ذلك الوقت يعاني من الانقسام الحاد سياسياً واقتصادياً ودينياً. حيث انتشرت الباطنية والأفكار الهدامة، وأصبح أهله شيعاً وأحزاباً يعيشون حالة انقسام مستمر، وصراع متجدد يؤججه أمراء السوء الذين يديرون الفتن بدون وازع من ضمير أو رادع من دين، أو وعي لمصالح الأمة وحقوقها المترتبة عليهم، لذلك عانت شعوب

المغرب من الفرقة المزرية، وويلات الطائفية وفقدان الأمن والنظام.

وكان من أبرز تلك الكيانات القائمة آنذاك ما يلي:

١ ـ ملوك (تازا) من أسرة ابن أبي العافية الذين هزمهم أمير المسلمين يوسف بعد حروب قاسية جداً وكانوا يحكمون منطقة الريف المغربي الحالية.

٢ ـ قبائل (زناتة) وكانوا في غاية من الجور والظلم والتعدي فجاهدهم أبو يعقوب إلى أن دخل قلعتهم المنسوبة إليهم[١].

٣ ـ (مكناسة) ويتزعمها آل (الكزنائي).

٤ ـ عاصمة الجنوب وتسيطر عليها عائلة (وانودين) وزعيمها مسعود بن وانودين وتخضع له مدينة درعة أيضاً.

٥ ـ إقليم (تامسنا) وتسيطر عليه قبائل برغواطة بمذاهبها الفاسدة وعقائدها الضالة.

٦ ـ أغمات كانت تحكمها أسرة لقوط بن يوسف المغراوي.

٧ ـ وكان إقليم فازاز يشكل كياناً مستقلاً.

٨ ـ مدينة تارودانت وما حولها تخضع للبجلية الرافضة وغير ذلك كثير من الكيانات المتناحرة.

---

(١) م. ن.

وفي مثل هذه الظروف المأساوية التي عاشتها الأمة في بلاد المغرب وفي غيرها من الأقاليم، يصعب على دعاة الإصلاح أن يجدوا من يؤازرهم أو يسمع لإرشاداتهم وتحذيراتهم لأن الناس في مثل هذه الأوضاع يشغلون بترهات الحياة من التباهي بالمظاهر والسعي وراء المصالح الضيقة والمقاصد الشخصية، وإن أي شعب تكون همته في هذه الأمور الهامشية ستكون نظرته قاصرة على مبدأ (غداً بظهر الغيب واليوم لي) فتضعف الهمم وتسود الفرقة والبغضاء بين أبناء الأمة الواحدة، وتسود الغفلة واللامبالاة نفوس الحكام الذين ستكون مخططاتهم وتدابيرهم تدور حول الحفاظ على مقاعد الحكم بأي طريقة كانت.

أما حدود البلاد وحقوق العباد ومصالح الشعوب فهذه كلها مسائل فيها نظر مادامت العروش سالمة والألقاب باقية، وهذه الأوضاع لن تكون مستورة عن أعين الأعداء الذين يبحثون عن مثل هذه الفرص، التي توفر عليهم عناء التخطيط والرصد لإمكانيات الأمة وقدراتها؛ لأنها ستكون معروفة للداني والقاصي وبما أن أبناءها هتكوا حرمتها ومزّقوا أستارها بصراعاتهم الداخلية فإن الأعداء الذين لا يرعون فيها إلاً ولا ذمَّة لا يرضيهم غير استباحة الدماء، واستغلال الخيرات ونهب الثروات وطمس الحريات، ومحاربة كل دعوة إصلاحية جادة، ولكن على الرغم من كل ما مرَّ فإن الصدق والعزيمة الأكيدة والمسار الواضح الصريح إذا ما توفرت وتمكنت من قلوب المخلصين لهذه الأمة فإن النصر سيكون حليفهم، وستعلوا شعاراتهم ومبادئهم النابعة من صميم المصلحة

الحقيقية للأمة فوق كل ما سواها، وعندها لن تُغلب إرادة المخلصين، فتسود عقيدتهم على النفوس والضمائر فتتحرر الإرادة ويطرد الوهن، فتسمو الأهداف وترتفع المعنويات وتسهل التضحيات ويهون كل صعب.

وهذه المعاني عندما توافرت في دعوة المرابطين فاءت الأمة إلى رشدها وإذا الرايةُ واحدة والأهداف والأماني مشتركة.

فعلى الرغم من كل السيئات التي كانت تنتشر في بلاد الصحراء التي تقطنها قبائل الملثمين في بدايات القرن الخامس الهجري، استطاعت الثُلّة المؤمنة هناك أن تصحح المسار وتصلح كل الثغرات، بعد أن بذل عبد الله بن ياسين وإخوانه المرابطون كل ما في وسعهم في هذا السبيل لتوحيد الأمة الإسلامية ورصِّ صفوفها وتطهير معتقداتها، ونشر العدل والأمان في ربوعها، فارتفعت الراية والتأم الشمل بفضل الجهود والتضحيات التي بذلها المجاهدون الذين كان في مقدمتهم يوسف بن تاشفين الذي قاد المرابطين من نصر إلى نصر، ونظم الجيش ونشر الوعي الإسلامي الأصيل، وأعاد المجد المفقود في بلاد المغرب والأندلس.

يوسف بن تاشفين في المغرب الأقصى:

منذ أن عُيّن يوسف بن تاشفين أميراً على المغرب عام ٤٣٥هـ وضع نصب عينيه توحيد أقاليمه وقبائله في دولة واحدة ولكن لم يكن من

اليسير تحقيق هذا الهدف لوجود التجمعات القبلية القوية، وانتشار الدعوات الشاذة عن الإسلام في كثير من المناطق الوعرة والتي تحمل من مشاعر العداء للمسلمين ما يجعلها على استعداد كبير للقتال، وكان من أبرز هذه الكيانات برغواطة في إقليم تامسنا، وفي منطقة (سبتة وطنجة) وما حولها من المناطق التي يقودها (سكوت البرغواطي) صاحب القلاع والأساطيل المعروفة بالقوة والجبروت ونشر الإرهاب «أسطول طالما أوسع البلاد شراً، وملأ قلوب أهلها ذعراً»[1].

لكل هذه الأسباب كانت مهمة يوسف في غاية الصعوبة، إلا أن الإيمان إذا تمكن من القلوب فإنه يصنع المستحيل ويحقق العجائب، وقد كان إيمان المرابطين عميقاً بما فيه الكفاية لمجاهدة كل قوى الكفر والانحلال مجتمعة ومتفرقة في كل أنحاء المغرب، وقد تنبَّه المرابطون لخطورة انتشار المذاهب الهدَّامة في أرض المغرب فكانوا يرون مجاهدتها حقاً لله تعالى في أعناقهم، فكانوا يغتنمون كل فرصة لاجتثاث هذا الوباء المستعصي «ولما نجم أمير المسلمين في لمتونة أحاطت دولته بالفرق إحاطة القلادة بالعنق... وطفق يتبع آفاق جورهم بالعدل تَتَبُّعَ الديمة آثارَ المَحْل»[2].

ونظراً لتشعُّب المهام وتربُّص الأعداء في أكثر من جهة رأى أمير

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، ص٥٦.
(٢) م. ن، ص٥٤.

المسلمين بثاقب نظره وبنور بصيرته، أن أي تهاون أو ضعف سيتيح للأعداء نسج التحالفات وإعداد المقاتلين للوقوف بوجه الدعوة المرابطية.

لذلك نهض لمجابهة كل المخاطر المحيطة به في وقت واحد أخذاً بالعزيمة، فقسم جنده بين منقذين لمن يستغيث بهم، وبين مهاجمين لمواطن الشرك والباطنية المنتشرة في الكثير من بلاد المغرب، ومنذ أن غادر الأمير أبو بكر بن عمر المغرب إلى الصحراء في عودته الثانية جنَّد يوسف الأجناد واستنفر القبائل التي اعتنقت مبادئ الدعوة المرابطية وآمنت بالجهاد وسيلة لخلاص الأمة من كل حالات الوهن التي تعاني منها، وصنَّف جنده إلى الاختصاصات التي تتناسب مع إمكانيات كل فئة من هذه الصنوف.

استعراض الجيش المرابطي وتعيين القادة:

وفي وادي (ملوية) استعرض جند الدعوة المرابطية ممن نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله فوجدهم أربعين[1] ألفاً، فاختار منهم أربعة من القواد، وعقد لكل واحد منهم على خمسة آلاف مجاهد من قبيلته، وجعلهم طلائع للجيش المرابطي، وهؤلاء القادة هم: محمد بن تميم الجدالي، وعمران بن سليمان المسوفي، ومدرك التلكاني، وسير بن أبي بكر، إلا أنّ من أشهر طبقة قادة المرابطين اللامعين هم:

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٣٤.

أشهر قادة المرابطين:

١ ـ القائد سير بن أبي بكر اللمتوني[١]:

كان هذا الرجل من أبرز زعماء لمتونة وقادتها، وهو قريب أمير المسلمين بالمصاهرة، ولقد ظهر نبوغه العسكري وبراعته الحربية في معركة الزَّلاَّقة عام ٤٧٩هـ وفي جواز أمير المسلمين إلى الأندلس في المرة الثالثة فوَّض إليه أمور الأندلس، وعهد إليه بإخضاع ممالك الطوائف في غرب الأندلس، ثقة بكفاءته وإخلاصه: فافتتح إشبيلية عام ٤٨٤هـ من بني عباد، ثم مملكة بطليوس من بني الأفطس، ثم افتتح قواعد الغرب فيما بعد من يابرة حتى أشبونة، فحمى الثغور من اعتداءات النصارى، وانتصر على ألفونسو السادس عام ٤٩٨هـ عندما حاول ألفونسو الهجوم على إشبيلية، وهو الذي أنقذ ابن عباد[٢] في معركة الزلاقة عندما قاد الهجوم المضاد، وأوقف هجوم النصارى على أهل الأندلس، توفي عام ٥٠٧هـ رحمه الله.

٢ ـ القائد مزدلي بن محمد:

وهو مزدلي بن محمد بن يولكتان أو تيلكان بن الحسن بن محمد[٣] ابن عم الأمير يوسف بن تاشفين، وهو أحد أركان الدولة، من

---

(١) ابن الكردبوس، نص تاريخ الأندلس، ص١٠٦.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٥.

(٣) عنان، عصر المرابطين، ص٧٢.

زعماء لمتونة المشهورين أحد وجوه المرابطين «وكان بطلاً نجداً بعيد الصيت، عظيم الجلَد، أصيل الرأي، مستحكم الحنكة، طال عمره وحُمدت مواقفه، وبعدت غاراته، وعظمت في العدو وقائعه» كان من أشهر أعمال هذا القائد استرجاعه لمدينة بَلَنْسِية من جنود القمبيطور[1] وذلك عام ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م. وقد ولي بلنسية وقاد الكثير من الحملات ضد النصارى مثل حملته على برشلونة عام ٤٩٥هـ، استشهد رحمه الله قرب طليطلة عام ٥٠٨هـ.

٣ـ القائد محمد بن عائشة:

وهو الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين وكان ينسب إلى أمه، جرياً على عادة المرابطين، حيث كانوا ينسبون بعض أبنائهم إلى أمهاتهم «فيقولون: ابن فلانة، ولا يقولون ابن فلان»[2].

كان من فرسان المرابطين المشهورين، ومن كبار قوادهم، عيَّنه أمير المسلمين قائداً على شرق الأندلس بعد أن عاث القمبيطور فساداً، فولي عمل مرسية واضطلع بإقرار الأحوال في تلك المنطقة الشرقية.

وشارك في وقعة اقليش الشهيرة في عهد علي بن يوسف، وبقي

---

(١) القمبيطور: اسم المغامر القشتالي رودريجودياث ومعناه السيد المبارز، كان لا يحمل ذرة من خلق، وحشي الطباع، عدواً لكل فضيلة، لصاً محترفاً، أحرق بعض أهل بلنسية وهم أحياء.

(٢) النويري، نهاية الأرب: ٢٤/ ٢٦٥.

مجاهداً إلى أن اعتلَّ بصره ثم عمي، وعُين بدلاً منه على مرسية أخوه إبراهيم بن يوسف بن تاشفين[1].

٤ ـ القائد أبي عبد الله محمد بن الحاج:

أحد شيوخ لمتونة ومن قادتها المعروفين ومن أقارب أمير المسلمين يوسف. عرف بابن الحاج، إذ قام أبوه بأداء فريضة الحج، ظهرت براعته العسكرية في الأندلس حيث افتتح قرطبة عام ٤٨٤هـ وحارب القَشْتاليين، عين في عهد علي بن يوسف والياً على المغرب، ثم ندب لولاية بلنسية.

أخضع سرقسطة للمرابطين بعد أن استغاث أهلها بأمير المسلمين علي بن يوسف حينما ارتمى حاكمها عبد الملك بن المستعين في أحضان النصارى، وتغلبوا على مصالح الدولة فسار إليها القائد محمد بن الحاج واستولى على سَرَقُسْطة عام ٥٠٣هـ، ولبث والياً عليها يحوطها بحمايته من النصارى الذين يحيطون بها من الشرق والغرب والشمال[2].

جيش المرابطين ينطلق لتوحيد المغرب:

وبعد أن شكَّل يوسف هذه الفيالق العسكرية، وعين قيادتها رسم الخطط وحدد الأهداف، فسارت هذه الفيالق المؤمنة إلى أهدافها

---

(١) ابن الكردبوس، نص تاريخ الأندلس، ص١٠١.
(٢) عنان، عصر المرابطين، ص٧٤.

الواضحة، والتي تمثلت في قتال القبائل الخارجة عن طاعة المرابطين والخارجة عن أحكام الشرع الذي يحكم دولة المرابطين، وكان من أهم هذه القبائل مغراوة وبني يفرون[1].

أما يوسف بن تاشفين فإنه قاد بقية الجيش وسار في أثر طلائعه ينشر الإسلام ويتفقد البلاد والرعية ويرفع المكوس والضرائب الجائرة، والأحكام الوضعية، ويبقي ما أمر الله به من زكاة وعشور وما شابهها، مما لا يخالف أحكام الشرع، فكان يوسف في مسيرته هذه يدعو الناس إلى الجماعة، وإلى الصلاة ووحدة الصف وإقامة الدين والالتحاق بركب الجهاد.

فانقسم الناس إلى ثلاث فئات: فئة تعلن الطاعة فتنضم إلى الجهاد، وفئة تعلن العصيان والمعاندة، فيدعوها المرابطون إلى العودة إلى صف الجماعة، ونبذ حياة الفرقة والتشتت، فإن أبتْ حاصروها فإن لم يفلح الحصار أعلنوا عليها الجهاد حتى تعلن التوبة والقبول بأحكام الشرع، وهناك فئة ثالثة كانت تنسحب من أمام المرابطين فلا تقاتلهم ولا تنضم إليهم.

وهكذا استمر يوسف بن تاشفين يقود المرابطين رافعاً راية الجهاد حتى أثخن في بلاد المغرب، فاتسعت الدولة وكثر الجند بعد أن أخضع

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٩.

القبائل قبيلة قبيلة وأطاعته البلاد بلداً بعد بلد[1]. فرأى بفطرته العسكرية ومن خلال تجربته الجهادية، أن يعيد تنظيم جنده وينشئ فرقاً جديدة، ويعين قادة أكفاء لهذه القوات الناشئة بما يتناسب والمرحلة المقبلة والحالة التي وصلت إليها الدولة التي انتقلت في هذه الأثناء من حالة البداوة والارتباط بالصحراء إلى حالة الدولة المستقرة ذات العاصمة الشامخة والحصون والقلاع المحشوة بالجند ومتطلبات الجهاد، من الأسلحة والأقوات، وتذكر الروايات أن قوات المرابطين قد ناهزت (المئة ألف) فارس من كافة القبائل التي خضعت للراية المرابطية وآمنت بمبادئها، أما عن تاريخ هذه الإحصائية فإن الروايات تتضارب تضارباً شديداً، فمثلاً ابن أبي زرع يحدد ذلك (٤٥٤هـ).

وعلى كل حال فإن القوات المرابطية في تلك الفترة، قد زادت زيادة مذهلة وذلك لانتشار الدعوة المرابطية، وتفهم الناس لأهدافها السامية، وكذلك لانتشار الوعي الإسلامي الجهادي وانتشار الرغبة في الالتحاق بصفوف المجاهدين، كيف لا تنتشر دعوة المرابطين بعد أن قادها هؤلاء الرجال الذين آمنوا بها إلى حد الاستشهاد، وقد برهن قادتها الأوائل على صدق انتمائهم لها، فهذا مؤسس هذه الحركة ابن ياسين يقضي شهيداً عام ٤٥١هـ تحت راياتها، ومن بعده الأمير يحيى بن عمر حوالي عام ٤٤٨هـ ثم الأمير أبو بكر بن عمر عام ٤٨٠هـ، وهذا يوسف

---

(١) م. ن.

ابن تاشفين يسير على خطاهم فلا تحدث واقعة إلا ويكون في مقدمة الصفوف يتعرض للشهادة في مواطنها، آخذاً بالأسباب الموصلة إليها، مستعداً لها في كل أوقاته، ألا ترى أنه لا يلتفت إلى مطايب هذه الدنيا، فلا يأكل إلا خبز الشعير ولا يلبس إلا خشن الثياب!!.

فهل نستغرب بعد كل هذا إذا اجتمع أهل المغرب على يوسف راغبين طائعين، فإن كان جيشه قد بلغ مئة ألف ممن هم تحت السلاح، فإن المرابطين يرون أن الجهاد فريضة على كل مسلم ولاسيَّما إذا دهم بلاد المسلمين عدو، وعليه فإن كل المرابطين على أُهْبَةِ الاستعداد إذا تطلب الأمر ذلك، ولهذا لا نرى غرابة في هذا الرقم.

ولا بد هنا من الإشارة إلى براعة يوسف العسكرية التي استوعبت هذه المرحلة، حيث استغل كل هذه الإمكانيات ووجهها الوجهة المرضية من الله والمؤمنين؛ فاهتم بتنظيم الجيش اهتماماً خاصاً «وكان دعامة جيشه قوة من الفرسان، حسنة التدريب مزودة بأفضل سلاح، وصل عددها في عهده إلى مئة ألف مقاتل، وكانت كل فرقة تحمل علمها الخاص من مختلف الألوان وعليه رسوم ونقوش خاصة ولها زعيمها الخاص، ويخرج الجيش إلى الحرب تحت قرع الطبول وقد رتَّب الصفوف حسب القبائل»[1].

---

(١) يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص٤٧٩.

وبعد هذه الاستعدادات الكبيرة نهض ابن تاشفين من مراكش قاصداً مدينة (فاس) قلب المقاومة التي تقودها قبائل زناتة، فاصطدم بقبائلها من «زواغة ولماية وصدينة وسدراتة ومغيلة وبهلولة ومديونة وغيرهم من خلق عظيم وعدد كثير»[1].

وقد اتخذت هذه القبائل مدينة (صدينة) مقراً لإدارة العمليات ضد المرابطين الذين صبروا لجهاد هذه القبائل حتى حلت بها الهزيمة، واقتحم المرابطون عليهم معقلهم الذي انحصروا فيه؛ فهدموا الأسوار التي أقامتها هذه القبائل على مدينة صدينة[2].

وبالقضاء على هذه القبائل أصبح الطريق مفتوحاً إلى مدينة فاس، فأقام يوسف عليها أياماً فظَفِر بعاملها بكار بن إبراهيم، فقتله وارتحل عنها إلى مدينة صفرو[3] فدخلها عنوة من يومه وقضى على مقاومة ملوكها أولاد مسعود المغراوي صاحب سجلماسة، ثم رجع يوسف وجنده إلى مدينة فاس، فحاصرها حتى فتحت وهذا هو الفتح الأول وذلك عام ٤٥٥هـ[4]. فعَيَّن عليها والياً من المرابطين يصلح أحوالها ويقيم فيها الدين، وكان أمير فاس[5] معنصر بن حماد المغراوي قد فرَّ عنها.

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٩.
(٢) السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٢٧.
(٣) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٠.
(٤) م. ن.
(٥) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٣٥.

وبعد أن استقر الوضع في مدينة فاس قاد يوسف جنده لمتابعة أعماله الرامية إلى توحيد البلاد استعداداً للمهام الكبرى التي وضعها المرابطون نصب أعينهم منذ أيام الشيخ ابن ياسين، فتقدموا إلى بلاد غمارة فدانت لهم الكثير من تلك النواحي.

وفي هذه الفترة كان أمير بلاد مكناسة «مهدي بن يوسف الكزنائي قد بايع يوسف بن تاشفين ودخل في طاعة المرابطين، فأقره يوسف على عمله»[1].

ولا شك أن هذا الإقرار يدل دلالة واضحة على أن الذين قاتلوا المرابطين كانوا يقفون بوجه الإصلاح الشرعي وبوجه الوحدة التي يدعون لها وأن الذين لم يقبلوا الدخول في الطاعة كانوا يدافعون عن الباطل وعن المصالح غير المشروعة حيث يحكمون بلادهم بحسب ما تمليه عليهم مصالحهم، إذ لا شرع يحكم ولا قانون.

أما الذين قبلوا بالطاعة فإنهم بقوا في مواطنهم آمنين وفي أملاكهم مطمئنين، وأصبحوا شركاء في مهام الوحدة والإصلاح؛ ولهذا طلب يوسف بن تاشفين من مهدي بن يوسف الكزنائي، أن يجمع جيشه ليشارك المرابطين إتمام مسيرة الوحدة في بلاد المغرب، وقد لبى هذا الأمير طلب يوسف بن تاشفين، فجمع قواته وخرج من مدينة عوسجة

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٠.

متوجهاً إلى قلعة مهدي في إقليم فازاز والتي يحاصرهـا المرابطون بقيادة يوسف، إلا أن بني معنصر المغراوي الذين فروا من فاس عندما دخلها المرابطون استغلوا غياب يوسف بجيشه بعيداً عن فاس، فجمعوا قواتهم وهاجموا فاس وقتلوا عامل يوسف الذي عينه والياً على هذه المدينة. ويبدو أن هؤلاء قد أعدوا هذه المرة كل إمكانياتهم وحشدوا كل أنصارهم من المغراويين والزناتيين وأخذوا يترقبون الحركات العسكرية المحيطة بهم، فما إن سمعوا بمسير مهدي بن يوسف الكزنائي للالتحاق بيوسف ابن تاشفين حتى قطعوا عليه الطريق وهاجموا جيشه في معركة ضارية سقط فيها أمير مكناسة صريعاً، فتفرق جيشه وانفضَّت جموعه.

وكان يقود قـوات فـاس في هذه المعركة[1] تميم بـن معنصر المغراوي الذي أخذ رأس أمير مكناسة وبعث به إلى سكوت البرغواطي صاحب سبتة. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على قوة العلاقة مع هذه الإمارات التي تُكِنُّ العداوة للمرابطين، كما أن هذا العمل يرشدنا إلى أن المرابطين كانـوا في كل تحركاتهم في المغرب إنما يتبعون الإمـارات الخارجة عن تعاليم الإسلام، ويعملون على إنقاذ شعوبها من جور حكامها الذين فرضوا الضرائب وأقاموا دور اللهو والخمور فيها.

وقد مر بنا كيف أن المرابطين كانوا يرون في جهاد برغواطة قربة إلى الله تعالى، لما تحمل من أفكار هدامة وأخلاق منحطة، ولما يقومون

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٠.

به من غارات مُبيرة على البلاد المجاورة لهم ممن يخالف مذاهبهم الباطنية؛ لهذا كان قتالهم يحمل صفة الجهاد الذي يُبتغى به وجه الله والدار الآخرة.

وبما أن صفة الإنقاذ أصبحت ثابتة في أذهان المستضعفين في كل مكان تجاه المرابطين فإن ما فعله أهل مكناسة يدخل ضمن هذا الباب، ويدل على مدى تعلق الناس بالمرابطين، الذين يرفقون بهم ويصلحون أحوالهم ويقيمون فيهم أحكام السنة. فقد كتب هؤلاء إلى يوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة مهدي في إقليم فازاز يبذلون له الطاعة، ويحثونه على ضم بلادهم إلى سلطانه ويخبرونه بما حل في أميرهم مهدي، فخلف جيشاً من المرابطين قام على حصار قلعة مهدي المشهورة تسع[(١)] سنين حتى تم افتتاحها حوالي عام ٤٥٦هـ.

ولما رحل يوسف عن قلعة مهدي عام ٤٥٦هـ وملك مكناسة وأصلح أمورها سار إلى بني مراسن وأميرهم يعلى بن يوسف والي بلاد (فندلاوة) ثم إلى بلاد (ورغة) وقد تم إخضاع هذه البلاد لسلطة المرابطين عام ٤٥٨هـ بعد أن قمعوا المعاندين ونشروا فيها العدل والقانون.

والحقيقة أن روايات المؤرخين عن هذه الفترة تتضارب تضارباً شديداً فلا تكاد تُجمع على تاريخ معين لكثير من القضايا المهمة في حياة المرابطين، مع ملاحظة اتفاقها على الأسباب والطريقة التي تعالج بها

---

(١) م.ن.

تلك القضايا، وهذا ما يجعلنا نقول: إنه ربما جاء الخلاف على ضبط تاريخ الأحداث بالسنين التي جرت بها أن تاريخ المرابطين لم يدوَّن إلا بعد أن قامت الدولة واستقرت أركانها، كما أن الحملة الشعواء التي شنَّها الموحّدون على كل الآثار التي تدل على المرابطين سواء كانت هذه الآثار عمرانية أم ثقافية أم غيرها كان لها سبب مباشر في إيقاع المؤرخين بهذه الخلافات، وعلى كل حال فإن المرابطين واصلوا مهامهم في الشمال لنشر سلطان الدولة على باقي أجزاء المغرب، ففي عام ٤٦٠هـ انضمت بلاد غمارة وجبالها من الريف إلى طنجة لدولة المرابطين.

● فتح مدينة فاس وضمها للمرابطين:

على الرغم من عدم اختلاف المؤرخين على دخول المرابطين مدينة فاس عام ٤٥٥هـ إلا أنهم لا يتفقون على إخضاعها ثانية لسلطان المرابطين إخضاعاً نهائياً. فهذا ابن أبي زرع يرى أن المرابطين دخلوا هذه المدينة عام ٤٦٢هـ بعد حصار شديد وأنها كانت تقسم إلى قسمين: عُدْوَة القرويين، وعدوة الأندلس، فأمر يوسف بن تاشفين بهدم الأسوار الفاصلة بين العُدْوتين وردَّها مدينة واحدة، فحصنها وأتقنها، وأمر ببنيان المساجد في أحوازها وأزقَّتها وشوارعها، وأي زقاق لا يوجد فيه مسجد عاقب أهله، وجهزهم بما يحتاجونه لبناء المسجد في زقاقهم.

كما أمر يوسف بن تاشفين ببناء الحمامات والفنادق والأرجاء ثم أمر بإصلاح الأسواق وهذَّب البناء؛ وبهذا يكون قد أجرى لها إصلاحاً

شاملاً في مرافقها كافة، وأظهرها بالمظهر الذي يليق بها كمدينة مرابطية، ولا شـك أن هذه الإجراءات التي أمر بها يوسف بن تاشفين تدل على الذوق الحضاري الرفيع والنظرة المتفتحة إلى الحياة والإحساس العميق بما يجب أن تكون عليه المدن الإسلامية في ذلك الوقت.

ولا بد من القول بأن بناء المسجد يعني بناء المدرسة وإقامة صروح العلم، فالمسجد هو الذي تقام فيه حِلَقُ الدرس، وهو الذي تقام فيه الصلاة، وهو الذي تقضى فيه الأحكام، ومنه تنطلق الكتائب مجاهدة في سـبيل الله، وعلى منابر المسـاجد تنشر الإعلانات داعيـة إلى الجهاد والتعبئة العامة وعليها تقرأ أخبار المعارك وبشائر النصر. فكل زقاق لا يوجد فيه مسجد فهو عرضة للعقوبة الشديدة، لهذا التقصير الذي لا يوجد أي عذر يسوغه.

وأقام يوسف في هذه المدينـة حتى عام ٤٦٣هـ يرعاها بنفسـه ويشرف على إصلاحها إشرافاً مباشراً إلى أن اطمأن إلى نتائج الأعمال الإصلاحية التي أدت إلى نشر الاستقرار والثقة في ربوع هذه المدينة ذات الأهمية البالغة، وفي عام ٤٦٣هـ خرج إلى بلاد ملوية[1] فضمها إلى دولة المرابطين وفتح فيها حصون وطاط[2].

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطـاس، ص٩١؛ وابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٢٨؛ والحلل الموشية، ص٢٨ يضعان فتح هذه المدينة عام ٤٦٧هـ.

(٢) السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٢٩.

● جولة تفقدية دعوية في المغرب الأقصى :

بعد هذه الإنجازات الكبيرة التي أدت إلى توسع رقعة الدولة وامتداد حدودها وازدياد عدد رعاياها رأى يوسف بن تاشفين أن الأمر يتطلب إلقاء نظرة عامة وشاملة يتفحص بها حال دولته الجديدة لكي يتهيأ له معرفة الواجبات الملقاة على قيادة هذه الدولة، وكذلك الإمكانيات التي أصبحت طوع يدي هذه القيادة.

ومن أجل تفهم كل هذه الأمور، ولإحكام التلاحم الأخوي لأبناء هذه الدولة قام يوسف بن تاشفين عام ٤٦٤هـ[1] باستدعاء أمراء المغرب وأشياخ القبائل من زناتة وغمارة والمصامدة وسائر قبائل البلاد المرابطية، فلُبيت هذه الدعوة من قبل الجميع، فتألفهم أمير المسلمين وبيّن لهم مخاطر التناحر والضياع الذي تعيشه الأمة الإسلامية، وحجم المآسي التي تترتب على استمرار هذه الحالة، وأوضح أن الجميع مسؤول أمام الله وأن المخرج الوحيد إلى الحياة السعيدة الحرة الكريمة هو في التعاون والالتزام بالطاعة لأحكام الشرع، الذي يعطي لكل ذي حق حقه، ولما فيه من أحكام وقوانين تطمئن إليها النفوس، وتهواها الشعوب المؤمنة، وبهذه الحالة الإيجابية البعيدة عن الشكليات والمظاهر الخادعة أصبح الجميع أمام مسؤولياتهم وأن دعوة المرابطين هي للجميع

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩١.

وهي مسخرة بكل إمكانياتها لخدمة أبناء الأمة في كل مكان.

وبعد كل هذه المداولات قامت الوفود التي حضرت تلك المظاهرة الشورية الإيمانية الطيبة بمبايعة يوسف بن تاشفين أميراً وقائداً لمسيرة الجهاد الظافرة في ظلال الدولة المرابطية فقبل منهم بيعتهم، وعاهدهم على المضي على طريق الجهاد، وأكرمهم ووصلهم وقضى حوائجهم؛ فانفضَّت تلك الوفود إلى بلادها وكلها ثقة بالانتقال إلى حياة أفضل، وحالة أعز وأكرم، بل إن يوسف لم يكتف باللقاء مع مندوبي أبناء دولته والاستماع منهم والتشاور معهم فقط إنما «خرج معهم يطوف على جميع أعمال المغرب يتفقد أحوال الرعية، وينظر إلى سير ولاتهم وعمالهم فيه؛ فصَلَحَ على يديه الكثير من أمور الناس»[1].

وبهذه الجولة يُثبت يوسف بن تاشفين أنه ابن هذه الأمة المخلص لمبادئها والحريص على رفعتها، وأنه لم تشغله كثرة المهام الموكلة إليه عن تحسس أحوال الرعية والنصح لها لأنه «من أصبح غاشاً لرعيته لم يَرَحْ ريح الجنة».

وبعد هذه الجولة التفقدية يعود هذا القائد المؤمن لمواصلة مهامه في الجهاد والعمل على إتمام الوحدة:

ففي عام ٤٦٥هـ[2] أخضع مدينة الدمنة وجبل علودان.

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩١.

(٢) م. ن.

أما في عام ٤٦٧هـ فقد ضم جبال غياثة وبني مكود وبني رهينة، وفي هذا العام قسم دولته إلى عدة أقسام إدارية، واختار لها ولاة من أبناء الدعوة المرابطية المخلصين على الشكل التالي:

- عمر بن سليمان: على مدينة فاس وأحوازها.

- وسير بن أبي بكر: على مدائن مكناسة وبلاد مكلالة وبلاد فازات.

- داود بن عائشة: على سجلماسة ودرعة.

- تميم بن يوسف بن تاشفين: على مدينة أغمات ومراكش وبلاد السوس وبلاد المصامدة وبلاد تادلا وتامسنا.

ومن خلال هذه الأعمال الموجهة لخدمة المواطنين يتبين لنا أن القيادة المرابطية كانت تعمل على تكوين مجتمع متماسك تسوده الثقة بتوجهات المرابطين ومبادئهم، وبالتالي تأييد سياستهم الداخلية والخارجية، فينعم الشعب بالاستقرار الثابت الذي تكفله دولة ذات سيادة كاملة وقانون واضح يستند إلى كتاب الله وسنة النبي ﷺ ومصادر الفقه الإسلامية القادرة على معالجة جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية كافة.

والحقيقة أنه على الرغم من أن المصادر التاريخية أفاضت بالكتابة عن الفتوحات التي قام بها يوسف بن تاشفين وغطت أغلب أعماله

العسكرية بشكل جيد، إلا أن هذه المصادر لا تورد إلا إشارات وتلميحات لا تفصيل فيها عن الإصلاحات الكبيرة التي أدخلها المرابطون بشكل عام ويوسف بن تاشفين بشكل خاص، ولكننا إذا علمنا أن الدعوة المرابطية قد أنشئت للعمل بالكتاب والسنة والقيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإزالة ما خالف ذلك من مظاهر الفساد والانحلال، فإنهم عملوا طوال فتوحاتهم على تطبيق مبادئ الإسلام في كل أرض يحلُّون بها، ففي مدينة سجلماسة أصلحوا أحوالها وغيروا ما وجدوا فيها من المنكرات، وقطعوا المزامير وأحرقوا الديار التي كانت تباع بها الخمور، وأزالوا المكوس وأسقطوا المغارم المخزنية، وتركوا ما أوجب تركه الكتابُ والسنة[1].

ولا شك أن يوسف بن تاشفين قد تمسك بهذا الهدي طوال حياته، فقد حارب المنكرات وردم نوادي الخنا والفجور، وهدم دور الخمر، الخمرة التي هي أم الخبائث والرذيلة، والتي تنشر العجز والكسل واللامبالاة في أي مجتمع تنتشر به، كما أزال الغَبْن الذي كان يلحق بأبناء الأمة في ممتلكاتهم وأموالهم وأطاح بمظاهر التسلط من خلال المغارم والمكوس المفروضة «ولم يوجد في بلد من بلاده ولا في عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس، ولا معونة ولا خراج، لا في حاضرة ولا في بادية، إلا ما أمر الله تعالى به، وأوجبه حكم الكتاب

---

(١) م. ن، ص٨١.

والسنة، من الزكاة والعشور، وجِزْيات أهل الذمة، وأخماس وغنائم المشركين»[1].

ومن خلال هذه الأدلة يتبين لنا أن يوسف بن تاشفين كان حرباً لا هوادة فيها على كل مظاهر الفساد، حتى أوجد مجتمعاً طاهراً من أخلاق الجاهلية، بعيداً عن مجتمعات الطغاة، وما فيها من المآثم والأوزار التي تصب على شعوبهم، تلبية لرغباتهم أو لملء شَرَهِ نفوسهم المادي، أو للتغطية على عجزهم في صد الأعداء والمحافظة على حقوق الشعوب.

إن يوسف بن تاشفين الذي ثبت على مبادئ الإسلام التي آمن بها منذ كان جندياً في دعوة المرابطين استطاع بفضل ثباته ذلك أن يؤثّر تأثيراً فعالاً بحياة المجتمع الذي أصبح يتقمَّص شخصيته في هذه المآثر العظيمة ـ والناس على دين ملوكها ـ لذلك فتحت له القلوب قبل أن تفتح له القلاع والحصون، وانتشرت أخبار عدله وإصلاحاته في أنحاء المغرب كافة، فسرّت به الشعوب وأخذت تعلن انضمامها لدولته طائعة مختارة تخلصاً من جور الحكام الذين حكَّموا الأهواء والقوانين الوضعية التي تخدم مصالح الفئات الحاكمة من قبائل أو أحزاب أو اتجاهات سياسية ضالة بينما «كان يوسف ومن معه على نهج السنة واتباع أئمة الشريعة؛ فاستغاث به أهل بلاد المغرب فافتتحها شرقاً وغرباً بأيسر سعي، وأحبته الرعية وصلحت أحوالهم»[2].

---

(١) م. ن، ص٨٨.

(٢) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: ٤/ ٢٦٢.

وبهذه السياسة النابعة من آمال الشعوب الإسلامية عظمت شوكة يوسف بن تاشفين، وانتشرت دعوة المرابطين في أرجاء المغرب، وساد الاستقرار، وانصرف أبناء المجتمع إلى العمل والإنتاج والبناء؛ فعمَّ الخير والرفاه وازدهرت الحياة في بلاد المرابطين بفضل الرعاية الكبيرة التي أولاها يوسف لتلك البلاد.

● فتح مدينة تلمسان:

منذ أن سيطر المرابطون على منطقة تازا ومدينة فاس وأحوازها أصبح يوسف بن تاشفين سيد المغرب الأقصى، ولم يعد هناك أي خطر يهدد المرابطين، لكن تجمع أهل العصيان والتمرد من قبائل زناتة ولاسيَّما في مدينة تلمسان على الحدود الشرقية للمغرب الأقصى جعل يوسف بن تاشفين يفكر بمعالجة هذه الحالة الجديدة بوقت مبكر قبل أن يستفحل أمر هذا التجمع إلى شر مستطير، ومادام الهدف من تحركات المرابطين العسكرية كلها هو توحيد الصف الإسلامي وتكوين القوة القادرة على صد أي عدوان خارجي، ومناصرة الأقطار الإسلامية المهددة في وجودها وفي معتقدها، فمن المصلحة للمرابطين أن يستخدموا في تعاملهم مع من يخالفهم الحكمة والحوار والدعوة إلى العمل الجماعي امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وعملاً بهذا التوجيه القرآني فإن يوسف بن تاشفين كتب إلى أمير

تلمسان كتاباً بالعفو عنه إن نزل عن المخالفة دون قتال[1]، إلا أن يوسف جهز جيشاً كبيراً قدم عليه القائد المرابطي مزدلي اللمتوني، لمواجهة أي أعمال عدوانية يقوم بها أهل تلمسان وكانت التعليمات التي تلقاها هذا الجيش تتمثل باستخدام الحكمة والدعوة إلى توحيد الطاقات والإمكانيات من خلال الاستجابة لكتاب قائد المرابطين وإن أبى أمير تلمسان الدخول في الطاعة فالسيف أحسم لانتشار الداء.

وقد سار الأمير مزدلي بجيشه إلى حدود تلمسان، وأرسل إلى أميرها مبعوثاً يحمل كتاب الأمير يوسف بن تاشفين، الذي يدعو إلى نبذ الخلاف وتوحيد الكلمة، فلما وقف أمير تلمسان على محتوى هذه الدعوة أعلن استجابته، فخرج من تلمسان والتقى قائد جيش المرابطين الذي رحب به، وتفاوض معه على تدبير أمر تلمسان، فتم الاتفاق على دخول المرابطين إلى المدينة، بعد مهلة حدداها لذلك، وهكذا دخل مزدلي بجيشه إلى مدينة تلمسان في حال هدنة، وعُين عليها والياً مرابطياً هو يحيى بن مزدلي، ثم رجع إلى مراكش وبصحبته العباس بن يحيى أمير تلمسان الذي التقى الأمير يوسف بن تاشفين فأنعم عليه بكل خير، وأمر له بظهائر كريمة وانصرف إلى وطنه بعد هذه الرحلة وكان ذلك عام ٤٦٨هـ[2].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٢٩.

(٢) الحلل الموشية، ص٢٨.

إلا أن هناك من يرى أن فتح تلمسان كان عام ٤٧٢هـ، على يد القائد مزدلي الذي قاد جيشاً من المرابطين قوامه عشرون ألفاً، وكان بتلمسان يومئذ العباس بن بختي ـ بدلاً من يحيى ـ وأن يعلى بن العباس ابن بختي قتل على أيدي المرابطين الذين عادوا إلى مراكش بعد انتهاء هذه المهمة، لكن يبدو أن خضوع تلمسان في هذه الحملة لم يكن تاماً، وقد تكون هذه الرواية مكملة للأولى، ففي عام ٤٦٨هـ تفاهم الطرفان ولم يحدث بينهما قتال وعاد أمير تلمسان إلى وطنه ومن الممكن أن يكون هذا الأمير قد ندم على إعلان طاعته للمرابطين، أو أنه أكره من قبل قومه على إعلان الخلاف ورفض الاتفاقية السابقة، مما عرَّض بلاده لهذه الحملة التي لم تكن حاسمة، أي أنها لم تثبت سلطان المرابطين على هذه المدينة مما حدا بيوسف بن تاشفين أن يسير إليها فيخضعها لسلطان المرابطين بعد أن قتل أميرها العباس وعين عليها عاملاً من المرابطين، هو محمد بن تسينغمر المسوفي، فصارت إحدى المدن المرابطية التي تضطلع بمهامها الجهادية البناءة وكان ذلك عام ٤٧٤هـ[1].

وكما هي عادة المرابطين في تفقُّد أحوال البلاد، فقد قام يوسف ابن تاشفين بإصدار تعليماته في هذا الصدد، ومن ثم أمر ببناء مدينة (تاكرارت) بمكان معسكر المرابطين، ومن ثم انصرف يوسف متابعاً

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٢؛ السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٣٢.

جهاده في بناء دولة الوحدة التي يسودها العدل ويحوطها المجاهدون بالعزة والمنعة.

وفي العام ٤٧٤هـ وضمن إطار هذه الحملة التي يقودها يوسف تم إخضاع مدينة (وجدة) وبلاد بني (يزناسن) وما والاها، ثم فتحت مدينة (تنس ووهران وجبل ونشريس) وجميع مناطق واد شلف إلى الجزائر، وبعد هذه الحملة الموفقة في نتائجها وأهدافها أمر يوسف بن تاشفين بإيقاف الأعمال العسكرية بهذا الاتجاه، والعودة إلى مراكش العاصمة استعداداً لمهام أخرى على طريق الجهاد المستمر لبناء الأمة من جديد وتدارك أحوالها، فكان وصوله إلى العاصمة في عام ٤٧٥هـ في شهر ربيع الآخر.

● فتح مدينتي طنجة وسبتة:

كانت سبتة وطنجة لبني حمود الأدارسة، وكان علي بن حمود بن علي بن عبيد الله[(١)] بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب أول من ملك من بني حمود في الأندلس، حيث بويع له في قرطبة عام ٤٠٧هـ، واستناب الحموديون على سبتة وطنجة من وثقوا به من مواليهم الصقالبة، إلى أن كان عام ٤٥٣هـ، وكان مستخلف

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ١١٩؛ وابن بسام، الذخيرة القسم الثاني: ٢/ ٦٦٣ يذكران أن بني حمود من الفاطميين (العبيديين).

الحموديين على هاتين المدينتين أحد مواليهم ويدعى[1] رزق الله، الذي هجم عليه سقوت ـ مولى ليحيى بن علي بن حمود، واشتراه من رجل حداد من سبي برغواطة ـ وهو دون البلوغ فقتله؛ فحظي عنده لقتل رزق الله واستبداده بملك سبتة، التي أورثها لابنه الحاجب، الذي أطاعته قبائل غمارة، وامتدت أيام حكمه إلى أن كانت دولة المرابطين، وخضوع المغرب ليوسف بن تاشفين الذي وجه الدعوة إلى الحاجب سكوت للالتحاق بصف المرابطين، فهمَّ بإجابة دعوة يوسف لولا أن ابنه المعز ابن سكوت صرفه عن ذلك فأصر على عناده وطغيانه وقال: «والله لا يسمع أهل سبتة طبول اللمتوني ـ يوسف ـ وأنا حي أبداً»[2].

وكان الحاجب سقوت شيخاً كبيراً قد ناهز التسعين من عمره فكثرت جيوشه وغلظ أمره، وكانت الأفكار الضالة تسيطر على تفكيره، وتنتشر في دولته، ولما كانت همة يوسف بن تاشفين عاليةً في محاربة الفرق الخارجة عن الإسلام، فقد وضح له مجاهدة هذا الخارج لإعادة بلاده إلى سلطان الإسلام وتخليصها مما تعانيه من سوء التدبير والانحراف في الاعتقاد والتفكير، وكانت دولة يوسف بن تاشفين قد «أحاطت بالفرق إحاطة القلادة بالعنق، ودبت في ممالك العرب والعجم دبيب البرء في السقم، وطَفِقَ يتبع آفاق جورِهم بالعدل، تتبُّع الديمة آثار المحْل،

---

(١) الضبي، بغية الملتمس، ص٢٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ٢٥٠.
(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٢؛ السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٣١.

ويسبق بالعمل سَبْقَ السيفِ العذَل. وتجاوزوا إلى مصارعهم حتى لحق متبوعهم بتابعهم، وانتظم دانيهم بشاسِعهم، ودارت النوبة على سقوت البرغواطي»[1].

وأعد أمير المسلمين يوسف العدة لقتال الحاجب سكوت، وبعث له القائد المرابطي صالح بن عمران على رأس اثني عشر ألف فارس من المرابطين، وعشرين ألفاً من سائر القبائل[2]. فلما اقترب جيش المرابطين من طنجة خرج إليهم الحاجب سقوت البرغواطي بجموعه، فالتقى الجمعان في وادي منى من أحواز طنجة، والتحم القتال، وقتل الحاجب سقوت وانفضت جموعه، فدخل المرابطون طنجة واستولوا عليها عام ٤٧١هـ لتكون قاعدة ثابتة وقوية للمرابطين المتوثبين لإنجاد إخوانهم في الأندلس الذين يتعرضون لهجمة صليبية شرسة.

وبعد مقتل سقوت أفضت الدولة إلى ابنه المعز بن سقوت الذي كان مشغولاً بملاذّه وزينة دنياه متحصناً في مدينة سبتة، وقد وصفه ابن بسام بقوله: «رجل استعان بالشر وتهاون بالأمر، لا يَجبي إلا من غلول ولا يُجيش إلا ابن سبيل، لاسيَّما البحر فإنه أضرم بلججه ناراً، ولقارحه إعصاراً، أخذ كل سفينة غصباً، وأضاف إلى كل رعب رعباً، فضجت منه الأرض والسماء، والتقت الشكوى عليه والدعاء، وأذن الله لأمير

---

(١) ابن بسام، الذخيرة، القسم الثاني: ٢/ ٦٦٠.
(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩١.

المسلمين؛ فأناخ بعقوبته وحكَّم مُداه بين سنامه وذروته»[1].

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه أثناء استعدادات المرابطين لإخضاع طنجة وسبتة جازتهم وفود الأندلس ترجو المساعدة والنجدة في حرب النصارى، لكن يوسف بن تاشفين اعتذر لهم لانشغاله بقتال سكوت، ووجود قلاع وأساطيل برغواطة حاجزاً عن المساعدة وعثرة على طريق العبور إلى الأندلس، لكنه وعدهم بالنصرة بعد القضاء على دولة سقوت البرغواطي والاستيلاء على مدينة سبتة، التي بفتحها تزول العوائق وتفتح الطريق أمام المجاهدين، الذين سيعبرون لنجدة الأندلس. إلا أن الأندلسيين ونتيجة لشراسة الهجمة الصليبية على بلادهم ولشدة الأهوال التي عانوها من النصارى، ولوحشية ألفونسو السادس ملك قشتالة، وجنده الذين أوغلوا في بلاد المسلمين نهباً وسلباً وأسراً، نتيجة لذلك لم تنقطع رسل الأندلس ووفودهم الشعبية والرسمية إلى يوسف طالبة النصرة والمساعدة ولم يُفِذْ يوسفَ عذرُه في كثرة مهامه في المغرب، ووجود سبتة بيد أعدائه البرغواطيين وهي قاعدة العبور إلى الأندلس كما هو معروف.

لهذا لم يكن أمام يوسف سوى مضاعفة الجهد، ومواصلة العمل ليلاً ونهاراً للتخلص من كل العوائق التي تقف في طريق نجدة إخوانه أهل الأندلس، فأخذ بإعداد الجند لاقتحام مدينة سبتة وتخليص الناس من

---

(١) م. ن.

شرور طاغيتها الخارج عن الصف الإسلامي وعن تعاليم الإسلام.

ويبدو أن المعتمد بن عباد قد عرض مساعدته البحرية[1] للمرابطين لإنجاز هذه المهمة أو أن يوسف بن تاشفين هو الذي طلب المساعدة البحرية من ابن عباد عندما رأى أحد قطعه البحرية في مدينة طنجة الخاضعة للمرابطين وهذا ما يذكره ابن بسام حيث يقول: «وكان من الاتفاق العجيب أن أنشأ المعتمد سفينة ضاهى بها مصانع الملوك القاهرين، ووجهها إلى مدينة طنجة لتمتار... ولما رأى أمير المسلمين وناصر الدين رحمه الله تلك السفينة خاطب المعتمد في ذلك، فشنَّت على سبتة موتاً ذريعاً، وأقامت بإزاء أسوارها حصناً منيعاً، فلما كان يوم الخميس من صفر سنة ٤٧٦هـ قدَّم أمير المسلمين لقتال سبتة أسطولاً فخماً، رجم به مردة عفاريتها رجماً...»[2].

وبتوافر القطع البحرية استكمل يوسف بن تاشفين استعداداته لفتح سبتة ذات الحصون القوية، والأسطول الذي طالما أوسع البلاد شراً، وملأ قلوب التجار والملاحين وأهل السواحل ذعراً، فتقدم جيش المرابطين بقيادة المعز بن يوسف بن تاشفين إلى مدينة سبتة فنازلها براً وبحراً، ولم يكن القتال البحري مع أسطول سبتة من الأمور السهلة لولا تصميم قيادة المرابطين على اقتلاع كافة العقبات التي تعيق مسيرة

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩١.

(٢) ابن بسام، الذخيرة، القسم الثاني: ٢/ ٦٦٢.

الجهاد، فيذكر ابن بسام أنه: «كان لأول ذلك اليوم من يوم المعركة ـ ظهور على أسطول المرابطين حتى أخذ منه قطعة جليلة المقدار، ظاهرة الحماة والأنصار، فارتاعت محلة المرابطين. . . حتى هموا بالإحجام وغضب أمير المسلمين رحمه الله إحدى غضباته فكانت إياها، وفَغَرَتْ على سبتة فاهاً، وتقدمت تلك السفينة على أسوارها. . . »[1].

وبعد صراع مرير دار حول أسوار سبتة وعلى شواطئها صبر فيه المرابطون صبر المؤمنين الذين يرجون ما عند الله، حتى فتح الله عليهم فاقتحموا الأسوار وهزم البرغواطيون، وحاول المعز بن سقوت أن يفر من سبتة، فلجأ إلى البحر لكنه لم يتمكن من الفرار فكرَّ راجعاً، وحاول الاختفاء بدار تعرف بدارِ شوير، لكن المرابطين اقتحموا عليه الدار، وقاتلوه حتى فرَّ عنه حماته وحرسه، فقبضوا عليه واقتيد إلى الأمير المعز بن يوسف الذي طالبه بأموال الدولة لكنه امتنع عن أدائها ولم يعتذر وبقي مكابراً فقُتل صبراً بأمر المعز بن يوسف بن تاشفين، وبعث بكتاب الفتح وبشارة النصر إلى أمير المسلمين في مدينة فاس حيث كان هناك يشرف على العمليات العسكرية وينظر في أمر الجهاد ويستعد له، ففرح يوسف بفتح مدينة سبتة التي أشغلته عن إغاثة إخوانه في الأندلس لمدة من الزمن مما عرضهم لكثير من المحن التي أدت إلى ضياع الكثير من ثغورهم، واستلاب أعظم مدنهم وتعرضهم للسلب والأسر والسبي في كثير من أطرافهم.

---

(١) م. ن.

إلا أن الاستيلاء على سبتة مهد الطريق لعبور المجاهدين إلى ساحة الصراع الكبرى، صراع الإسلام ضد الصليبية الحاقدة على أرض الأندلس.

وبهذا الفتح يضع يوسف بن تاشفين آخر لبنة في بناء المغرب الذي بناه بعد جهاد مرير وأيام طويلة وتضحيات غالية وصبر جميل، فمنذ عام ٤٣٥هـ عندما أصبح يوسف أميراً على المغرب وهو يواصل هذه المهمة الصعبة المنال إلا على المؤمنين بربهم والمخلصين لأمتهم، مهمة الوحدة والإصلاح وتحكيم الشرع الإسلامي في حياة الناس شعباً ومؤسسات عسكرية واقتصادية، وفي ميدان التعامل السياسي والدبلوماسي مع الأعداء والأصدقاء، فتبين للجميع صدق دعوى المرابطين ومدى إيمان يوسف بهذه الدعوة التي تآلفت تحت ظلالها القلوب وأزيلت الحواجز، وتوحد الصف وبُني جيش العقيدة الربانية، فاجتثت الفرقة التي كانت تسود المغرب وساد القانون بدل الفوضى، والاستقرار بعد الاضطراب، والأمن بعد الخوف، والمودة بعد العداوة.

فاستبشر الناس بهذا العهد الجديد وفرح أهل الأندلس وأيقنوا بالظفر والنصر الذي امتدت ريحه إلى ثغور الأندلس، فانتشرت روح الصمود والثبات أمام الأعداء، وهكذا استطاع يوسف بن تاشفين بإيمانه وصبره وجهاده، أن يقيم دولة الوحدة في بلاده وأخذ يُعد العدة ويشرف على الأعمال التي ينجزها المرابطون لتلبية نداء الأخوة الإسلامية الذي

أوجبه الله تعالى على عباده حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . . . ﴾ [الحجرات: ١٠].

بناء مدينة مراكش:

منذ عام ٤٥٤هـ قوي أمر يوسف بن تاشفين في المغرب ورسخت قوته في تلك البلاد، فكثُر جنده واشتدت حاجته إلى مقر دائم يكون منطلقاً للجهاد وحصناً للمجاهدين، فسمَت همته إلى بناء مدينة تكون عاصمة لدولة المرابطين بعد أن اجتمعت أسباب عديدة لبناء هذه المدينة، وكان من أهم تلك الأسباب:

- ضيق المكان على المرابطين في مدينة أغمات، وشكوى أهل أغمات من هذا الوضع المزدحم؛ كونَ المرابطين صحراويين لم يعتادوا حياة المدن والاستقرار، إضافة إلى حاجة مواشيهم التي بصحبتهم إلى المراعي الخصبة والساحات الواسعة.

- رغبة المرابطين في أن يكون لهم حصن يأوون إليه مع جندهم ويكون مرتكزاً لمخططاتهم العسكرية، ويلبي رغباتهم وطموحاتهم المستقبلية.

وعلى الرغم من الاختلاف[1] الواضح في تحديد العام الذي وضع

---

(١) انظر الحلل الموشية، ص٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٢٠؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٩؛ ابن خلدون، تاريخ: ٦/ ١٨٦؛ السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٢٤.

فيه الحجر الأساس لمدينة مراكش فإنني أرجح عام ٤٥٤هـ للأسباب التي مر ذكرها، ولعجز مدينة أغمات عن استيعاب الأعداد الكبيرة للمرابطين والمجاهدين المتطوعين الذين يلتحقون بهم باستمرار إلى الحد الذي اضطر فيه يوسف بن تاشفين أن يختطَّ مدينة مُرَّاكُش وينزل بالخيام[1] ويباشر العمل فيها. ومن المستبعد استيعاب مدينة أغمات لجموع المرابطين إلى ما بعد عام ٤٦٢هـ.

وقد تم اختيار موضع مراكش من قبل فريق من أشياخ قبائل هيلانة وهزميرة سكان مدينة أغمات، وقد نظر هذا الفريق موضعاً صحراءَ رَحْبَ المساحة واسع الفِناء، «وادي نفيس جنانها، وبلاد دكالة فَدَّانها، وزِمام جبل دون بِيَد أميرها»[2].

فكان المكان مناسباً لرغبات المرابطين وطباعهم الصحراوية، ويوفر المسرح الخصيب لجمالهم ودوابهم، ومن غير المستبعد أن يكون الأمير أبو بكر بنِ عمر قد شارك[3] في كل الإجراءات التي اتخذت بصدد إنشاء مدينة مراكش إلى أن بوشِرَ بوضع الحجر الأساس، إلا أن المؤسس الحقيقي لهذه المدينة والذي أرسى الدعائم وأتم البنيان هو يوسف بن تاشفين، وهو الذي بنى فيها المسجد وبيت المال ومستودعات السلاح،

---

(١) ابن خلدون، تاريخ: ٦/ ١٨٤.
(٢) الحلل، ص١٦.
(٣) م. ن، ص١٥.

«وكان رحمه الله لما شرع في بناء المسجد كان يحتزِمُ ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعاً لله تعالى»[1].

وقد سميت مراكش بهذا الاسم نسبة إلى اسم المكان الذي بنيت فيه ومعنى مراكش (أمشي مسرعاً)[2] حيث كان ذلك المكان مأوى للصوص، فكان المارون فيه يقولون لرفاقهم هذه الكلمة، فعُرف الموضع بهذا الاسم وإلى الآن، ولم يكن بها ماء فحفر الناس فيها آباراً فخرج لهم الماء عن قُرب، وبقيت مراكش بدون سور إلى عهد علي بن يوسف حيث أدار عليها السور حوالي عام ٥٢٦هـ[3] بإشارة من القاضي أبي الوليد محمد بن رشد الفقيه المشهور، وقد أصبحت مراكش قاعدة صلبة لدولة من أعظم الدول التي أسست بنيانها على التقوى ورسخت فيها تعاليم الإسلام، فحمت الغرب الإسلامي من الضياع، ووحّدته بعد الشتات، وبنت منه ما تهدم، وغدت قِبلةَ العلماء وطلبة العلم والأدب بعد أن أرسى فيها المجاهدون الأمن والاستقرار فأصبحت معقلاً للحضارة والتقدم الأصيل.

* * *

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٩؛ السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٢٥.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ١٢٤.

(٣) مغافر البربر، ص٥٣.

الفصل الرابع

أحوال الأندلس في عهد ملوك الطّوائف

واستنجاد أهل الأندلس بالمرابطين

الفصل الرابع

أحوال الأندلس في عهد ملوك الطوائف

واستنجاد أهل الأندلس بالمرابطين

حالة الأندلس قبل عبور المرابطين إليها:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] عندما عمل المسلمون بمدلول هذا التوجيه الرباني تحققت لهم العزة والتمكين في الأرض فهابتهم الأمم وخشيت صولتهم الشعوب؛ فعاشت الأمة الحياة الحرة الكريمة التي يسودها العدل ويحفّها الأمن والاستقرار؛ فأنتجت الحضارة العربية الإسلامية التي لازلنا ونحن في القرن العشرين نقتبس من مِشكاتها.

ومع كل ما تحقق للمسلمين من المجد والمنَعة لم يتخلّوا عن الإعداد العسكري والنفسي، والتحسب المستمر لكل ما يحيط بهم؛ لأن الإهمال والغفلة في هذه الجوانب تعد مخالفة صريحة لنصوص القرآن الكريم الذي يحكم المسلمون به ويعملون بتوجيهاته التي تقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالحذر والإعداد يتجاوز حالة الجبهات والثغور المتاخمة للأعداء إلى التحوط من كيد وتدبير الآخرين الذين حذر منهم القرآن بتوجيهاته

البينة. ولكن المتتبع لحالة الأندلس منذ سقوط الدولة الأموية وإلغاء الخلافة في الأندلس وإلى تاريخ موقعة الزَّلاَّقة عام ٤٧٩هـ يلاحظ أن المسلمين في هذا الإقليم لم يعملوا بتوصيات القرآن الكريم الذي حذر من النزاع والفرقة والتنافس على طلب الرئاسة، هذه الأمراض الخطيرة التي توقَّاها الأندلسيون لأكثر من ثلاثة قرون على الرغم من بعض الهنَات التي عانـوا منها لكنها لم تصل إلى حـد الحجْر على الخليفة، وبالتالي التجرؤ على امتشاق السيف في وجهه واستباحة دمه، كما حدث للخليفة هشام المؤيد في مطلع القرن الخامس وكذلك المستعين بالله.

إن أهل الأندلس كانوا يفخرون على الأمصار الإسلامية بوحدة الصف، واستنارة التفكير، والانقياد لشرائع الإسلام، واتباع السلف الصالح، «ومن فضلها أنه لم يذكر قط على منابرها أحد من السلف إلا بخير وإلى الآن، وهي ثغر من ثغور المسلمين لمجاورتهم الروم واتصال بلادهم ببلادهم»[1].

وعلى الرغم من كل هذه المواصفات الطيبة لمجتمع الأندلس فقد فَشَتْ الأمراض الخطيرة التي أشرنا إليها آنفاً؛ فهدَّمت البنيان الأندلسي ومزقت الجسد الواحد إلى كيانات متشاحنة متناحرة فيما بينها؛ فأصابهم الفشل وذهبت ريحهم وفسدت حالهم، واستبيحت المحرمات التي قدسها الإسلام وحذّر من التجاوز عليها كحق شرعي لكل إنسان، وعلى

---

(١) الحميدي، جذوة المقتبس، ص٦؛ الضبي، بغية الملتمس، ص١٤.

رأس هذه الحقوق: حقُّ الجهاد.

فلا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: «النفسُ بالنفس، والتاركُ لدينِه المفارقُ للجماعة، والثيِّبُ الزاني». وفيما عدا هذه الثلاث فدم المسلم مُصان ورأيه مسموع ومحترم حتى وإن خالف في رأيه السياسي أو انتمائه المذهبي، مادام ينتمي إلى الإسلام، ويعتنق عقيدة التوحيد، أما أن يباح الدم المسلم لمجرد الخلاف السياسي أو الثقافي فهذا نذير البلاء والفتن، ودليل الخروج عن خط المصلحة العامة الذي يخدم الأمة، والدخول في نطاق المصالح الأنانية الضيقة المخالفة للشرع وللمصلحة؛ ولهذا كان التحذير الرباني لمن يتجاوز هذا الحق ويعتدي على هذه الحرمة تحذيراً مرعباً ومخيفاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

والحقيقة أنه بخلع آخر خليفة أموي في الأندلس عام ٤٢٢هـ[1] انفرط عقد الوحدة وسادت الفوضى، وبذلك «انقطع اسم الخلافة في الجزيرة[2]، ودارت الدوائر المبيرة، وفسد حال الرئيس والمرؤوس،

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ١٤٥.

(٢) المقصود هنا الأندلس - شبه جزيرة إيبرية - وإنما قيل لها جزيرة الأندلس لأن البحر محيط بها من جميع جهاتها إلا ما كان الروم فيه، فكانت كالجزيرة بين البحر والروم وإلا فمنها إلى القسطنطينية بر متصل من جهة بلاد الروم. ينظر: الحميدي، جذوة المقتبس، ص٦.

وارتفع كل خامل وخسيس، وثار الثوار، واشتعلت بكل مكانٍ النار»[(١)].

وقد دارت الدوائر في مدينة قرطبة التي أصبحت تميل مع الهوى وتسير وراء كل ناعق بعد أن تخلّت عن دورها المجيد وأيامها السعيدة حيث «كانت قرطبة في زمان الفلّ، الداخل إلى الأندلس قد نسي بها بغداد في زمان الرشيد... وأعظمِ ما كانت في زمان الناصر ثم في زمان الحكم... فتناهى بها كلُّ فضل وكَمُل»[(٢)].

وكان للبربر دور كبير في الفتن، ولما دخلوا مع الخليفة سليمان المستعين بالله «اقتسموا البلد بين أنفسهم وملكوه، لا ينازعهم فيه أحد إلا قتلوه، ولا يمتنع عليهم موضع إلا حرَّقوه وخرَّبوه»[(٣)].

فبكى الناس لهذه الحال ورثى بعض الشعراء مدينة قرطبة بقوله:

إِبْكِ على قرطبةَ الزينِ ... فقد دهتْها نظرةُ العَينِ
كانت على الغاية من حُسنِها ... وعيشِها المستعذب الليْنِ
فانعكس الأمر فما إن ترى ... بها سروراً بين اثنينِ

والحقيقة أن السرور والعيش المستعذب الذي كانت ترفل به الأندلس[(٤)] ويتغنى به الشعراء قد أخذ بالأفول منذ عام ٣٩٩هـ، عندما

(١) ابن الكردبوس، ص٦٨.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ١١١.
(٣) م. ن، ص١١٥.
(٤) المرجع السابق، ص١١٠.

بدأ الصليبيون يقتطعون الحصون ويستولون على المدن ويستلبون الأموال ويفرضون الضرائب، يشجعهم على ذلك حالة التناحر والشقاق التي تمادى فيها أمراء الأندلس، وأخذوا يمزقون جسد الخلافة ويدّعون ما ليس لهم حتى أصبحت الحال مثلما قال ابن الخطيب:

حتى إذا سِلْكُ الخلافةِ انتثرْ وذهب العينُ جميعاً والأثرْ
قام بكل بقعةٍ مَليكُ وصاح فوقَ كلِّ غصنٍ ديكُ[1]

وقد جار أمراء الطوائف بجنب إخوتهم وفرطوا في حق أمتهم، واستبد كل رئيس بما تغلب عليه من ولايات الأندلس، «وانقطعت الدعوة للخلافة وذكر اسمها على المنابر»، وتلقَّب هؤلاء بألقاب الخلافة مثل المأمون والمعتصم والمنصور والرشيد والقادر والمقتدر والمعتضد، وغيرها من الألقاب مما كان يعبر عن عكس الحال التي تعيشها الأندلس، كما أن استعمال هذه الألقاب في غير مواضعها يدل على استهتار هؤلاء بقيم الأمة ويدل على الجشع الذي يتصفون به وحب الظهور والأبَّهة الفارغة التي عاشوها في قصورهم الباذخة، ومجالسهم اللاهية، على حساب مصير الأمة وكرامتها.

وقد اشمأزت الشعوب المعاصرة لهؤلاء الأمراء من الحياة معهم، إلى الحد الذي زهدوا به في الأندلس بلادهم وبلاد أجدادهم، وذلك لما وصلوا إليه من سوء الحال، وقد صور ذلك الشاعر أبو علي الحسنُ بن

---

(١) السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٣٣.

رشيق القيرواني بقوله:

مما يُزَهِّدُني في أرضِ أندلسٍ أسماءُ معتَمِدٍ فيها ومُعتضِدِ
ألقابُ مملكةٍ في غير موضعِها كالهِرِّ يَحكي انتفاخاً صورةَ الأسدِ

وعلى كل حال وإن لم نتفق مع الشاعر بالزهد بالأندلس لكنه عبَّر عمَّا يجيش بالنفوس، وصوَّر الحالة النفسية التي أصبح عليها أهل الأندلس لما آل إليه الحال من صراع دائم وفتن مستمرة هذه بعض صورها:

صور من معاناة الأندلس أيام حكام الطوائف:

إن الأندلس التي عاشت في ظل الجهاد حياة العزة والمجد والكرامة لمدة تقارب ثلاثة قرون، مستنيرةً بنور العقيدة الإسلامية الصافي، التي أوجدت مجتمعاً أندلسياً متماسكاً تسوده وشائج الأخوة والمحبة والتنافس في فعل الخير وخدمة الأمة، والتسابق على حِلَقِ العلم والفقه والأدب، قد تبدلت حالها إلى ما هو ضد لهذه الحالة، وذلك بعد أن ضعف انتماؤهم إلى عقيدتهم، ولانصرافهم إلى ملذاتهم، وركونهم إلى الحياة الدنيا التي غرت الأمم التي كانت قبلهم وتنافسوا في المادة والمصلحة والرئاسة؛ فتمزق المجتمع وسقطت كل موازين القيم، فاستبيحت دماء الخلفاء، وأملاك المسلمين وأموالهم، ومزقت بلادهم، وبرز أمراء الفتنة الذين عاقدوا النصارى، واستوزروا اليهود؛

فراجت سوق النفْعيين الذين يُصفقون لكل ناعق، لا يحملون في أعناقهم مبدأ ولا في صدورهم ضمائر، فكان الغدر شيمتهم والكذب منهجهم، والتنافس على مجالس اللهو والبطالة ديدنهم، واضعين مصالح الأمة وراء ظهورهم، فكانت النتيجة صراعاً مستمراً، وفتناً كبيرة، هتكت الحرمات وقصمت الظهور، وفتحت الباب أمام الأعداء لكي يحققوا أمانيهم؛ فامتصوا خيرات البلاد وتسلّطوا على العباد، فقتلوا وأسروا وسبَوا دون أن يوقظ ذلك ضمائرَ ملوك الطوائف الذين انغمسوا في البطالة واستمرؤوا الذل ودَفْعَ الضريبة للصليبيين، فكان من بعض أخبار تلك الفترة العصيبة من تاريخ أمتنا هذه الصور...

١ ـ نهاية الخلافة في الأندلس:

منذ أن بايع الصحابة الكرام رضي الله عنهم أبا بكر خليفة لرسول الله ﷺ والخلافة تشكل الظل الوارف الذي يستظل به المسلمون، والركن الشديد الذي يأوون إليه في حالات السلم والحرب. فأصبح تنصيب الخليفة قائداً وإماماً للمسلمين «من أتم مصالح المسلمين وأعظم مقاصد الدين»[(١)].

ومنذ أن ضعفت الخلافة في بغداد، وأعلن الفاطميون الخلافة في دولتهم، قام الناصر لدين الله في الأندلس بإعلان الخلافة عام ٣١٧هـ،

(١) صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص٢٨٥.

بعد أن كان حكام الأندلس يكتفون بلقب الأمير فقط، وقد قوبل هذا الإعلان باحترام المسلمين في الأندلس لفترة طويلة إلى عهد هشام المؤيد بالله الذي كان لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره مما مكَّن للمنصور بن أبي عامر من الحجْر عليه، وفَتَحَ الباب للأمراء وأصحاب الأهواء من بعده للتدخل بأمور الخلافة، مما جرَّ على المسلمين في الأندلس الويلات والنكبات التي كانت نتيجتها ضياع الأندلس من أيدي المسلمين؛ وذلك لتجاسر بعض الأمراء وأصحاب المطامع الخاصة على منصب الخلافة الذي يحترمه المسلمون ويصونه إجماعهم منذ بيعة أبي بكر الصديق، وكنتيجة لهذا الاجتراء على منصب الخلافة عاشت الأمة تشتتاً وضَياعاً وصراعاً كبيراً هذه بعض صوره:

كانت الأيام الأخيرة من العصر الأموي مليئة بالفتن والاضطرابات التي عمَّت جميع العناصر والطبقات المكونة لمجتمع الأندلس آنذاك، ويكفي للدلالة على الانقسام والاضطراب الذي مرت به الدولة في هذه الفترة الأخيرة أن عدد الخلفاء الأمويين الذين حكموا فيها كان يزيد على عدد الخلفاء الذين حكموا قبلهم منذ بداية الدولة الأموية في الأندلس[1].

ففي عام ٣٩٩هـ[2] تمكَّن عبد الرحمن بن أبي عامر المنصور من

---

(١) العبادي، في المغرب والأندلس، ص٢٧٤.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ٤٦.

عقد ولايـة عهد المسلمين لنفسه على الخليفة هشام (المؤيد بالله) بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر لدين الله، مما أفسح المجال لمحمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر لدين الله من القيام بثورة[1] ظَفِرَ فيها بعبد الـرحمن بن أبي عامر، كما استطاع أن يخفي هشـام المؤيد، ويدَّعي الخلافة لنفسه باسم (المهدي).

ولم يلبث المهدي إلا قليلاً حتى قام عليه هشام بن سليمان وتلقب بالرشيد، لكن ثورته فشلت وقتل في تلك الثورة.

إلا أن أنصار الرشيد تجمعوا حول سليمان بن الحكم بن الناصر لدين الله وبايعوه وسَمَّوه المستعين.

وقد تعاقد المستعين مع النصارى بقيادة شانجة بن غرسية، فتمكَّن بمساندة هؤلاء النصارى من هزيمة المهدي ودخول قرطبة؛ فقتل النصارى يومئذ من أهل قرطبة نيفاً على ثلاثين ألفاً «فكانت أول ثارات المشركين على المسلمين»[2].

ولا شك أن هذه السنَّة السيئة التي فعلها سليمان وهي الاستعانة بالصليبيين أو إيجاد المسوغات لذلك في أمور تخص الأمة الإسلامية تعتبر من أكبـر الجرائم التي ترتكب بحق الأمـة، لأن نتائج مثل هذه

---

(١) م. ن: ٣/ ٥١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الأفعال تصبُّ في مصلحة الأعداء، والخسارة الباهظة ـ وعلى كل الصعد ـ هي النتيجة التي ستحصدها كل الأطراف المتنازعة من أبناء الأمة، كما أن مثل هذه الجرائم، تورث آلاماً ومآسي عميقة في بناء الأمة، وتفتح ثغرات واسعة في لُحْمَة هذا البناء، وتكون نقاط ضعف يستفيد منها الأعداء في كثير من الظروف.

وعلى كل حال فإن محمد بن هشام ـ وكما مر بنا ـ تمكن من إخفاء الخليفة هشام المؤيد، لكنه عاد وادعى موته ـ ميتة المؤيد الأولى ـ إلا أن محمد بن هشام قتل عام ٤٠٠هـ فرجعت الخلافة إلى هشام المؤيد فكانت هذه خلافته الثانية[(١)].

وفي عام ٤٠٣هـ، دخل سليمان المستعين قرطبة في خلافته الثانية، وقد مر بنا أن المستعين هذا دخل قرطبة دخوله الأول، يسانده شانجة بن غرسية، فاستولى على الخلافة واستمر فيها لمدة سبعة أشهر من عام ٤٠٠هـ.

وقد كان جند المستعين في خلافته الثانية من البربر فاستطاع بهؤلاء الجند من تسلم[(٢)] أمر الخلافة ثانية بعد أن أجبر هشام المؤيد على خلع نفسه ثانية، لكن المستعين لم يستطع فرض سيطرته في الحكم فاستمرت الفتن والشدائد طوال أيامه لانصرافه إلى مجالس اللهو والأدب

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ١٠٠.
(٢) م.ن، ٣/ ١١٣.

حيث كان المستعين شاعراً ماهراً، ومن أشعاره هذه الأبيات، يُعارض بها أبياتاً تُنسب إلى هارون الرشيد:

عَجَباً يَهابُ الليثُ حدَّ سنانِ ... وأهابُ لَحْظَ فواترِ الأجفانِ
وتَمَلَّكَتْ نفسي ثلاثٌ كالدُّمى ... زُهْرُ الوجوه نواعمُ الأبدانِ
ككواكبِ الظلماءِ لُحْنَ لناظر ... من فوق أغصانٍ على كُثْبانِ
ما ضرَّ أني عبدُهنَّ صَبابةً ... وبنو الزمان وهُنَّ من عُبداني[1]

وكانت نهاية المستعين على يد علي بن حمود الإدريسي الذي كان يعمل قائداً لأحد الفرق في جيش المستعين ومن ثم عُين والياً على سبتة فانقلب على سيده وقتله بعد أن أمضى في الحكم حوالي ست سنين[2].

وفي عام ٤٠٧ هـ قام في الشرق الأندلسي عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الله بن الناصر وتلقَّب (بالمرتضى)[3].

وفي عام ٤٠٨ هـ قتل علي بن حمود، وعام ٤٠٩ هـ قُتل المرتضى

---

(١) المصدر السابق، ص١١٨ وأما أبيات الرشيد فهي:

مَلَكَ الثلاثُ الآنسات عِناني ... وحَلَلْنَ من قلبي بكلِّ مكانِ
ما لي تُطاوعني البريةُ كلُّها ... وأُطيعُهنَّ وهنَّ في عِصياني
ما ذاك إلا أن سلطانَ الهوى ... ـ وبه قَوِينَ ـ أعزُّ من سلطاني

(٢) م.ن.

(٣) م.ن، ص١٢٢.

في معركة مع البربر الذين يحكمون قرطبة[1].

وفي عام ٤١٤هـ طرد البربر من قرطبة وبويع بالخلافة عبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله ولقب (المستظهر بالله) لكنه قتل في العام نفسه.

فتولى الخلافة محمد بن عبد الرحمن (المستكفي بالله) حتى عام ٤١٦هـ حيث خلع عن الخلافة ثم قتل بعد ذلك[2].

وفي عام ٤١٨هـ بويع بالخلافة هشام بن محمد (المعتد بالله) وبقي حتى عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م حيث نقم الناس عليه أموراً فطردوه عن الخلافة[3].

وقد قام بإخراج المعتد بالله من قرطبة أبو الحزم ابن جَهْوَر وأعلن إسقاط الخلافة ونَفْيَ بني أمية من قرطبة.

فكانت هذه السنين العصيبة التي مرت بأهل الأندلس، نتيجة مباشرة لسوء النيات والبعد عن الله وعن هدي الإسلام وتعاليمه، كما كانت نتيجة لموت الضمائر والتفريط بالعهود والمواثيق، والانصراف الكلي إلى حياة المجون والترف والبطالة، مما فتح الباب على مصراعيه

---

(١) م.ن.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ١٤٣.

(٣) م.ن.

لأصحاب المآرب والأهواء للاستبداد والتغلب على المواضع التي في أيديهم فاشتعلت نار الفتن، وتطاحن الناس على الدنيا، وتهاوشوا على الرئاسة؛ فعاشت الأندلس أياماً حالكة الظلمة، كثُر فيها الثوار والرؤساء وانتشر البغي والقتل، كلٌّ يريد الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من ميراث الخلافة، ممعنين في تمزيق جسد الأمة المسلمة في الأندلس وقد عبَّر صاحب القلائد عن هذه الحال في معرض كلامه فقال: «ولما ثُلَّ عرش الخلافة وخوى نجمُها، ووهَن ركن الإمامة وطُمس رسمها، وصار الملك دعوى، وعادت العافية بلوى، استنسر البُغاثُ وصحت الأضغاث، واستأسد الظبي في كُناسه، وثار كل أحد في ناسه، وخلت المنابر من رُقَّاتها، وفُقدت الجُمَعُ من مقيمي أوقاتها»[1].

ومن الصور المعبرة عن الحالة التي عاشها رؤساء الأندلس في صراعهم على القيادة واستهتارهم بمنصب الخلافة ما يرويه ابن عذاري[2] عن أبي محمد ابن حزم حيث يقول: «واجتمع عندنا في صُقْعِ الأندلس أربعةُ خلفاء، كل واحد منهم يُخطب له بالخلافة بالموضع الذي هو فيه، وذلك فضيحة لم يُرَ مثلُها، دلت على الإدبار المؤبد، أربعة خلفاء في مسافة ثلاثة أيام في مثلها، كلهم يدعى بأمير المؤمنين وهم: خلف الحصري بإشبيلية على أنه هشام المؤيد، وذلك أخلوقة لم يسمع بمثلها،

---

(١) الفتح خاقان، قلائد العقيان، ص١٨.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ٢٤٤.

ظهر رجل بعد اثنين وعشرين عاماً من موت هشام فادعى أنه هشام، وشهد له أنه هو قوم خِساسٌ من خِصْيان ونساء؛ فبويع وخُطب له على أكثر منابر الأندلس، وسُفكت الدماء وتصادمت الجيوش في أمره، وكان محمد بن القاسم الحسني خليفة بالجزيرة، ومحمد بن إدريس بمالقة، وإدريس بن يحيى بسبتة».

بل إن رؤساء الأندلس في ذلك العهد الكئيب من تاريخ الأمة لم يكتفوا بما فعلوه حتى ذهبوا يستدعون النصارى ليشاركوهم في عبثهم وتحطيمهم لمصير أمتهم، يُغرون النصارى بدفع الأموال والتنازل عن الحصون والمعاقل، للحصول على مساندتهم في تثبيت عروشهم المتداعية، متناسين تضحيات الأجداد الذين بذلوا العرَق والدم لبناء هذه الحصون وحمايتها من النصارى، فكانت الطامة كبرى والبلية عامة، لما دهى الأمة من الضعف والوهن وانتشار العداوة بين كثير من الطوائف السياسية يقابله وحدة في صف الأعداء وأهدافهم.

فيا له من درس عميق يتوجب على المسلمين الاستفادة منه لنبذ خلافاتهم ورصِّ صفوفهم!! كما يوجب هذا الدرس على الذين يحسنون الظن بالغرب أو الشرق أن يقلعوا عن هذه الكبيرة ويعلموا يقيناً أن النصارى واليهود وغيرهم من أهل الشرق والغرب قد استفادوا من ضعفنا في هذا الجانب، وينفذون مخططاتهم على هذا الفهم المبني على تجنب المواجهة مع الأمة عندما توحد صفوفها وتعتصم بعقيدتها، والانقضاض

عليها عندما تبتعد عن دينها وتفترق صفوفها، فهم أسرع ما يكونون لتلبية أية إشارة أو طلب مساعدة منهم تكون مُدَّخلاً لتعميق حالة الفرقة والشقاق بين المسلمين، لكن بشروط أساسية ثابتة لا تتغير في الزمان ولا المكان، فهذه الشروط نفسها في القرن الخامس الهجري أو في القرن الخامس عشر وهي في الأندلس أو في المشرق. ففي الأندلس:

«كان أسرُّ شيء عند (ألفُنش) فتنة تقع بين الولاة من المسلمين، فيُعين هذا على هذا وهذا، فيستجلب بذلك أموالهم، طمعاً منه أن يعجزوا، فيظفر هو بملك الجزيرة كلها»[1].

وأما في المشرق الإسلامي فهناك الكثير من الدروس والعبر التي تُدمي القلب لما جرَّته سياسة التحالف مع الغرب أو الشرق من الويلات والنكبات على الأمة قديماً وحديثاً، ولا يزال أعداء الإسلام يعملون بتلك الموازين والشروط في القضايا التي تخص شؤون الأمة الإسلامية ومن أهمها:

ـ أن يكون الصراع بين طرفين مسلمين وفي قضايا داخلية فإذا كان الأمر كذلك فإن إجماع الشرق والغرب سيكون محققاً؛ لأن النتيجة ستكون ضد مصلحة الأمة، وبالتالي ستكون مع أهداف ومخططات هذه الأطراف الخارجية.

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٨٢.

ـ وفي مثل هـذه الحالـة يجب أن تكون التكاليف مضمونـة أو مدفوعة سلفاً وبالكيفية التي يرونها أكثر قدرة على امتصاص خيرات الأمة وتحطيم اقتصادها.

ـ كما يجب أن تكون كافة النتائج القريبة والبعيدة لتدخل تلك الأطراف الخارجية، إمعاناً في تمزيق الصف الإسلامي وتشتيت قدراته.

فعندما تتحقق هذه الأمور تكون النتائج متطابقة مع الثوابت التي يتعامل بها الأعـداء مع أمتنا، وعند ذلك يتـوحدون في النظرة والأداء والفعل ضد تطلعات المسلمين ويصوغون الشعارات البراقة ويختلقون المبررات الكاذبة لتمرير مخططاتهم وتسويغ زُورهم وبهتانهم، وتحت مسميات متنوعة، فتارة تكون إنسانية وتارة تقدمية وحرية، وأخرى نصرة حليف، أو إحقـاق حق وإبطال باطـل، وهم فـي كل ذلـك يعملـون ويتصرفون بالضد لما يدعون: فيستبيحون كل محرم ويرتكبون كل محظور، ويجعلون من الكذب والتزوير سياسة لا يحيدون عنها.

فتتجرع الأمة في مثل هذه الحالات مرارة الظلم وهضم الحقوق واستلاب الخيرات، إلى أن تعود إلى عقيدتها وتعتصم بإسلامها فتستعيد حقوقها وتسترد عزتها، وتبدد شعارات أعدائها وتقلب موازينهم وتمزق خططهم، وذلك لتُحقق قول الله تعالى فيها: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

٢ ـ الأخوان أحمد ويوسف ابنا سليمان بن هود:

في عام ٤٣٨هـ توفي سليمان بن هود أمير إمارة سَرَقُسْطة تاركاً خمسة أولاد ذكور، كان قد قسم عليهم في حياته بلاده، التي كانت تحت نظره: فولى أحمد مدينة سَرَقُسْطَة، وولى يوسف على مدينة لاردة، واستقر كل أخ من هؤلاء الخمسة في عمله، لكن أحمد بن سليمان أخذ يحتال على إخوته للاستحواذ على مواضعهم.

وقد وافق في تلك الفترة أن كان بمدينة تطيلة وضواحيها غلاء شديد، فاستغاث أهلها بأمير لاردة يوسف، الذين هم تحت طاعته، وكان يفصل بين مدينة لاردة ومدينة تطيلة إمارة نصرانية يحكمها أحد النصارى المدعو ـ ابن ردمير ـ فكان أن اتفق يوسف مع ابن ردمير على أن يسمح هذا لقوافل المِيرة المتجهة إلى منطقة تطيلة بالعبور من بلاده، مقابل أموال معينة اتفقا عليها وذلك تجنباً للمرور بسرقسطة التي يحكمها أحمد بن سليمان، وقد جمع يوسف لأهل تطيلة كل ما يحتاجونه وجهز قافلة كبيرة جداً خيلاً ورجالاً بدواب كثيرة، فلما سمع أمير سرقسطة بهذه القافلة، أرسل إلى ابن ردمير يعرض عليه أن يعطيه ضعف ما أعطاه أخوه يوسف على أن يخلي بينه وبين القافلة عندما تكون في بلاده، وطبيعي أن يوافق هذا الأمير الصليبي على هذا العرض المغري ويضرب بعُرْضِ الحائط الاتفاقية التي تعهد بموجبها بالمحافظة على سلامة مرور هذه القافلة، فما إن توسطت القافلة بلاد ابن ردمير حتى هاجمها أحمد بن سليمان وقتل الكثير من رجالها بينما أخذ النصارى الكثير منهم أسرى

وفتكوا بالبعض الآخر ولم ينجُ منهم إلا اليسير.

فامتلأت أيدي الروم[1] من أسلابهم، وانتهبوا ما تحمله القافلة وربحوا ما أعطاهم الأخَوان من الأموال السخية، وبهذه السياسة العرجاء كان يتعامل أمراء الأندلس فيما بينهم؛ إذ لم يعد هناك حرمة للرحم ولا حقٌّ لأخوة الدين، والخسائر تدفعها الشعوب المسلمة المغلوبة على أمرها من أملاكها وأراضيها بل من عزتها وكرامتها، والرابحُ الوحيد هو العدو المتربص بهم جميعاً.

٣ـ مأساة مدينة بربشتر عام ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م:

مدينة بربشتر من أمهات مدن الثغر الأعلى تناسختها قرون المسلمين منذ ثلاثمئة وستين سنة[2] من عهد الفتوح الإسلامية بالأندلس فتُدورس فيها القرآن ورسخ الإيمان واستنارت بنور الإسلام كل هذه الفترة لكنها تعرضت لأسوأ محنة في تاريخ الأندلس.

وذلك عندما نظمت أوروبة حملة صليبية وحشية بشَّر بها البابا (الإسكندر الثاني) ويقودها على الأرجح الوصي على ملك فرنسة والذي تسميه المصادر الإسلامية (البيطين والبيطبين) وقد شارك في هذه الحملة:

ملك أراغون، قائد جيوش قطلونية، قائد جيوش جنوب فرنسة،

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ٢٢١.
(٢) المقري، نفح الطيب: ق٢/ ٥٧٦.

قائد جيوش بواتيه وبوردو[١].

«وخرج من أقصى بلاد الروم جيش عظيم ووصل إلى صاحب قَشْتَالة وهي دار ملكهم وبها كان البيطين ملكهم» وقد شارك في هذه الحملة النورمان من سكان الدول الإسكندنافية.

وكانت حالة ملوك الطوائف إحدى العوامل التي ساهمت في إنجاح هذه الحملة، حيث كانت هذه المدينة تابعة للمظفر يوسف بن هود، الذي كان عاجزاً عن إنجادها، ولم يساهم أمير سرقسطة المقتدر ابن هـود في الدفاع عن هذه المدينة تَشَفِّياً بأهلها الذين يوالون أخـاه يوسف؛ لذلك لم تحصل هذه المدينة على أية مساعدة خارجية تدعم صمودها في وجـه الصليبيـة الهمجيـة، مما يـدل على تردي الحال، وانشغال الناس عن الأحوال المحيطة بهم إلى الحد الذي لم يدركوا فيه خطورة الأوضاع المحدقة بهم وببلادهم آنذاك.

فقد حاصر الأعـداء هذه المدينـة المصابرة أربعين يوماً، وكان أبناؤها المجاهدين يُنازلون القوات الصليبية في هذه الفترة إلى أن استطاع الصليبيون دخول المدينة الأولى بخمسة آلاف دارع قاتلهم المجاهدون المسلمون قتالاً بطولياً أسفر عن قتل (خمسمئة إفرنجي)[٢].

---

(١) السامرائي، علاقات المرابطين، ص٥٩.
(٢) المقري، نفح الطيب: ٢/ ٥٧٤.

لكن أعداد المهاجمين كانت كبيرة جداً حيث بلغ تعدادهم أربعين[1] ألفاً بين فارس وراجل، فتحصن الناس في المدينة الداخلية وقد قلّت أقواتهم، إلا أن انقطاع الماء عنهم كان السبب الرئيسي في تمكن الأعداء من دخولها وقيامهم بارتكاب جرائم وحشية تنمُّ عن لؤم طباعهم وخسة معدنهم وعن تجردهم من كل القيم والأخلاق.

فقد اتفق أن القناة التي كان الماء يجري فيها من النهر إلى المدينة تحت الأرض في سرب موزون انهارت وفسدت، ووقعت فيها صخرة عظيمة سدت السرب بأسره فانقطع الماء عن المدينة، فيئس من بها من الحياة واضطروا إلى طلب الأمان على أنفسهم، دون مال أو عيال فأعطاهم العدو الأمان، فلما خرجوا نكث العدو بهم وغدر، وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل والقاضي ابن عيسى في نفر من الوجوه، وقد استباح الأعداء المدينة قتلاً وأسراً وسَبْياً، وكما هو معهود بهم ومعروف عنهم من موت الضمائر وانعدام الدين وغياب الرقيب، والتشفي بالضعيف فقدَّموا أبشع الشواهد، وأشنع الصور التي تعبر عن عدائهم الدفين، وانحطاط إنسانيتهم على مر الزمان، وكان من مشاهد تلك المأساة هذه الصور:

- عندما فسد نفق الماء الموصل إلى داخل المدينة بلغ العطش من

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ٢٥٣.

الناس مبلغاً أن المرأة كانت تقف على السور وتنادي من يقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو لولدها فيقول لها: أعطيني ما معك، فتعطيه ما معها من كسوة وحلي وغيره[1]. . . ؟.

ـ بعد أن استباح الأعداء المدينة وفعلوا ما فعلوا، نادوا بالأمان لمن تبقى من سكانها، لكنهم لما رأوا كثرة أهل المدينة أمر قائدهم الصليبي بأن يقلل عددهم حصاداً بالسيف، فشرع هؤلاء الوحوش بقتل الأبرياء من النساء والشيوخ حتى أطاحوا بما ينيف على ستة آلاف قتيل مما يدل على عداوة هؤلاء القادمين من الغرب للحياة، ثم نودي بالأمان على من تبقى، وأمر قائد الحملة بإخراجهم فازدحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم. وفراراً من الازدحام وشدة العطش أخذ بعضهم يتدلى من الأسوار، وهلك من نساء بربشتر جملة يكثر عدُّها عند إفلاتهن من عطش القصبة، لتطارُحِهِنَّ على الماء يَكْرَعْنَ فيه بغير مَهَلٍ فكَبَّهم للأذقان موتى، وقد قدر عدد الأسرى والقتلى في هذه المأساة ما بين خمسين إلى مئة ألف أسير وقتيل، فكان الخطب أكبر من أن يوصف أو يعبر عنه بالقول[2].

ـ وخلال هذه المشاهد المرعبة تحيز في وسط المدينة قدر سبعمئة نفس من الوجوه وحاروا في نفوسهم وانتظروا ما ينزل بهم، فلما خلت

---

(١) المقري، نفح الطيب: ق٢/ ٥٧٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ٢٢٦.
(٢) م. ن.

المدينة ممن أسر وقتل وأخرج من الأبواب والأسوار وهلك في الزحمة، نودي في تلك البقية بأن يبادر كل منهم إلى داره بأهله وله الأمـان، وأرهقوا وأزعجوا فلما (حصل كل واحد منهم بمن معه من أهله في منزله اقتسمهم الإفرنج ـ لعنهم الله تعالى ـ بأمر الملك وأخذ كل واحد منهم داراً بمن فيها من أهلها نعوذ بالله تعالى، يحكم كل عِلْجٍ منهم فيمن سلط عليه من أرباب الدور بحسب ما يبتليه الله به. . . وكان الإفرنج ـ لعنهم الله تعالى ـ يفتنون بهتك حرم أسراهم يفتضون البكر بحضرة أبيها والثيب بعين زوجها وأهلها. . . وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قطُّ فيما مضى من الزمان. . . وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفـة على الحقيقـة وما لا يتصوره من لديه عقل بشر ويحمل قلب إنسـان، ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده تخير من بنـات المسلمين الأبكار والثيب ذوات الجمال ومن صبيانهم الحسان ألوفاً عدة حملهـم معـه ليهـديهـم إلـى مـن هـو فـوقـه، وقـد أهـدى إمبـراطـور القسطنطينية[1] عدداً منهم وأبقى حامية من جنده تعدادُها (١٥٠٠)[2] فارس وأربعة[3] آلاف راجل.

إن هذه الصـور المرعبـة والأحداث المريرة بقدر ما دلت على انحطاط الصليبيين خُلقياً، وبعدهـم عن القيم الإنسانية عندما تتهيأ لهم

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ٢٥٣.
(٢) المقري، نفح الطيب: ق٢/ ٥٧٥.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ٢٢٧.

سبل القوة والتسلط، دلت على موت الغيرة وضعف الانتساب الإسلامي في قلوب حكام الطوائف الذين كانوا يتفرجون على إخوانهم في بربشتر وهم يعانون هذه الآلام والمآسي المحزنة، وقد سخط المسلمون على حكامهم لمواقفهم تلك، وأخذ علماء المسلمين يستثيرون الغيرة والإيمان في النفوس ويستنهضون الهمم للجهاد، وقد علّق (ابن حيان) المعاصر لهذه الأحداث وعلّل أسبابها، وأوضح أن الأمراء آنذاك ساهموا في تمرير هذه المأساة عندما عمقوا الفرقة وقطعوا عرى الوحدة بين المسلمين، وانصرفوا للَهْوهم ومسراتهم، فقلدتهم شعوبهم في البعد عن الله وعن هدي الإسلام فأركستهم الذنوب وأعمتهم الغفلة وأضعفتهم الفرقة.

وجاء في تعليق ابن حيان على تلك الحال هذا النص: «وطرق الناعي بها قرطبة ـ أي سقوط بربشتر ـ في شهر رمضان فصكَّ الأسماع، وأطار الأفئدة، وزلزل أرض الأندلس قاطبة، وصار للناس شغلاً تسكعوا في التحدث به والسؤال عنه، والتصور لحلول مثله أياماً، ولم يفارقوا ذلك عادتهم من استبعاد الوجل، والاغترار بالأمل، والاستناد إلى أمراء الفرقة الهمَل، الذين هم منهم بين فَشَل ووكَل، يصدونهم عن سواء السبيل، ويلبسون عليهم واضح الدليل، ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم، هم كالملح فيهم: الأمراء والفقهاء، قلما تتنافر أشكالهم، بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يَرْدَون، فقد خص الله سبحانه هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج هذين الصنفين لدينا بما لا كِفاء له

ولا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذياداً عن الجماعة وجرياً إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صُموت عنهم، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم وخابط في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم آخذٍ بالتقية في صدقهم، فما القول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها، هل هي إلا مشفيةٌ على بَوارِها واستئصالها، ولقد طَمَّ العجب لهؤلاء الأمراء إن لم يكن عندهم لهذه الحادثة الشنعاء في بربشتر إلا الفزع إلى حفر الخنادق وتعلية الأسوار، وسد الأركان وتوثيق البنيان، كاشفين لعدوهم عن السوءة السوداء من إلقائهم يومئذ بأيديهم إليهم، أموراً قبيحات الصور، موذنات الصدور بأعجاز تحل الغير:

أمــور لــو تَــدبَّــرهــا حكيــم | إذاً لنهـى وسَـبَّ بمـا استطـاعَـهْ

فدهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة، وسفسف أخلاقهم وخبَّث أعراقهم وسفه أحلامهم، واحتوى عليهم الجهل فأبَشّوا في غير سبيل الرشد يعللون أنفسهم بالباطل، وذلك من أول الدلائل على فرط جهلهم واغترارهم بـزمانهم وبِعادهم عن طاعة خالقهم، وغفلتهم عن سـد ثغرهم، حتى ظلِ عدوهم الساعي لإطفاء نورهم يتبجح عِراصَ دُورهم، ويستقري بَسائطَ بِقاعهم، يقطع كل يوم منهم ويبيد أمة، ومن لدينا وحوالينا صُموتٌ عن ذكرهم، لُهاةٌ عن بَثِّهم، ما إن يسمع بمسجد من مسـاجدنا أو محفل من محافلنا مُذَكِّرٌ لهم أو داعٍ لهم، فضلاً عن نـافر

إليهم أو مواسٍ لهم، حتى كأنهم ليسوا منا أو كأن فتقهم ليس بمُفْضٍ إلينا، قد بخلنا عليهم بالدعاء فبؤنا بالعَناء، عجائب فاتت التقدير، وعرضت للتغيير، ولله عاقبة الأمور وإليه المصير»[1].

٤ ـ سقوط طُلَيْطُلَةَ ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م:

مات فرديناند ملك قَشْتالَة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م بعد أن قسم بلاده بين أبنائه الثلاثة: سانكو ـ ألفونسو ـ غرسية.

وقد احتدم صراع عنيف بين هؤلاء الأبناء الثلاثة، انتصر فيه الأخ الأكبر على أخويه وأسرهما، إلا أن ألفونسو تمكن من الهرب إلى طُلَيْطُلَةَ، فأقام لاجئاً مكرماً عند ملكها المأمون يحيى بن ذي النون لمدة تسعة أشهر، وخلال هذه الفترة تمكن هذا الضيف الناكر للجميل المطبوع على الغدر والخيانة ـ تمكَّن من الحصول على كثير من المعلومات العسكرية الخاصة بدفاعات مدينة طليطلة ومداخلها، ومنافذ حصونها، فقد ذكرت بعض الروايات «أن ألفونسو استمع ذات يوم وهو متظاهر بالنوم إلى حديث المأمون مع وزرائه في كيفية الدفاع عن طليطلة واحتمال مهاجمة النصارى لها واستيلائهم عليها، وكيف يمكن ذلك وبأية وسيلة، وقد أجاب بعضهم أن النصارى لا يستطيعون الاستيلاء على مدينة بمثل هذه الحصانة إلا إذا أنفقوا سبعة أعوام على الأقل في

---

(١) م. ن: ٣/ ٢٥٤.

تخريب أحوازها وانتساف مؤونتها»[1]. وخلال فترة وجود ألفونسو في طليطلة تمكن بالتعاون مع أخته أوراكا من تدبير خطة اغتال فيها أخاه سانكو، فاستطاع بعد ذلك العودة إلى بلاده والاستيلاء على السلطة.

وقد ودعه حاكم طليطلة بمثل ما استقبله من حفاوة وتكريم ولم يطلب منه سوى استمرار الصداقة فيما بينهما. وفي هذه الفترة أيضاً عاد أخوه الأصغر غرسية إلى حكم مملكته القائمة في جليقية والبرتغال، وقد كان ألفونسو السادس رجلاً محارباً شرساً خالياً من كل فضيلة، متوحشاً جشعاً مجرماً. فما إن تمكن من السلطة حتى أخذ يخطط للإطاحة بأخيه الأصغر غرسية، كما فعل بأخيه الأكبر سانكو؛ لذلك رتب له موعداً للالتقاء به لتسوية ما بينهما من خلاف، وما أن حضر غرسية إلى مكان اللقاء حتى أمر ألفونسو باعتقاله وزجه في السجن حتى مات فيه بعد ثمانية عشر عاماً من اعتقاله وذلك عام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م. وبهذا الغدر والعقوق لحقوق الأخوة بدأ ألفونسو حكمه الجديد، وأصبح شغله الشاغل الاستيلاء على طليطلة التي آوته في محنته واستقبلته عندما لم تحتوِه بلده، فأصبح هذا المجرم قاتل أخويه خصم المسلمين لفترة طويلة من الزمن.

ففي عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م توفي المأمون بن ذنون وخلفه حفيده الملقب بالقادر في حكم طليطلة، ومنذ عام ٤٧٠هـ/ ١٠٧٨م بدأ

---

(١) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٣٣٢.

ألفونسو بمهاجمة أراضي طليطلة والعبث فيها، وأخذ يشدد الحصار عليها ويأخذ من ملكها الخانع البليد القادر بن ذنون الأموال الطائلة تحت ذرائع مختلفة بقصد إخضاعها وإنهاكها؛ مما أغضب أهل طليطلة عليه حتى طردوه عن الحكم واستدعوا إليهم ملك بطليوس المتوكل عمر بن الأفطس إلا أن هذا الملك لم يكن يختلف كثيراً عن القادر بن ذنون لذلك لم يستطع حماية طليطلة عندما استنجد القادر بن ذنون بألفونسو وسرعان ما انسحب منها وعاد إلى بطليوس تاركاً طليطلة لمصيرها المجهول على يد ألفونسو السادس المتوحش الذي يتلذذ بمشاهد التخريب والتشريد التي يتعامل بها مع المسلمين في الأندلس.

وقد كانت دعوة القادر التي وجهها إلى ألفونسو طلباً لمساعدته لاسترجاع عرشه تمثل الغطاء الذي ستر به ألفونسو أطماعه وأحقاده التي تعشش في مخيلته ضد أمة الإسلام، وأضمر في نفسه أن يتقاضى غالياً ثمن هذه المساعدة المزعومة للقادر بن ذنون الذي أرهق أهل مملكته بالضرائب والغرامات ليلبي طلبات ألفونسو، مما زاد في كراهية أهل طليطلة لهذا الملك ومضاعفة جهودهم للتخلص منه، «وأخذ ابن ذنون أهل طليطلة لما ضمن لأذفونش، فضرب مدبرهم بمقبلهم. . . وأنكر الواردُ منهم الصادرَ، وبلغت القلوب الحناجر، وهجم الشتاء. . . فأقام نيفاً على شهرين لا يُسيغ الشراب ولا يملك المجيء ولا الذهاب، ليس له شوكة إلا ظل لوائه، ولا مدد إلا ضعف من كان بإزائه، ولولا احتبالُ ملوك الطوائف بإقامة مرافقه، وإصغاؤهم إلى هدر شقاشقه، لطار

شَعاعاً وذهب ضَياعاً»[1].

وبهذه المواقف السيئة التي اتخذها حكام الطوائف بحق أمتهم وإخوانهم يتبين ضياع القيم الإسلامية وموت الهمم الجهادية في نفوس هؤلاء الحكام الذين تمردوا على الله تعالى بالانسلاخ من تعاليم الإسلام، والخروج عن المعاني التي يدعو إليها الدين الذي حرم عليهم الخنوع للأعداء والتحالف معهم ضد مصلحة المسلمين تحت أي ذريعة كانت. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

ولكن حكام الطوائف وبعد أن ماتت فيهم الغيرة الإسلامية وافتقدوا رقابة الضمير ضربوا أسوأ مثل، وسجلوا على أنفسهم أشنع موقف، لازال التاريخ يقدمه مشهداً مُزْرياً بأصحابه الذين ارتكبوه وأركسوا فيه منذ أكثر من تسعة قرون، ويحذر أبناء الأمة من سلوك هذا الطريق واتباع هذه السنة السيئة.

وبالرغم من هذا الواقع المرير الذي عاشته طليطلة فإن أهلها لم يفقدوا الأمل في الحصول على نصرة وتأييد من إخوانهم المجاورين، «وطفق أهل طليطلة يستصرخون من حولهم... لكنهم يعكفون على طلل بائد، ويضربون في حديد بارد».

ولا شك أن الأمة الإسلامية والعربية عندما تضعف فيها قيم

---

(١) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني: ١/ ١٦٤.

الإسلام ومبادئه تصبح طللاً بائداً وحديداً بارداً، وزبداً طافياً على السطح لا يُنتفع به. ونظراً لهذه الحال فإن أهل طليطلة اضطروا لمداخلة ألفونسو والتفاوض معه لعلهم يرضونه بالمال ويصرفونه عن بلادهم. فأورد ابن بسام وصفاً حياً للقاء وفد طليطلة بألفونسو السادس بقوله:

«ودخل على أذفونش منهم جماعة فوجدوه يمسح الكرى من عينيه، ثائرَ الرأس خبيث النفس، وجعلوا ينظرون إليه وهو يضغث ثَغامةَ رأسه فما نسُوا ذَفَرَ أطمارِه ودَرَنَ أظفاره، ثم أقبل عليهم بوجه كريه، ولَحْظٍ لا يشكُّون أن الشر فيه، وقال لهم: إلى متى تخادعون وبأي شيء تطمعون؟ قالوا: بنا بقية ولنا في فلان وفلان أمنية، وسموا له بعض ملوك الطوائف فصفق بيديه وتهافت حتى فحص برجليه ثم قال: أين رسل ابن عباد؟ فجيء بهم يرفلون في ثياب الخناعة، وينبسون بألسنة السمع والطاعة، فقال لهم: مُذْ كم تحومون عليّ وترومون الوصول إلي؟ ومتى عهدكم بفلان وأين ما جئتم به لا كنتم ولا كان؟ فجاؤوا بجملة مِيرة وأحضروا بين يديه كل ذخيرة خطيرة، ثم ما زاد على أن ركل كل ذلك برجليه وأمر بانتهابه كله، ولم يبق ملك من ملوك الطوائف إلا أحضر يومئذ رسله، وكانت حاله حال من كان قبله، وجعل أعلاجُه يَدفعون في ظهورهم، وأهل طليطلة يعجبون من ذل مقامهم ومصيرهم، فخرج مشيختها من عنده وقد سقط في أيديهم وطمع كل شيء فيهم، وخلّوا بينه وبين البلد لثلاثة أيام من ذلك المشهد... وعتا الطاغية

أذفونش وأمر بتغيير المسجد الجامع في ربيع الأول عام ٤٧٨ هـ»[١].

وبعد أن دخل ألفونسو إلى طليطلة نقض كل العهود التي أعطاها لأهل هذه المدينة المنكوبة، وحوَّل الجامع الكبير فيها إلى كنيسة ضارباً بعُرض الحائط العهود والمواثيق التي قطعها على نفسه. فوصف أحد شعراء الأندلس حال طليطلة آنذاك بقوله:

طليطلةٌ أباح الكفرُ منها حِماها إنَّ ذا ذَنْبٌ كبيرُ
مساجدُها كنائسُ أيُّ قلبٍ على هذا يَقِرُّ ولا يطيرُ
مضى الإسلامُ فابْكِ دماً عليه فما ينفي الجوى الدمعُ الغزيرُ

وكان استيلاء ألفونسو على طليطلة عام ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥م يشكل أحد الأسباب المباشرة والقوية لاتصال أهل الأندلس بأمير المسلمين وإلحاحهم عليه في وجوب تدارك بلاد الأندلس وإنقاذها.

«وجزى الله أمير المسلمين وناصرَ الدين: أبا يعقوب يوسفَ بن تاشُفين أفضلَ جزاء المحسنين؛ بما بلَّ من رمق، ونفَّس من خِناق، ووصل هذه الجزيرة من حبل، وتجشَّم إلى تلبية دعائمها واستنقاذ ما بها من حزن وسهل، وظهر أمر الله وهم كارهون»[٢].

(١) المصدر السابق، القسم الرابع: ١/ ١٦٦، وحول المسجد إلى كنيسة.
(٢) المصدر السابق، القسم الرابع: ١/ ١٦٧.

استنجاد أهل الأندلس بالمرابطين:

بلغ الأندلسيون في أواخر أيام الطوائف حالة عصيبة فرضتها عليهم سياسة أمراء الفرقة الهمل في خنوعهم المُزْري لعدوهم، وتهافتهم على أعتابه الملطخة بدماء المسلمين لنيل رضاه بأي ثمن، سواء كان بالمال أو بالتنازلات، أو حتى بإعلان التبعية ودفع الضريبة السنوية، لكن هذه السياسة البلهاء لم تُرضِ النصارى في شمال الأندلس، ومتى كان الأعداء يرضون بمثل هذه التنازلات؟!.

إن هذه السياسة المنحرفة عن الصواب بقدر ما مزقت نفوس المسلمين ألماً وأسىً ألهبت الغيرة في نفوسهم، وخصوصاً العلماء المخلصين لعقيدتهم وعزة أمتهم، فأخذوا يبحثون عن طريق للخلاص من هذه الحالة المتردية إلى أن تم الاتفاق على دراسة فكرة الاستنجاد بيوسف بن تاشفين وإخوانه المرابطين، والنظر في أبعادها ونتائجها، ولم تكن هذه الفكرة غريبة على أهل الأندلس، إذ إن الكثير منهم كان يتحدث بها في المجالس العامة ويطرحها كحل سريع وحاسم لمشاكل الأندلس.

وقد قام بعض المتحمسين لهذا الرأي وممن عانى من عدوانية الصليبيين ووحشيتهم، ففقد الوطن والمال والأهل؛ بجواز البحر وقطع المسافات ولقاء يوسف بن تاشفين يبثونه آلامهم وأحزانهم، فكان يستقبلهم بكل حفاوة واهتمام ويَعِدهم بكل خير.

«وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تَقْدُم عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين مُجْهِشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته؛ فيسمع إليهم ويصغي لقولهم وترقّ نفسه لهم»[1]. وقد أصبحت مدينة مُرّاكُش قِبلةً لهذه الوفود يبثونها الشكوى ويرون فيها الأمل الكبير القادر على إصلاح أحوالهم.

ولم لا تعطى مراكش هذه المكانة ويُرتجى منها هذا الأمل بعد أن نذرت نفسها أن تكون قاعدة صلبة لأهل الإيمان والمبادئ السامية الشريفة، ممن اختار الإسلام بآياته البينة وشرائعه الواضحة حلاً وحيداً لمشكلاتهم في الجوانب العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية كافة.

إن مُرّاكُش التي أُسست على أساس مكين من الإيمان ليعتز في ظلالها المسلمون بعد أن اختارت العلاج الناجع لما تعانيه الأمة من حالة الفرقة والتشاحن وذلك برفعها شعار: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] فبرهن هذا العلاج على أنه الحل الوحيد لإنقاذ الأمة عندما تتردى في حالتي الضعف والفرقة...

---

(١) المقري، نفح الطيب، القسم الرابع، ص٣٦٠؛ الحميري، الروض المعطار، ص٨٦.

إن مؤسسي مراكش ما كانوا ليرضَوا أن يذل مسلم وهم قادرون على إنجاده؛ ولهذه الأغراض النبيلة والأهداف السامية سخَّر يوسف بن تاشفين كل إمكانيات دولة المرابطين لنصرة الإسلام والمسلمين، حتى أصبحت بلاد المرابطين مأوى العلماء وملجأ الضعفاء ونصيرة المظلومين.

ويبدو أن المعتمِد بن عبَّاد أمير إشبيلية حاول الحصول على مساندة يوسف بن تاشفين منذ وقت مبكر جداً، ففي عام ٤٦٧هـ[1] أرسل ابن عَبَّاد إلى يوسف بن تاشفين يطلب منه مناصرة الأندلس، فاعتذر بوجود مدينتي طنجة وسبتة حاجزاً أمام العبور.

وقد كان من سياسة المعتمد بن عباد أن يسبق دائماً إلى محالفة الأقوياء خوفاً من أن يسبقه أحد من أمراء الطوائف بعقد تحالفات تُفقده موقعه المتميز بين هؤلاء الأمراء، وتنفيذاً لهذه السياسة غير المتبصرة في كثير من جوانبها عاقد ألفونسو السادس، ودفع له ضريبة سنوية دون أن يكون مضطراً لمثل هذا التحالف الذي أساء به المعتمد لنفسه ولإخوانه مسلمي الأندلس، عندما أطمع بهم هذا الطاغية الذي لم يعد يرضى بالأموال وأطراف الحصون والقلاع، وإنما أخذ يطالب بتخلي هؤلاء الأمراء عن معاقلهم وتسليمها له؛ فأصبح مثل هؤلاء كمثل من يربي الذئب ليحرس به الغنم.

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩١.

وأمام ضغط هذا الطاغية المتزايد على المسلمين في الأندلس أخذت وفودهم الشعبية تجوز البحر إلى أمير المسلمين شاكيةً من سوء الأحوال، ومتيقنة بعجز أمراء الطوائف عن الوصول إلى تعاون فيما بينهم لدفع الخطر الداهم عنهم، ومناشِدَةً يوسف بن تاشفين بتدارك الوضع وحماية الإسلام في الأندلس من عبث النصارى وأمراء الطوائف.

«ففي عام ٤٧٤هـ وفد عليه جماعة من أهل الأندلس وشكَوا إليه ما حلَّ بهم من أعدائهم؛ فوعدهم بإمدادهم وإعانتهم، وصرَفهم إلى أوطانهم»[١].

وتحت وطأة الضغط العسكري الذي كان يعاني منه أمير بطليوس المتوكل على الله بن الأفطس أمام هجمات النصارى المغيرة على إمارته، واستيلائهم على مدينة قورية[٢] عام ٤٧٣هـ كتب إلى يوسف بن تاشفين يستصرخه لدرء الأخطار المحدقة ببلاده، ومن بعض ما جاء في مخاطبته لأمير المسلمين ما يلي:

رسالة ابن الأفطس إلى يوسف بن تاشفين:

«لما كان نور الهدى ـ أيّدك الله ـ دليلَك، وسبيلُ الخير سبيلك،

---

(١) الحلل الموشية، ص٣٣.

(٢) مدينة قورية: من مدن الثغر الأدنى في غرب الأندلس لها سور منيع وهي من أحصن المعاقل وأحسن المنازل.

ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصحَّ العلم بأنك لدولـة الإسلام أعـزُّ ناصر، وعلى غزو الشرك أقدرُ قادر ـ وجب أن تستدعى لما أعضل الداء، وتستغاث فيما أحاط الجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو تُطيف بها عند إفراط تسلطها واعتدائها، وشـدة ظلمها واستشـرائها، تُلاطف بالاحتيال، وتستزل بالأموال، ويُخرج لها من كل ذخيرة، وتُسترضى بكل خطيرة.

ولم يزل دأبها التشكك والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى نفد الطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المتن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، وأُضرمت في كل جهة نارهم، ورُويت من دماء المسلمين أسِنَّتُهم وشِفارُهم، ومن أخطأه القتل منهم، فإنما هم في أيديهم أسرى وسبايا يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد همـوا بما أرادوه من التوثب وأشـرفوا على ما أمَّلوه من التغلب فيـا لله، ويا للمسـلمين أيسـطو هكذا بالحق الإفكُ، ويغلب التوحيدَ الشركُ؟! ويظهر على الإيمان الكفر ولا يكشف هذه البلية إلا النصر!.

ألا نـاصراً لهذا الدين المهتضم، ألا حامياً لما استُبيح من حمى الحرم؟!.

وإنا لله على ما لحق عبيده من ثُكْل، وعزه من ذل، فإنها الرزيـة التي ليس فيها عزاء والبلية التي ليس مثلها بلاء.

ومن قبل هذا كنت خاطبتك ـ أعزك الله ـ بالنازلة في مدينة قورية، أعـادها الله للإسـلام، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء، ولمن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم مازال ذلك التخاذل والتدابر يتزايد، حتى تخلطت القضية، وتضاعفت البلية، وتحصلت بيد العدو مدينة سرية[1]، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في التحصن والامتناع، وهي من المدينة كنقطة الدائرة، تدركها من جميع الجهات، دائرة بنواحيها ويستوي في فيء الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هـو إلا نفس خافق، ورمَق زاهـق، استولى عليه عدو مشرك، وطاغية منافق، إن لم تدركوها بجماعتكم عِجالاً، وتبادروا رُكباناً ورجالاً، وتنفروا نحوها خِفافاً وثقالاً، وما أحضك على الجهاد بما في كتاب الله، فإنكم له أتلى! ولا بما في حديث رسول الله ﷺ فإنكم إلى معرفته أهدى! وفي كتابي هذا ـ الذي يحمله إليكم الشـيخ الفقيه الواعـظ ـ مسـائلُ مجملة، يفصِّلها ويشـرحها، ومشـتمل على نكت هو يبينها لكم ويوضحها؛ فإنـه لما توجه نحوك احتساباً، وتكلف المشقة إليك طالباً ثواباً ـ عوَّلتُ على بيانه، ووثقتُ بفصاحة لسانه، والسلام»[2].

وقد وصلت هذه الرسـالة إلى يوسـف بن تاشفين فأكرم حامليها وطمأنهم ووعدهم بالإمداد والعبور إلى الأندلس، وفَتَحِ باب الجهاد في

---

(١) إحدى مدن الثغر الأعلى في الأندلس وهي قديمة البنيان.

(٢) الحلل الموشية، ص٣٤.

سبيل الله عندما تسنح الظروف وتزول الموانع التي تقف في طريق المرابطين.

ويبدو أن المتوكل بن الأفطس كان يعاني الكثير من الأخطار العسكرية والسياسية التي يمارسها ضده ألفونسو السادس، وزيادة على استيلاء النصارى بقيادة ألفونسو السادس على بعض الحصون التابعة لابن الأفطس، فإنهم كانوا يمارسون ضده ضغوطاً سياسية كبيرة وتهديدات واسعة لزعزعة صموده والاستيلاء على معاقله وحصونه، إلا أن المتوكل بقي صامداً، وكان يرد على ضغوط ألفونسو السياسية وتهديداته الإعلامية، بتحدٍّ كبير وجرأة واضحة.

يتبين كل ذلك من رد المتوكل على أحد الكتب الموجهة إليه من أعدائه، ومن الجواب يفهم محتوى ذلك الكتاب كما يفهم مدى إدراك وفهم المتوكل للظروف المحيطة به، واعترافه الصريح بأن هذا الوهن الذي أصاب المسلمين في الأندلس إنما مرده إلى كثرة الذنوب وعدم التطبيق الكامل لتعاليم الإسلام. وجاء في جواب المتوكل ما يلي:

«وقد وصل إلينا من عظيم الروم كتابٌ مُدَّعٍ في المقادير، وأحكام العزيز القدير، يُرعد ويُبرق، ويجمع تارة ثم يفرق، ويهدد بجنوده الوافرة وأحواله المتظافرة، ولو علم أن لله جنوداً أعزَّ بهم ملَّة الإسلام، وأظهر بهم دين محمد عليه السلام، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] بالتقوى

يُعرفون، وبالتوبة يتضرعون ويُنصرون، ولئن لمعتْ من خلف الروم بارقةٌ فبإذن الله ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].

أما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم وظهر من اختلالهم؛ فبالذنوب المركوبة، والفرقة المكتوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك، لعلمت أيَّ مصاب أذقناك، كما كانت آباؤك مع آبائنا تتجرعه، فلم نزل نذيقها من الحِمَام، وضروب الآلام، شرَّ ما تراه وتسمعه، وأداء المال تتوزعه، وبالأمس كانت قطيعة[1] المنصور على سلفك إهداء ابنته إليه، مع الذخائر التي كانت تَفِدُ في كل عام عليه.

وأما نحن ـ وإن قلَّت أعدادنا، وعَدِمَ من المخلوقين استمدادنا ـ فما بيننا وبينك بحر نخوضه، ولا صعب نروضه إلا سيوفاً تشهد بحدتها رقابُ قومك، وجِلادٌ تبصره في ليلك ويومك، وبالله تعالى وملائكته المؤمنين، نتقوى عليك ونستعين، ليس لنا سوى الله مطلب، ولا لنا إلى غيره مهرب، وما تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين: نصر عليكم، فيا لها من نعمة ومنَّة! أو شهادة في سبيل الله، فيا لها من جنة! وفي الله العوض

(١) القطيعة: المقصود بها هنا الهدية، والمنصور هو الحاجب المنصور ابن أبي عامر المعافري الذي حجر على هشام المؤيد آخر خلفاء بني أمية في الأندلس.

مما به هددتَ، وفرج يبتر ما مددت ويقطع بك فيما أعددت»[1].

وفي عام[2] ٤٧٥هـ ورد يوسف بن تاشفين كتاب من المعتمد بن عبَّاد يشرح فيه أوضاع الأندلس وما آل إليه حال المسلمين من تغلُّب العدو على أكثر بلادهم ويطلب المساعدة على درء العدوان.

فأجابه يوسف: إذا فتح الله لي سبتة اتصلت بكم وبذلت في جهاد العدو المجهود. وكان لا يزال كثير من أهل الأندلس ينفرون[3] إلى بر العَدْوة معتصمين بالمرابطين نجاة بأنفسهم ودينهم، وكان هؤلاء الفقهاء يروون لشيوخ المرابطين قصصاً دامية وحوادث مفجعة يهتز لها كيان كل مسلم مخلص لدينه غيور على أبنائه، وكان بعضهم يسارعون للقاء يوسف مجهشين بالبكاء، لما أصاب بلادهم من بؤس وشقاء، فتهتز نفسه وتقوى عزيمته على وجوب نصرتهم مهما كان الثمن.

وعلى الرغم من ترامي أمراء الطوائف في أحضان هذا الطاغية، وتحكيمه في كثير من قضاياهم وتسابقهم على استرضائه، وعقد المحالفات معه ودفع الأموال الجزيلة له، إلا أن كل هذا لم يزده إلا عُنْجُهِيَّةً واشتطاطاً في المطالب الجديدة.

«وانتحى أَلفُنْش انتحاء الجبابرة وأنزل نفسه منازل القياصرة،

(١) الحلل الموشية، ص٣٦.
(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٢.
(٣) الحميري، الروض المعطار، ص٨٦.

وداخله من الإعجاب ما احتقر به كل ماشٍ على التراب . . . وجعل يكتب في كتبه الصادرة عنه: من الإمبراطور ذي الملتين ـ أي الإسلام والمسيحية ـ».

وقد وصل به الاستهتار بقيم المسلمين حداً برهن من خلاله على عمق انتمائه الصليبي الحاقد على الأمة الإسلامية، وقيمها النبيلة التي صانت كرامة قومه الخاضعين للإمارات الإسلامية، وحفظت لهم حرية الاعتقاد وإقامة شعائر الدين على مر العصور، وكان الأذفونش مطّلعاً على حالة أبناء ملته في بلاد الإسلام، ولكنْ غلبته طباعه الصليبية التي يستقيها من رجال الدين المحيطين به والذين يوجهون أكثر سياساته ضد مسلمي الأندلس، والتي كان منها ما حدث أيام الصراع الفاجر الذي دار بين الجارين المسلمين، المعتصم بن صمادح صاحب مدينة المرية، والمعتمد بن عباد أمير إشبيلية، حيث انشغل المعتمد بهذا الصراع وتأخر عن دفع الضريبة المفروضة عليه للأذْفونش ولم يرسلها له في الوقت المحدد، ولمّا تمكن من إرسالها بعد ذلك «استشاط الطاغية غضباً واشتطَّ وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة، وأمعن في التجني وسأل في دخول امرأته القمجيطة إلى جامع قرطبة لتلد فيه إذ كانت حاملاً لما أشار عليه بذلك القسيسون والأساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم، عمل المسلمون عليها الجامع الأعظم، وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بمدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة، تنزل بها فتختلف منها إلى الجامع المذكور حتى تكون تلك الولادة بين نسيم

الزهراء وفضيلة ذلك الموضع الموصوف من الجامع، وزعم أن الأطباء أشاروا عليه بالولادة في الزهراء كما أشار عليه القسيسون بالجامع»[1].

وهكذا يثبت لنا التاريخ حقيقة ساطعة تعامل بها الأعداء مع أمتنا في حالات ضعفها وانحرافها عن عقيدتها وهي أنهم ـ أي الأعداء ـ لا يعطفون على الضعيف ولا يحترمون إلا القوة القاهرة، فإذا نكصنا عن عقيدتنا الإسلامية التي هي حصننا الحصين فإنه لا تُحترم لنا قيم ولا تُصان لنا أعراف، وتنتهك كل المحرمات إذ لا احترام إلا للأقوياء في دنيا الغرب والشرق، فيا ليت الأمة تتعظ وتعود إلى عقيدتها التي توحد صفوفها وتهب لها الحماية والمنعة وتحفظها من الضياع أو الذوبان في كل الظروف والأحوال!.

وعلى كل حال فإن ملوك الطوائف لم يتعظوا بما يحيط بهم من أحداث، فلم يوحدوا صفوفهم ولم يعودوا إلى ربهم، بل استمروا في غيهم يتباهون بمجالس الشراب والشعر الماجن ويلهون بين أسراب من الجواري والغلمان، ويقتل بعضهم بعضاً لبيت من الشعر[2]، بينما عدوهم يقتطع الحصون العظيمة ويستلب الأموال الكثيرة، وهم مُبْلسون

---

(١) المصدر السابق، ص٨٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب؛ المقري، نفح الطيب: ٢/ ٥٢٥ ط١، م. الأزهرية (١٣٠٢)هـ.

(٢) كما حدث لابن عمار وزير المعتمد بن عباد الذي قتله سيده انتقاماً منه على قصيدته التي هجا فيها المعتمد وحظيته اعتماد الرميكية.

في قصورهم حريصون على مداراته ورضاه، ولكن هل يرضى العدو باقتطاع بعض أراضي المسلمين وامتصاص أموالهم؟ وهل يرضى بإعلان التبعية له؟ الحقيقة التاريخية تقول: إن أعداء أمتنا لا يرضون منها بكل هذا بل إنهم يستكثرون عليها حتى حق الحياة.

والأدلة القاطعة الأكيدة كثيرة في هذا الباب قديماً وحديثاً وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]. فالتبعية السياسية والاقتصادية لا تكفي لاستجلاب رضى اليهود والنصارى، ولكن التخلي عن العقيدة وانفراط الصف الإسلامي ووقوف الأمة بالعراء عرضة لكل الرياح هو الذي يرضيهم. وعلى هذا المنوال كان ألفونسو السادس ينسج حتى استولى على مدينة طليطلة قلب الأندلس وعقد الثغور، وعلى هذا النهج تعامل مع المعتمد ابن عباد لولا أن تداركه لطف من الله باستجابة يوسف بن تاشفين لنصرة الأندلس وإنقاذها.

فقد طمع ألفونسو ـ بعد أن ملك طليطلة ـ أن يستولي على الأندلس المسلمة، فكتب إلى المعتمد بن عباد يطلب منه تسليم بلاده إلى رسل ألفونسو وعماله لأنهم أقدر على إدارة البلاد على حد زعمه. ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن المعتمد كان حليفاً لألفونسو أثناء حصاره لطليطلة، وأن هذا التحالف هو الذي سهل لألفونسو اغتصاب هذه الإمارة وخَذْلَ المخلصين فيها. ومما جاء في كتاب ألفونسو:

رسالة ألفونسو السادس إلى المعتمد بن عباد بعد استيلائه على طليطلة ٤٧٨هـ:

«من القنبيطور، ذي الملتين، الملك المفضل، الأذفنش بن شانجة، إلى المعتمد بالله سدد الله آراءه، وبصره مقاصد الرشاد، من مشيد ملك شرَّفته القنا، ونبتت في ربعه المنى، فاعتز اعتزاز الرمحِ بعامله، والسيفِ بساعدِ حامله، وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها، وما سار بأهلها حين حصارها، فأسلمتم إخوانكم، وعطلتم بالدَّعَـةِ زمـانكم، والحذر من أيقظ باله، قبل الوقوع في الحبالة، ولـولا عهد سلف بيننا نحفظ ذِمامه، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو ووارده، لكن الإنذار يقطع الأعذار، ولا يعجل إلا من يخاف الفوت فيما يرومه، أو يخشى الغلبة على ما يسومه، وقد حملنا الرسالة إليكم القرمط البرهانس وعنده من التسديد الذي يلقى به أمثالك، والعقل الذي يدبر به بلادك ورجالك، مما أوجب استنابته فيما يدق ويجل، وفيما يصلح لا فيما يخل وأنت عندما تأتيه من آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك يسعى بيمينك وبين يديك».

ولما قرأ المعتمد كتاب ألفونسو أسقط في يده وتبددت أحلامه وعلم يقيناً.

أن الأفاعي وإن لانتْ ملامسُها عنـد التغلب في أنيـابها العَطَبُ

وأخذ يقلب أموره أخماساً بأسداس ويتذكر كيف أعان هذا الطاغية على إخوانه المسلمين في طليطلة؟ وكيف هدر أموال المسلمين التي انتزعها من أبناء إمارته وقدمها إلى عدو دينه وأمته مصحوبة بكثير من اللطائف والذخائر النفيسة، فعضَّ أصابعه ندماً على ما فرَّط بحقوق أمته (ولات حين مندم).

ولا شك أنه تذكر حروبه الطويلة والمريرة مع جيرانه المسلمين، وكم هَدَرَ فيها من الطاقات والدماء التي كان من المفروض أن تُدَّخر لمثل هذه الحالات والمواقف الحرجة.

ثم تمعن في كتاب ألفونسو الذي يطلب فيه أن يسلم بلاده إشبيلية وقرطبة وغيرها لرجال ألفونسو، ففار الدم في رأسه وجلى عنه كل الغشاوات الكاذبة التي كانت تدور في مخيلته حول الثمار التي سيجنيها من تحالفه مع أعداء أمته، وعلم أن الرجوع إلى الحق أحق، وأن الجهاد هو السبيل الوحيد للحفاظ على ممتلكات الأمة وخيراتها، فردَّ على الأذفونش بكتاب يحمل في طياته التصميم الأكيد على التعامل مع عدوه بالأسلوب الذي يفهمه، فجاوبه بخطه ونظمه ونثره، ومما جاء في كتابه ما يلي:

رد المعتمد بن عباد على رسالة الأذفنش:

الذل تأباه الكرام ودينُنا ... لك ما نَدين به من البأساءِ

سِمناكَ سِلماً ما أردتَ، وبعد ذا ... نغـزوك فـي الإصبـاح والإمسـاءِ
الله أعلـى مـن صليبِـك فـادَّرِعْ ... لكتيبـةٍ حَطَمَتْـكَ فـي الهيجـاءِ
سوداءَ غابت شمسُها في غيمها ... فجَـرتْ مـدامعُهـا بفيـضِ دمـاءِ

ومما جاء من نثره: «. . . سلام على من اتَّبع الهدى، أما بعد:

فإنه أول ما نبدأ به من دعواه، أنه (ذو الملتين) والمسلمون أحق بهذا الاسم، لأن الذي يملكونه من أمصار البلاد وعظيم الاستعداد، ومجبى المملكة لا تملكه قدرتكم، ولا تعرفه ملتكم، وإنما كانت سنة سعد أيقظ منها مناديك. . . وقد يأتي المحبوب من المكروه، والندم من عجلة الشـروه، نبهتَ من غفلة طال زمانها وأيقظت من نومة تجدد أمانها، ومتى كانت لأسلافك الأقدمين مع أسلافنا الأكرمين يد صاعدة أو وقفة متساعدة، إلا ذلٌّ تعلم مقداره، وتتحقق مَثاره، والذي جَرَّأك على طلب ما لا تدركه قوم كالحُمُر[1] ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ [الحشر: ١٤] ظنوا المعاقل تُعقل، والدول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من المسالمة ما أوجب القعود عن نصرتهم، وتدبير أمرهم، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما أتيناه في أنفسنا وفيهم من ترك الحزم، وإسلامِهم لأعاديهم، والحمد لله، الذي جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك كالموت دونه، بالله نستعين عليك، ولا نستبطئ في

(١) بقر الوحش.

مسيرتنا، والله ينصر دينه الكريم ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢ ـ الصف: ٨ ـ غافر: ١٤] والسلام على من علم الحق فاتبعه، واجتنب الباطل وخدَعه»[1].

وواضح في هـذا الكتاب اعتراف المعتمد الصريح بتحالفه مع ألفونسو ضد إخوانه الأندلسيين تحالفاً يمنعه من مد يد المساعدة والتدبير إليهم، بـل إنه يعترف بخذلانهم وتسـليمهم إلى أعاديهم، وإن هـذا الشـذوذ السياسي الكبير الذي سقط به المعتمد الذي يعتبر من أفضل وأقوى حكام الطوائف آنذاك، لَيدل دلالة لا غموض فيها على انحراف أمراء الطوائف عن عقيدتهم انحرافاً يسقط كل مبررات بقائهم على رأس السلطة في إماراتهم؛ لما عانت الأمة في عهدهم من الضعف وضياع الحقوق والفرقة التي لا مبرر لاستمرارها سوى حب الرئاسة والتسلط على رقاب العباد الذي أخذ من هؤلاء الأمراء كل مأخذ، فلم يعودوا يبصرون مصالح أمتهم وشعوبهم، ولم يعد لهم همٌّ سوى المحافظة على عروشـهم تحت أي عباءة وبأي ثمن، وهذا ما أكده تصرف المعتمـد نفسـه، فما إن ذهبت سورة الغضب عنه وتمعن بخطورة الموقف حتى ذهب يستشير خواصه من أصحابه الذين كانوا لا يفارقون مجالس لهوه وانبساطه، فاستصعبوا الأمر ولم يستنفروا إيمانهم بالله تعالى فاثَّاقلوا إلى الأرض، و«أشاروا عليه بمصانعة أذفونش وعقد السِّلْم معه على أداء مال

---

(١) الحلل الموشية، ص٣٩ ـ ٤٠.

معلوم عن كل حول»[1].

وبهذا يثبت أن الإيمان لا يتأتى بثورة غضب أو بالادعاء ورفع الشعارات المنمقة التي تتناسب مع ظروف آنية مصلحية زائلة، وإنما الإيمان حالة ثابتة تجري في المؤمن مجرى الدم بالعروق وهو «قول باللسان وتصديق بالجَنان وعمل بالأركان».

وإن الجهاد الخالص لله تعالى ينبع من الإيمان الصادق الذي لا يشوبه أي ريب، وكما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وفي هذا الموقف أيضاً يبرز لنا دور البِطانة المحيطة بالحاكم وإمكانية لعبها دوراً أساسياً في تقرير الأحداث. وأن البطانة الصالحة تشير دائماً بالرأي السديد، فتنجح الخطط وتعمر البلاد وتتوحد الأمة فيصنع التاريخ الزاهي المجيد.

ولكن الظاهر أن بطانة المعتمد ثَبَّطَته ولم تُشر عليه بالرأي السديد؛ لأن مصانعة الأعداء لا تنجح دائماً، وأن الأموال التي يقدمونها لألفونسو السادس يستخدمها في تقوية جيشه ودولته، بالوقت الذي كانت تثقل فيه كاهل الرعية بالضرائب المفروضة عليها، مما أضعف دواعي العمل

(١) المصدر السابق، ص٤٤.

والإنتاج وبالتالي انهيار الاقتصاد وتفكك المجتمع، وهذا ما حدث لمجتمع إشبيلية الذي ضعف عن أداء الضرائب مما اضطر الكثير منهم للجلاء إلى بلاد أخرى.

ولكن للتملص من تحمل تكاليف الجهاد والعمل على إيقاف المد النصراني في الأندلس عسكرياً، ولإرضاء ألفونسو، «افترض على أهل إشبيلية فريضة افتقر فيها أكثرهم وانجلى آخرون»[1].

وبهذه السياسة المتخاذلة التي اتبعها المعتمد عانت مملكة إشبيلية إرهاقاً اقتصادياً قاسياً تحت وطأة الضرائب المفروضة، حتى فضّل الكثير من أهلها الجلاء عن وطنهم إلى بلاد أخرى هرباً من هذه المعاناة.

ولكن هيهات أن يقتنع الذئب بالصوف والوبر، دون أن يأكل اللحم ويمتص العظم. ولو تدبر المعتمد ومن وقع بمثل ما وقع به المعتمد من أبناء أمتنا قول الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ لعلموا أنهم يجرون وراء سراب، وأن أي اتفاق مع اليهود أو النصارى لا ترفده القوة إنما هو كسب للعدو وخسارة للأمة.

وما حدث للمعتمد بعد أن أخذ بالرأي القائل بوجوب مصانعة ألفونسو كان دليلاً قاطعاً على وهم هذه السياسة وبعدها عن الواقعية.

ويبدو أن المعتمد وألفونسو السادس اتفقا على ضريبة معينة

---

(١) المصدر السابق، ص٤١.

يدفعها المعتمد في كل عام تجنباً لغارات ألفونسو وقواته النصرانية، إلا أن هذا الطاغية لم يتخلَّ عن تجبره وتأكيد هيمنته وظهوره بمظهر القوة القاهرة في الأندلس، وأراد أن يثبت ذلك من خلال سفارته التي أرسلها إلى إشبيلية لاستلام الضريبة السنوية المتفق عليها، فأرسل قافلة من نحو خمسمئة[(١)] فارس، ومن ضمنها سفارة مالية يتزعمها وزير ألفونسو السادس اليهودي ابن شاليب؛ لاستلام المال. وقد أنزل المعتمد هذه السفارة بظاهر إشبيلية وأرسل إليهم «المال المعلوم مع بعض أشياخ إشبيلية منهم ابن زيدون وغيره، فلما وصلوا إلى خبائه وأخرجوا إليه المال العين والسبائك قال لهم اليهودي: والله لا آخذ منه هذا العيار ولا آخذ منه إلا مشحراً - أي ذهباً خالصاً - ولا يؤخذ منه في هذا العام إلا أجفان البلاد.

وزاد في كلامه ونقص وأساء الأدب فبلغ المعتمد خبره فدعا بعبيده وبعض جنوده وأمرهم بالخروج لقتل اليهودي ابن شاليب، وأسر من كان معه من النصارى ففعلوا ما أمرهم به من ذلك»[(٢)].

وهناك من يرى أن ابن شاليب كان يفاوض المعتمد بشكل مباشر، فأغلظ له اليهودي بالقول «وشافهه بما لم يحتمل، فأخذ ابن عباد محبرة

---

(١) المقري، نفح الطيب، المطبعة الأزهرية، ط١: ٢/ ٥٢٤.
(٢) الحلل الموشية، ص٤٢.

كانت بين يديه فأنزلها على رأس اليهودي فألقى دماغه في حلقه وأمر به فصلب»[1].

وكان فرسان من النصارى الذين بصحبة هذا الوزير اليهودي بضيافة قواد جيش ابن عباد «فأمر قواده أن يقتل كل واحد منهم من عنده من الكفرة»[2].

على كل حال فإن ابن عباد استفتى الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودي وزير ألفونسو، فبادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة إلى ما يستوجب له القتل، وقال ابن الطلاع للفقهاء حينما خرجوا من عند المعتمد عن سبب مبادرته بالفتوى قبلهم: «إنما بادرت بالفتوى خوفاً أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو، وعسى الله أن يجعل في عزيمته للمسلمين فرجاً»[3].

إذاً هذه المرة دعي ابن عباد للجهاد من قبل ممثلي الشعب المخلصين في ذلك الوقت وهم الفقهاء، بعكس دعوة خواصه ومستشاريه السياسيين حينما أشاروا عليه بمصانعة ألفونسو فكانت النتيجة هي الزيادة بالتعدي والتطاول على المسلمين. ولا شك أن هذا الحدث الخطير لا يمكن التكتم عليه فانتشر في أوساط المجتمع فأدرك الناس

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٣١.
(٢) المقري، نفح الطيب، المطبعة الأزهرية: ٢/ ٥٢٥.
(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٣١.

خطورة الوضع لعلمهم بعجز ملوك الطوائف عن صد خطر النصارى، فعُقد مؤتمر شعبي في قرطبة شارك فيه مجموعة من رؤساء الأندلس، اجتمعوا بالقاضي عبيد الله بن محمد بن أدهم وقالوا له: ألا تنظر ما فيه المسلمون من الصَّغار والذِّلَّة وإعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها، وقد غلب على البلاد الفرنج ولم يبق إلا القليل، وإن دام هذا عادت نصرانية وقد رأينا رأياً نعرضه عليك، قال: وما هو؟ قالوا: نكتب إلى عرب أفريقية ونبذل لهم إذا وصلوا إلينا شَطْرَ أموالنا ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله، فقال لهم ابن أدهم: المرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا. فقالوا له: كاتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين واسأله العبور إلينا وإعانتنا بما يتيسر من الجند[1].

وعلى هذا أصبحت قضية الاستنجاد بالمرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين مَطلباً جماهيرياً جارفاً، لا يستطيع أحد من الأمراء الوقوف في وجهه. وفي هذه الأثناء قدم ابن عباد إلى قرطبة فعقد مع القاضي ابن أدهم مؤتمراً رسمياً[2] أبلغ فيه بمطالب الشعب والرغبة بالاستعانة بالمرابطين والاستعداد العسكري لمواجهة خطر النصارى، ونظراً لقوة هذا الضغط الشعبي ووطأة الضغط العسكري الذي يمارسه ألفونسو لم يعد هناك بدٌّ من الاستجابة لهذا المطلب، ومكاتبة أمير

(١) المقري، نفح الطيب: ٤/ ٣٦٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١/ ١٤٣.
(٢) م. ن.

المسلمين يوسف وطلب مساعدته في إنقاذ الأندلس.

وقد رغب ابن عباد أن يكون القاضي ابن أدهم هو رسوله إلى يوسف ابن تاشفين، فتمنع من ذلك ليبرئ نفسه وليشد في عزيمة المعتمد، الذي ألح عليه ليكون سفيره إلى يوسف بن تاشفين؛ فوافق القاضي، وبذلك تقرر طلب النجدة من المرابطين بشكل رسمي. هذا ما حدث بعد مقتل سفير ألفونسو في الجانب الإسلامي.

أما ألفونسو السادس فإنه عندما علم بما حدث لسفارته أقسم بآلهته أن لا يرفع يده عنه وأن يحشد من الروم عدد شعر رأسه ويصل بهم إلى بحر الزقاق[1].

وهذا يعني أنه أقسم أن يستأصل المسلمين في الأندلس وأن زحفه لن يتوقف حتى يصل إلى مضيق جبل طارق، وبذلك يضع البحر حاجزاً طبيعياً بينه وبين المسلمين في أرض المغرب.

ولتنفيذ هذا المخطط أخذ يُعد العدة ويجمع الجند ليقوم بهجوم شامل على بلاد المسلمين في غرب الأندلس وشرقها، وقد نفذ هذا المخطط بتقسيم جنده إلى جيشين كبيرين «جعل على أحدهما كلباً من مساعير كلابه، وأمره أن يسير على كورة (باجة) من غرب الأندلس ويغير على تلك التخوم والجهات، ثم يمر على (لبلة) إلى إشبيلية وجعل

---

(١) الحلل الموشية، ص٤٢.

موعده (طريانة) للاجتماع معه، ثم زحف ابن فرذلند بنفسه في جيش آخر عَرَمْرَم فسلك طريقاً غير طريق صاحبه، وكلاهما عاث في بلاد المسلمين وخرب ودمر حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم قبالة قصر ابن عباد»[1].

وواضح من هذا التحرك العسكري الواسع أن المقصود منه نشر الرعب والخوف في صفوف المسلمين وإشغالهم في كافة الجهات وإجبارهم على التحصن داخل قلاعهم، وبالتالي الحيلولة دون تجميع أي قوة أندلسية قادرة على مقاومة جيوش ألفونسو، وطبيعي أن يرافق هذه الأعمال العسكرية أعمال تخريبية للمحاصيل والزرع والقناطر، وما إلى ذلك من القتل والسبي ونهب الخيرات وبأوحش الأساليب وأخسها كما هو معروف عن جيوش الصليبية، مما جعل حياة الأندلسيين جحيماً لا يطاق، وقد نفذ ألفونسو مخططه هذا بشكل كامل وحاصر ابن عباد في قصره، وفي أيام مقامه بذلك الحصار كتب إلى ابن عباد زارِياً عليه، فقال:

«كَثُرَ بطول مُقامي في مجلسي الذباب، واشتدَّ عليَّ الحر، فألقني من قصرك بمروحة أروِّح بها على نفسي وأطرد بها الذباب عني»[2].

والحقيقة أن النصارى منذ أن استولوا على مدينة طليطلة شعروا

---

(١) الحميري، الروض المعطار، ص٨٤.

(٢) المصدر السابق نفسه.

بعلو نجمهم وتمكنهم من بلاد المسلمين، مما زاد من تعالي ألفونسو في تعامله مع أمراء الطوائف فأصبح يخاطبهم بمثل هذه المخاطبات الساخرة، يزيد في غروره وتعاليه ما رآه من فرقتهم وانشغالهم في حياتهم بالقشور والمظاهر، لكن هذا الاستخفاف والتطاول الشديد حرَّك في نفس المعتمد دواعي العزة والجهاد والتصميم المعلن على الاستنجاد بإخوانه المسلمين في مُرَّاكُش، الذين نذروا أنفسهم للجهاد ونصرة الإسلام، فجاء رده إلى ألفونسو صفعة كبيرة، جعلته يمعن التفكير ويعيد الحسابات من جديد، فقد رد ابن عباد هذه المرة على حليفهِ السابق بلهجة جديدة وعزيمة صلبة بعيداً عن منطق الاستجداء والتبعية، فوقع له بخط يده في ظهر الرقعة: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر لك في مراوحَ من الجلود اللمطية في أيدي الجيوش المرابطية، تروح منك لا تروح عليك إن شاء الله»[(١)].

وبعد أن فهم ألفونسو مراد المعتمد في هذا الكتاب، علم أن الأمر جد، وأن الصراع بينه وبين زعماء الطوائف تحول إلى مرحلة جديدة تتطلب منه استنفار الصليبية بكل أحقادها وامتداداتها، فزاد في تخريبه وإفساده خلال هذه الحملة وهاجم شرف إشبيلية ـ أي المنطقة الزراعية المحيطة بها ـ والتي كان يضرب المثل بخصوبتها، وطيب تربتها وكثرة زيتونها؛ حيث أفسد وأحرق فيه ما استطاع، ثم اتجه إلى بحر الزقاق

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٣١.

فهاجم جزيرة طريف، وعاث في نواحيها، وخرَّب في الشرق قرى كثيرة، وهكذا تابع مسيره لا يمر بشيء إلا حطمه حتى وصل ساحل البحر وأدخل قوائم فرسه في الماء وقال: «هذا آخر الأندلس قد وطئته»[1].

إشارة إلى أنه قد أتم حملته التخريبية وأبرَّ بقسمه، وإن كان مخططه بني في البداية على أساس أخذ كل بلاد الأندلسيين التي سيمر بها.

ويبدو أن ألفونسو عندما مد بصره إلى الشاطئ المقابل تذكر أن لهؤلاء الأندلسيين الذين عاث في بلادهم وأفسد إخواناً وراء هذا الشاطئ تربط فيما بينهم وشائج الدين والمحبة والمصلحة التي قد تتحول في أي لحظة من لحظات اليقظة إلى جسور تربط بين هذين الشاطئين، مما يشكل على الصليبية الإسبانية خطراً قد يعيدها إلى منطقة الصخرة (جليقية) التي عاش فيها أجداده أذلاء خانعين منذ الفتح وطوال العهود التي كانت تنفذ قول الله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

ويترجمون ذلك عملياً في حركة من الجهاد المستمر الذي يجرف أمامه كل مظاهر الظلم والطغيان الذي اتصفت به الصليبية الأوروبية بكل مسمياتها القديمة والحديثة.

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٢.

ولكن ألفونسو السادس أراد أن يستخدم مع أمير المرابطين نفس المنطق الذي كان يستخدمه مع ملوك الطوائف المملوء بالتهديد والوعيد والشقاشق التي كان يذعن لها هؤلاء، متناسياً أو متجاهلاً بأن يوسف بن تاشفين والمرابطين هم إخوان الفاتحين الأوائل الذين وصلت طلائعهم إلى أطراف باريس، وأنهم من تلامذة القرآن وحملة راية الإسلام والمؤمنين به سبيلاً وحيداً لإزالة المشكلات والعقبات من طريق أمة الإسلام، ولكن ألفونسو تجاهل كل هذا وخاطب أمير المسلمين بكتاب طويل يُرعد فيه ويُبرق كما اعتاد مع أمراء الطوائف جاء من نصه ما يأتي:

كتاب الأذفنش إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين:

«من أمير النصرانية الأذفنش بن فردلند إلى يوسف بن تاشفين، أما بعد فإنك اليوم أمير المسلمين ببلاد المغرب وسلطانهم.

وأهل الأندلس قد ضعفوا عن مقاومتي ومقابلتي، وقد أذللتهم بأخذ الجزية منهم وبالقتل والأسر والذل والقهر، وأنا لا أقتنع إلا بأخذ البلاد، وقد وجب عليك نصرهم لأنهم أهل ملّتك فإما أن تجوز إلي، وإما أن ترسل إلي المراكب أجوز إليك، فإن غلبتني كان ملك الأندلس والمغرب إليك، وإن غلبتُك انقطع طمع الأندلس من نصرك إياهم فإن نفوسهم متعلقة بنصرتك لهم»[1].

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٤٠؛ ابن الكردبوس، نص تاريخ الأندلس ص٩١؛ الحلل الموشية، ص٤٢، وعلى الرغم من وجود من يشكك بصحة=

رد يوسف بن تاشفين على الأذفنش:

لما وصل كتاب الأذفنش إلى يوسف بن تاشفين أمر كاتبه أن يرد على رسالته، فكتب كتاباً مفصلاً ردَّ فيه على كل الفقرات التي وردت في تلك الرسالة ردّاً قوياً مناسباً ومعبراً، ولما قرئ ذلك الردُّ على أمير المسلمين أعجب به لكنه رآه مطولاً، فأمر كاتبه أن يكتب على ظهر رسالة ألفونسو: «من أمير المسلمين يوسف إلى أذفونش، أما بعد فإن الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأُذنك، والسلام على من اتبع الهدى»[١].

وأردف الكاتب ببيت أبي الطيب:

ولا كتبَ إلا المَشْرِفِيَّةُ والقنا ولا رسْلَ إلا بالخميسِ العَرَمْرَمِ[٢]

وقد وصل رد أمير المسلمين إلى ألفونسو، فعلم أن هذا الرد المعبر الحازم له ما بعده، مما أربك مخططات ألفونسو واضطره إلى رفع الحصار عن الكثير من المدن الأندلسية التي كان يراها قد أصبحت في قبضته.

ومما يصور لنا حالة الجانبين في ذلك الوقت ونظرة ألفونسو

= هذه الرسائل فإنها تعبر عن الحال التي كانت تمر بها الأمة في تلك المرحلة تعبيراً حقيقياً.

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٤٠.

(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٩١؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام؛ الحلل الموشية، ص٤٣.

للجانب الإسلامي، ما أورده لنا شاعر بني مرين عبد العزيز الملزوزي في أرجوزته المسماة نظم السلوك حيث يقول:

وكانت الرومُ بتلك العَدْوَةِ — في كَثرةٍ وعُدَّةٍ وقوةِ
ويحسبون أن من في الأرض — دونهمُ بطولها والعَرضِ
قد أظهروا الطغيانَ للأنام — وأكثروا الجورَ على الإسلامِ[1]

وعن كتاب ألفونسو المملوء بالتهديد والوعيد الذي أرسله إلى أمير المسلمين، جاء قول الملزوزي معبراً عن فحوى ذلك الكتاب في هذه الأبيات من أرجوزته:

فكتب ألفونسو إلى ابن تاشُفينْ — مستهزئاً أنِ انصُرِ المستضعفينْ
فما بأرض المسلمين غيرُكا — لمْ لا يكونُ للجهادِ سيرُكا
عليك نصرُ الدين فرضٌ واجبُ — إذ عندك الجنودُ والكتائبُ
وأنت تُدْعى بأمير المسلمينْ — وقامعِ الكفار ثم المعتدينْ
وحضَّه حضّاً على الجهادِ — كأنه داعٍ إلى الرشادِ[2]

سفارة المعتمد بن عَبَّاد إلى أمير المسلمين وموقفُ ملوكِ الطوائف منها:

منذ أن انتشر خبر توقيع ابن عبَّاد على رسالة ألفونسو وإظهاره

---

(١) الملزوزي، نظم السلوك، ص٥٠.
(٢) م. ن.

العزمَ على استدعاء المرابطين للجهاد في الأندلس عمت الفرحة ربوع الأندلس واستبشر الناس بالنصر، وفتحت لهم أبواب الأمل بالتخلص من طغيان النصارى وعدوانيتهم التي يمارسونها منذ سقوط الخلافة الأموية في الأندلس. وقد أيد الفقهاء هذا التوجه الشعبي الواسع، مما أوجد أفضل أرضية لقيام تلاحم أخوي حقيقي بين المرابطين والأندلسيين يبشر بمستقبل زاهر بالانتصارات وبالحياة الإسلامية الحقيقية المستندة إلى أصول الشرع الحنيف، بكل ما يعنيه ذلك من رَفاهٍ وعدالة وبُعد عن التعسف في جمع الضرائب أو إجحاف في أداء الحقوق.

أما على المستوى الرسمي فقد كان الحال على عكس هذه الصورة إذ عارض هذا المشروعَ بعضُ أمراء الطوائف لما رأوا في ذلك من خطر على مصالحهم، استبانوا بداياته من هذا التأييد الواسع من رعيتهم لأمير المسلمين الذي يعرفون عن سيرته الكثير من الأخبار الطيبة والمطمئنة، التي تعبر عن صدق انتمائه الإسلامي، وأصالة المبادئ التي تنادي بها دعوة المرابطين، وما يعنيه ذلك من بداية عهد جديد لحياة الوحدة والنظام والالتزام الشرعي، الذي سيحرم ملوك الطوائف من حرياتهم المطلقة التي يعيشونها من دون رقيب أو قانون، مما جرَّ على الأندلس محناً وكوارثَ للبلاد وتسلطاً أعمى، وفتناً مُبيرة يدفع ثمنها الشعب لحساب الحياة الباذخة اللاهية التي كان يتبارى هؤلاء الأمراء على الانغماس فيها والحرص على استمرارها.

لذلك ما إن تأكدوا من عزيمة ابن عبَّاد على المضيِّ في هذا السبيل

حتى هرع بعضهم للقائه وكاتبه آخرون محذرين من خطورة هذا الإجراء على مستقبلهم ومناصبهم قائلين له: «الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد»[1]، مع إدراك هؤلاء المعارضين لضعف موقفهم وتشتت صفهم، وطغيان النصارى عليهم وإذلالهم بدفع الضريبة السنوية والعدوان على رعاياهم وممتلكاتهم، ولكن إذا استمرأ بعض الحكام حياة الذل والتبعية للأعداء فإن المجتمعات المسلمة والشعوب المؤمنة بالله تعالى أول من يدرك مثل هذه الحالات ويلفظها، ويجاهد من أجل التحرر منها؛ لأن مثل تلك الأوضاع من المستحيل على الإنسان المسلم أن يقبل بها، وكيف يقبل بحياة غير مستقرة مع حكام لا يستطيعون حماية رعاياهم ولا ينتصرون لهم على من يبغي عليهم والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]؟!.

لذلك نلاحظ أن الأندلسيين رفضوا هذا الموقف من حكامهم، وإن غلبوا على أمرهم في فترات سابقة فهم اليوم يستندون إلى إخوانهم المرابطين الذين تجاوزوا هذه الحالة وأقاموا دولة إسلامية قرآنية يستظلون بظلالها ويأوون إلى ركنها الشديد.

وهم وإن عاشوا أيام الطوائف فإنهم لم يكونوا راضين عنها ويتحينون الفرصة للخلاص منها، وقد عبر عن تلك الحالة الشاعرُ خَلَفُ بن فَرَجٍ الألِبيري بقوله:

---

(١) الحميري، الروض المعطار.

نـــادِ الملـــوكَ وقـــلْ لهـــم   مـــاذا الـــذي أحـــدثتـــمُ!!
أسلمتـــمُ الإســـلامَ فـــي   أسْـــرِ العِـــدا وقعـــدتُـــمُ
وَجَـــبَ القيـــامُ عليكـــمُ   إذْ بـــالنصـــارى قُمْتُـــمُ
لا تُنكـــروا شَـــقَّ العصـــا   فعصـــا النبـــيِّ شَقَقْتُـــمُ[1]

ولم يكن المعتمد يختلف كثيراً عن إخوانه أمراء الطوائف، ولكنه كان أكثرَهم إدراكاً لخطورة الوضع، ولما عزم عليه ألفونسو من التصميم على استئصال المسلمين من الأندلس، وتيقنه أنه لم يعد أمام الأندلسيين سوى حالتين:

الحالة الأولى: الخضوع للنصارى على ما في ذلك من تعرض للذل الذي يصل إلى حد استباحة الدماء، والأعراض والأموال، وإن نجا أحدٌ من هذه الحالة فقد يُجبر على التنصُّر وتغيير دينه، وهذه الموتُ أهون منها على المسلم، إذ كيف يعود إلى الكفر بعد أن هداه الله للإيمان؟! وفي أخف الحالات يُطرد من أرضه وأملاكه ويتعرض لحملات القراصنة وتُجار الرقيق.

أما الحالة الثانية: فهي طلب النصرة من المرابطين الذين لا يريدون مقابل ما يبذلونه من دماء وأموال جزاء ولا شُكوراً سوى العودة إلى تحكيم الإسلام والعدل في الرعية. لذلك رد على معارضيه بكلمته السائرة مثلاً

(١) ابن بسام، الذخيرة: ٢/ ٣٧٣.

إلى اليوم بقوله: «رَعْيُ الجمالِ خيرٌ من رعي الخنازير»[1]، أي كونه مأكولاً لابن تاشُفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء، خيرٌ من كونه ممزقاً لألفونسو أسيراً يرعى خنازيره في قَشْتالة.

ومن الطبيعي أن يكون المعتمد على مستوى من الفهم السياسي لتداخلات تلك المرحلة جعلته يرى الأمور على حقيقتها، فقال لعذاله ومعارضيه:

«يا قوم أنا من أمري على حالتين حالة يقين وحالة شك، ولا بد لي من إحداهما، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشُفين أو إلى ابن فرذلند فمن الممكن أن يَفِيا لي ويُبقيا علي، ويمكن أن لا يفعلا، فهذه حالة الشك.

وأما حالة اليقين فهي أني إن استندت إلى ابن تاشُفين فأنا أُرضي الله، وإن استندت إلى ابن فرذلند أسخطت الله، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه! وحينئذ أَقْصَر أصحابه عن لومه»[2].

وبهذا الموقف عبَّر المعتمد بن عباد عن حكمة سياسية بالغة

---

(١) الحميري، الروض المعطار، ص٨٦؛ المقري، نفح الطيب: ٤/ ٣٥٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٣٢.

(٢) م. ن.

ورزانـة في التفكير القيادي، وذلك برفضه منطق القوة والعُنْجُهِيَّـة، ويتحلله من تحالفاته السياسية الخاطئة سابقاً مع أعدائه. وقد ظهر ذلك جلياً عندما كان يرد على معارضة ابنه وولي عهده الرشيدِ عُبيدِ الله حيث قال له: «يا عبيدَ الله إنا في هذه الأندلس غرباء بين بحر مظلم، وعدو مجرم، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى، وإن إخواننا وجيراننا ملوكَ الأندلس ليس لنا فيهم نفع، ولا تُرْجى منهم نُصرة ولا جُنَّة، إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل، وهذا اللعين أذفنش قد أخذ طُلَيْطُلَة من يد ابن ذي النون بعد سـنة سبع وسبعين وعادت دار كُفر، وهاهو قد رفع رأسه إلينا، وإن نزل علينا بكَلْكَلِه ما يقلع عنا حتى يأخذ إشْبيلية، ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذا الصحراوي[1]، ملك العدوة، نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين، إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا، فقد تلف مجبانا وتبددت أجنادُنا وأبغضتْنا العامة والخاصة.

فقال له ابنه الرشيد: يا أبت أتُدخل علينا في أندلسنا من يسـلبنا ملكنا، ويبدد شملنا؟

فقال: أي بني، والله لا يسمع عني أبداً أني أعدت الأندلس دارَ كفر، ولا تركتها للنصارى؛ فتقوم عليَّ اللعنة في منابـر الإسلام مثلما قامت على غيري، حِرْزُ الجمال ـ والله ـ عندي خير من حرز الخنازير.

---

(١) المقصود به هنا يوسف بن تاشفين.

فقال له ابنه: يا أبتِ افعل ما أراك الله.

فقال: إن الله لم يُلهمني هذا إلا وفيه خير وصلاح لنا، ولكافة المسلمين»[1].

وبعد هذه المحاورات السياسية الواقعية تمكن المعتمد بن عباد من إقناع معارضيه والحصول على إجماع الأندلسيين لمشروع استدعاء المرابطين إلى الأندلس، فباشر المعتمد بإعداد الرسل إلى يوسف بن تاشفين وزودهم برسائلَ تحثُّ المرابطين على ضرورة الإسراع بالعبور إلى الأندلس، وكان بعض تلك الرسائل من إنشاء المعتمد وبعضها من إنشاء كتّابه، فمن إنشاء المعتمد وخطه هذه الرسالة:

كتاب المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً!.

إلى حضرة الإمام، أمير المسلمين، وناصر الدين، محيي دعوة الخليفة، الإمام، أمير المسلمين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين.

من القائم بعظيم إكبارها، الشاكر لإجلالها، المعظِّم لما عظَّم الله من كريم مقدارها، اللائذ بحرَمها، المنقطع إلى سمو مجدها، المستجير

---

(١) الحلل الموشية، ص٤٤.

بالله، محمد بن عبَّاد.

سلامُ الله الكريم يخص الحضرة العَلية، المعظمة السامية ورحمة الله وبركاته.

وكتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية غُرَّة جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وأربعمئة، وأنه أيد اللهُ أمير المسلمين ونصر به الدين، أما نحن العـرب في هذه الأندلس، قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنـا، وتغيرت أنسابنا، بقطع المادة عنا من معيننا؛ فصرنا شعوباً لا قبائل، وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر، فقلَّ ناصرنا، وكثر شامتنا، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفنش، وأناخ علينا بكَلْكَلِه، ووطئنا بقدمه، وأسرَ المسلمين وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلـس ليس لأحد منا طاقة على نُصرةِ جاره، ولا أخيه، ولو شاؤوا لفعلوا، إلا أن الهوان منعهم عن ذلك وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال، وأنت ـ أيدك الله ـ ملكُ المغرب أبيضِه وأسودِه، وسيدُ حمير[1]، ومليكها الأكبر وأمينها وزعيمها، ونزعتُ بهمتي إليك، واستنصرتُ بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم، لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر، وتُحيوا شريعة الإسلام وتَذُبُّوا عن دين محمد عليه الصلاة والسلام، ولكم بذلك عند الله

---

(١) حيث إن الملثمين ينتسبون إلى قبائل حمير اليمانية وكذلك بني عباد الذين يرفعون نسبهم إلى المناذرة ملوك الحيرة الذين يرجعون في أنسابهم إلى اليمن ولذلك خاطب أمير المسلمين على هذا النحو.

الثواب الكريم، والأجر الجسيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والسلام الكريم على حضرتكم السامية، ورحمة الله تعالى وبركاته»[1].

ثم راسل المعتمد بن عباد جارَيه: المتوكلَ عمر بن محمد صاحب بطليوس، وعبد الله بن بلقين صاحب غِرناطة، يأمرهما أن يبعث إليه كل واحد منهما قاضي حضرته ففعلا ثم استحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم وكان من أعقل أهل زمانه، فلما اجتمع القضاة عنده بعاصمة بني عباد إشبيلية، أضاف إليهم وزيرّه أبا بكر ابن زيدون وعرَّفهم أربعتَهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى ابن زيدون ما لا بد منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية[2]. فانطلقت هذه السفارة إلى المغرب حتى حطت رحالها في مُرّاكُش عاصمةِ المرابطين.

استقبال يوسف بن تاشفين سفارة الأندلس واحتفاؤه بها:

استقبل يوسف بن تاشفين هذه السفارة بكل اهتمام وترحيب وحفاوة، كعادته في استقبال رسل الأندلس المستغيثين به لإنقاذ بلادهم.

---

(١) الحلل الموشية، ص٤٥.
(٢) الحميري، الروض المعطار، ص٨٦.

إلا أن الذي تبين في هذه السفارة الرسمية أن الأمر جد خطير، وأن مصير الأندلس المسلمة مهدد بالزوال أمام ضربات الصليبيين الذين وحدوا صفوفهم وباشروا بتنفيذ مخطط حركة الاسترداد الصليبية، التي تدعو لطرد المسلمين من بلادهم أو إبادتهم وإسكان النصارى فيها، وإعادتها إلى ما كانت عليه قبل الفتح عام ٩٢هـ، كل ذلك بتوجيه ومساندة الكنيسة.

ولكن يوسف بن تاشفين على الرغم من إيمانه الكامل بأنه لا بد من نصرة الأندلس كما تعهد بذلك لكل الوفود الشعبية الأندلسية التي التقاها، وبالرغم من شعوره بأن ذلك واجب شرعي لا بد منه حتى ولو لم يستنجد به أمراء الأندلس، لكنه ما كان ليقدم على أي أمر بالجانب العسكري خاصة دون مشاورة وتدبر ودراسة الاحتمالات كلها، فلم يُعرف عنه الاستبداد بالرأي أو الانفراد بالقرار إيماناً منه بمبدأ الشورى، والتزاماً منه بهدي النبي ﷺ قائد الأمة الأول، الذي كان يشاور أصحابه، وهو نبي يوحى إليه، وتنفيذاً لقول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وقوله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وانطلاقاً من هذه المعاني وترسيخاً لمبدأ المشاورة في جماعة المرابطين قام باستشارة قادته وإخوانه من أهل الدين والرأي قائلاً لهم: «ما ترون فيما كتب هذا الرجل ـ أي ابن عباد ـ؟»[١] قالوا له:

---

(١) الحلل الموشية، ص٤٩.

«أيد الله أمير المسلمين، أما ما ذكرت من استعانة هذا الرجل بك فواجب على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله إعانة أخيه المسلم، وأخرى فإنه لا يحل لنا أن يكون جارنا وبيننا وبينه ساقية ماء فنُفَرده طعمةً للعدو»[1].

وباطلاعه على هذا الرأي تيقن بصحة توجهه وبأن الإحساس بنصرة أهل الأندلس ومجاهدة الطغيان الصليبي عليهم أمر يؤمن به المرابطون ويتحفزون لخوضه، فأخذ يفكر باختيار أفضل الطرق وأصلحها للأمة لتنفيذ هذا المشروع الجهادي الإيماني الكبير، بعيداً عن العاطفة والتهور للوصول إلى نصر حاسم يعتز به الإسلام والمسلمون، ويعيد الحقوق إلى أصحابها، لذلك قام باستشارة ثانية مع أحد كتاب الدولة المرابطية المشهورين بحصافة الرأي وتوقد الذهن، فضلاً عن كونه من أهل الأندلس، وصاحب البيت أدرى بما فيه، فخلا بالكاتب عبد الرحمن بن أسباط وكان أندلسياً من أهل مدينة المَرِيَّة، واستشاره أمير المسلمين فيما عزم عليه من الشروع بتنفيذ عملية الجهاد في الأندلس للاستفادة من آرائه في هذا الباب فأشار عليه عبد الرحمن بن أسباط بقوله:

«. . . واجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم والانتصار له، غير

---

(١) م.ن.

أن لي كلاماً أُنهيه إليكم، فقال له: قل ما عندك يا عبد الرحمن. فقال له: أيد الله الأمير، تعلمون أن الأندلس جزيرة مقطوعة في البحر، يعمر المسلمون منها الثُمُن، وسبعة أثمان يعمرها النصارى وهي ضيقة حرجة، سيَّما لمن دخلها، لا يخرج إلا تحت حكم صاحبها، وإن أنت جُزْتَ إليها، وحصلت فيها ما يكون لك في نفسك شيء، وهذا الرجل الذي استدعاك ما بينك وبينه مَتاتٌ قديم ولا صداقة متصلة، ويُتقى - إذا قضى الله الغرض من العدو - أن يُمسكك بها، والحال كما ترونه، والنظر إليكم، فاكتب إليه: لا يمكنك الجواز إليه إلا أن يعطيك الجزيرة الخضراء، فتجعلَ فيها ثقاتك وأجنادك، ويكون الجواز بيدك متى شئت. فقال له: صدقت يا عبد الرحمن لقد نبهتني على شيء لم يخطر ببالي، وسأكتب له بذلك»[1].

وبالمشاورة تبين ليوسف بن تاشفين أمور جديدة واطلع على توجهات جنده وإخوانه في أمر الأندلس، واعتقد أن عبد الرحمن بن أسباط كان مخلصاً في نصحه لأمير المسلمين وكانت توصياته التي جاءت في نصيحته مبنيةً على أساس تجربته في الأندلس، ولمعرفته بانحطاط الأعراف السياسية لأمراء الطوائف الذين أجهزوا على الخلافة في الأندلس، وفرقوا الصف الإسلامي، وفرطوا بالكثير من حقوق الأخوة وسفكوا دماء الكثير من المخلصين، وشردوا الأبناء البررة الذين

(١) الحلل الموشية، ص٤٩.

استنكروا تلك السياسات، كل ذلك في سبيل بقائهم متربعين على عروشهم.

وسيظهر لنا صدق ابن أسباط في نصحه عندما ننهي الحديث عن معركة الزَّلاَّقة ونزول أمير المسلمين ضيفاً على ابن عباد في إشبيلية! .

لذلك نلاحظ أن يوسف بن تاشفين تنبه لما أشار إليه عبد الرحمن ابن أسباط وأخذ برأيه، ولهذا أمره أن يكتب إلى المعتمد بن عباد بهذا الخصوص فكتب له قائلاً:

رد يوسف بن تاشفين على رسالة المعتمد بن عباد واتخاذ قرار العبور إلى الأندلس:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

«من أمير المسلمين، وناصر الدين، محيي دعوةِ أمير المؤمنين، إلى الأمير الأكرم المؤيد بنصر الله، المعتمد على الله، أبي القاسم ابن عباد، أدام الله كرامته بتقواه، ووفقه لما يرضاه. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فإنه وصل خطابكم المكرم، فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كُربتك، وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمينٌ لشمالك، ومبادرون لنصرتك وحمايتك، وواجب ذلك علينا من

الشرع، وكتاب الله تعالى، وإنه لا يمكننا الجواز إلا أن تُسلِّم لنا الجزيرة الخضراء، تكون لنا، لكي يكون إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فاشهد به على نفسك، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته»[(1)].

ولعل أمير المسلمين من خلال تأكيده على طلب الجزيرة تجنب أي غموض في تعامله مع أمراء الطوائف الذين لا يعملون بقانون ولا يحتكمون إلى شريعة.

فأوضح لابن عباد أن غايته من امتلاك الجزيرة الخضراء (لكي يكون جوازُنا إليك على أيدينا)[(2)].

وتأكيداً لهذا المنهج الواضح طلب منه أن يشهد على نفسه ويبعث العقود المتعلقة بتنفيذ هذا الطلب مع إقرار أمير المسلمين بأن نصرة الأندلس واجب شرعي يدعو إليه الإسلام وحق الأخوة والجوار وأنه لا يطلب لقاء ذلك أي مكسب مادي وأنه يرجو من الله الأجر والثواب.

ويبدو أن هذا الكتاب أرسله أمير المسلمين عندما علم أن سفارة المعتمد غيرُ مخوَّلة بتلبية مثل هذا الطلب، وأن هذا الكتاب جاء بعد مباحثات واسعة مع السفارة الرسمية حول طريقة تنفيذ عملية الإنقاذ، أما

---

(1) الحلل الموشية، ص٥٠.
(2) م. ن.

المساعدة فهي أمر مفروغ منه لأنه واجب إسلامي، أي تقصير فيه يعتبر مخالفة شرعية وخذلاناً لأخوة الدين والعقيدة، وهذا ما يتضح فيما ذكره صاحب كتاب الحُلّة السِّيَراء عندما يتحدث عن هذه السفارة قائلاً:

«فوصل من بطليوس قاضيها أبو إسحاق بن مقانا، ومن غرناطة قاضيها القلعي، واجتمعا في إشبيلية بالقاضي أبي بكر بن أدهم، وانضاف إليهم الوزير أبو بكر محمد بن أبي الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون، وتوجهوا جميعاً إلى ابن تاشفين على شروط لا تتعدى إلى غيرها، ووصلوا إلى الجزيرة الخضراء ـ وعليها يزيد بن المعتمد الملقب بالراضي ـ ثم أجازوا البحر منها واجتمعوا بابن تاشفين مرة بعد مرة، وتفاوضوا في مكان تنزله العساكر فأشار ابن زيدون بجبل طارق، وسُئل الجزيرةَ الخضراء فلم توجد سبيلٌ إليها، فما قوبل بشكر ولا لوم، وأصدر هو وأصحابه دون علم المراد»[1].

ذكرنا سابقاً أن الاستنجاد بالمرابطين أصبح حديث الناس وأمل الجماهير الأندلسية حتى شكل حركة جارفة لا يقف في وجهها شيء إلا أزالته، يؤيدها الفقهاء بنفوذهم المعنوي الواسع، وقد استمرت هذه الحركة بازدياد حتى جرفت في تيارها أمراء الطوائف بضمائرهم الميتة وفتنهم المستمرة، فأشرقت على الأندلس من جديد شمس الإسلام الساطعة بتضحيات وجهاد المرابطين.

---

(١) ابن الأبار، الحلة السيراء: ٢/ ٩٨؛ الحميري، الروض المعطار، ص٨٦.

فما فعله أمراء الطوائف من إرسال السفارات إلى مراكش عاصمة المرابطين لم يكن في أكثر جوانبه منبعثاً عن قناعة تامة، وإنما كان مسايرة للتوجه الشعبي العام، ولامتصاص نقمة جماهير الصحوة الإسلامية التي استيقظت على ضربات النصارى المُبيرةِ وصيحات الجهاد المدوية التي يصرخ بها فقهاء الأندلس منذ زمن طويل.

ويبدو أن هذه الحال منطبقة على المعتمد أيضاً الذي حاول أن يرضي الأندلسيين بسفاراته إلى مراكش، ويستغل استعداد المرابطين للجهاد لإرهاب ألفونسو بهم وبالتالي يَسْلَمُ له العرشُ، وقد أشار إلى هذه الحالة زميل المعتمد أمير غرناطة عبد الله بن بلقين الذي يذكر أن رسل المعتمد قد عادت إلى أمير المسلمين، «تُعْلمه أن يتأهب للجهاد وتَعده بإخلاء الجزيرة الخضراء، وأنه لا يصل إلى سَبْتَة إلا ويضعها في يديه»[1].

وبناء على هذا الوعد قام يوسف بن تاشفين باستنفار المجاهدين في سبيل الله وأخذ بالأُهْبة والاستعداد العسكري وتجميع القوات في مدينة سَبتة نقطة العبور إلى الأندلس، إلا أن المعتمد لم ينفذ ما تعهد به مما اضطر أمير المسلمين إلى إرسال سفارة إلى إشْبِيلية لإعلام المعتمد باستكمال الاستعدادات كافة وبالتالي ضرورة إخلاء الجزيرة الخضراء

---

(١) ابن بلقين، التبيان، ص١٠٢.

لاستقبال المجاهدين، وكـان من أفراد سفارة المرابطين عبد الملك القاضي وابن الأحسن، إلا أن ابن عباد لم يسهّل مهمته، «فأمسكهم بإشبيلية مدة طويلة وأمير المسلمين في ذلك متقلق لورودهم»[١].

والظاهر أن أمير المسلمين كان يتعامل مع سفارات الأندلس بشكل طبيعي وثقة تامة، دون أن يتعرف أساليب أمراء الطوائف السياسية الملتوية التي اعتادوا التعامل بها فيما بينهم، والتي ربما اكتسبوها من نصارى الأندلـس في الشـمال خلال تعاملهم معهم بعد انتهاء عهـد الخلافة.

إلا أنه بعد أن عادت سفارة أمير المسلمين من إشبيلية وبرفقتها رسل من المعتمد يطلبون أن ينتظر المرابطون في مدينة سَبتة لمدة شهر كامل حيث قال له رسل إشبيلية: «تَربَّصْ من سبتة مدةً من ثلاثين يوماً إلى أن نُخلي لك الجزيرة»[٢].

فأجابهم إلى هذا الطلب والتمس لهم العذر، إلا أن هؤلاء الرسل لم يكتفوا بهذا الإقرار من أمير المسلمين بل «سألوه خط يده بالتربص»، لكن يوسف بن تاشفين لم يستسغ هذا الطلب وداخله شيء في أمره حتى جاءه ممن يتفهم طريقة أمراء الطوائف في التفكير، ويعرف نواياهم ففسر سبب هذه المماطلة لأمير المسلمين قائلاً:

---

(١) م. ن.

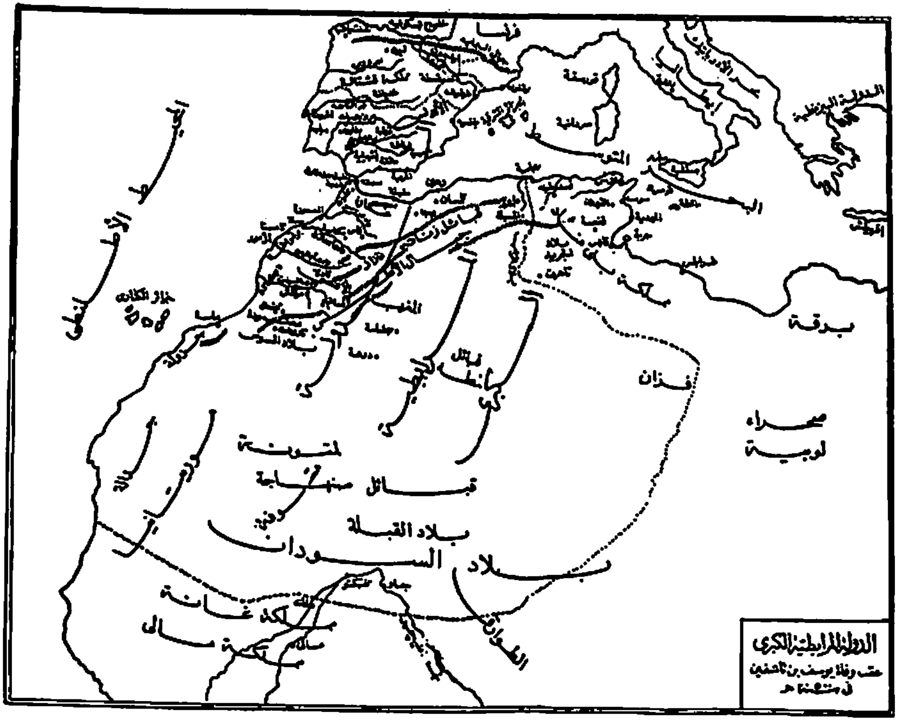
(٢) م. ن.

«لم يجعلك ابن عباد في هذا الالتواء إلا لأنه يريد أن يرسل إلى ألفونش يعلمه بقدومك ولعله يتأتى له منه ما يرغب، ويهدده بك أعواماً فإن فعل استجاش عسكره على الجزيرة ومنعك من الجواز فاسبقه إليها! وإن كان النصراني لا يتأتى له أرسل إليك في الجواز»[1].

ونظراً لهذه الحالة المستجدةِ لم يعد أمام المرابطين سوى تدارس الأمر من جديد ووضع الخطط المناسبة لهذه المرحلة، ولما طرح موضوع الأندلس تبين أن وضعها ينذر بأسوأ الاحتمالات وأن أي تأخير في مساعدتها سيعني التفريطَ بها وضياعَها، فقد كان ألفونسو محاصراً سَرَقُسْطَة وابن رذمير محاصراً مدينة طُرْطُوشَة، والبرهانس أكبر قادة ألفونسو محاصراً بَلَنْسِيَة، ومن قبل سقطت إمارة طُلَيْطُلَة بأيدي النصارى، وأمام هذا الوضع العسكري الخطير، وأمام وفود أهل الأندلس المستمرة إلى أمير المسلمين تطلب منه النصرة، وإلحاح الفقهاء بوجوب فتح باب الجهاد على مصراعيه مع النصارى، اتخذ المرابطون قرار العبور إلى الأندلس والمباشرة بتنفيذ مخطط الجهاد.

* * *

(١) م. ن.



خريطة الأندلس في عهد الدولة المرابطية

الفصل الخامس

العبور الأول إلى الأندلس

ومعركة الزلاقة

الفصل الخامس

العبور الأول إلى الأندلس
ومعركة الزلاقة

ما إن رجع رسل المعتمد إلى الجزيرة الخضراء عائدين من سبتة حتى أُعطيت الأوامر إلى (نحو خمسمئة فارس)[(١)] بالتجهُّز للعبور في أثر الرسل كمقدمة لعبورٍ لبقية الجيش «فلم تصل الرسل إلى الجزيرة آخر النهار إلا والعسكر في أثرهم قد عَدَوا ونزلوا بدار الصناعة، فالتفت القوم إلى خيل قد ضربت محلتها ـ أي معسكرها ـ لم يُدْرَ متى أقبلت ولم يصبح لهم إلا وطائفة أخرى بعدها يزيدون ويترادفون حتى انكمل العسكر على الجزيرة، مع داوود بن عائشة وأحدقوا حواليها يحرسونها»[(٢)].

وقد اتصل قائد مقدمة المرابطين بالراضي بن المعتمد أمير الجزيرة الخضراء يُعلمه بجلية الأمر ويطلب منه إخلاء الجزيرة قائلاً له:

---

(١) م. ن.

(٢) ابن بلقين، كتاب التبيان.

«وعدتمونا بالجزيرة ونحن لم نأت لأخذ بلدة ولا ضرر بسلطان! إنما أتينا للجهاد فإما أن تُخْليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا وإلا فالذي تقدر عليه فاصنع»[1]. وأمام هذا الواقع لم يجد الراضي أمامه سوى مراسلة والده بالحمَامِ الزاجل يُعلمه بآخر التطورات، ولم يجد المعتمد متسعاً من الوقت للقِيام بأي عمل ولم يعد أمامه سوى مواصلة التفاهم مع أمير المسلمين والتخلي عن أي مشروع سياسي جديد ولاسيَّما أنه قد قطع شوطاً كبيراً من التفاهم مع المرابطين، من خلال سفاراته إلى مراكش والتي قوبلت بكل ترحيب، وربما قاد هو إحدى[2] تلك السفارات وعبر بنفسه إلى المغرب وقوبل بتلبية كل رغباته، وفيها عبور المرابطين إلى الأندلس، وقد أرسل أمير المسلمين إلى ابن عباد يعلمه بما صنع ويقول له: «كفيناك مؤونة القطائع وإرسال الأقوات لأجنادنا كما وعدت»[3].

فما كان من المعتمد إلا أن أرسل لابنه الراضي بإخلائها لهم، فدخلها المرابطون وعادت الأمور إلى ما كانت عليه من الصفاء والتوجه نحو الجهاد ضد عدو الأمة المشترك.

فانطلقت كتـائب المجاهدين تجـوز البحر وهي تكبر الله وتهلل

---

(١) م. ن.
(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٣؛ المراكشي، المعجب، ص١٩٠.
(٣) ابن بلقين، التبيان، ص١٠٣.

للفتح القادم تضم أفواجاً من الذين انضموا لدعوة المرابطين، وآمنوا برسالتها الإسلامية الصافية ملبين نداء المجاهد الكبير يوسف بن تاشُفين لنصرة الإسلام والمستضعفين في الأرض ضد طغاة الكفر المتجبرين في الأرض بغير الحق، فقدمت إليه الوفود وتبعته الجنود التي جاءت من بلاد الصحراء والقبلة والزاب والمغرب ممن يعلم بأن الله تعالى قال: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

«وقد أخلص لله تعالى نيته وحقق في ذاته طَوِيَّته، وملأ البحر أساطيلاً وأجاز رَعيلاً رعيلاً، واحتل الجزيرة الخضراء في كتيبته الخضراء المشتملة على اثني عشر ألف راكب من صناديد الأجناد»[1].

دعاء أمير المسلمين عندما ركب البحر:

وكان في صحبة أمير المسلمين أعداد من قادة المرابطين وأنجادهم وصلحائهم فلما ركب السفينة واستقر على ظهرها كان البحر هائجاً فرفع أمير المسلمين يديه ودعا الله تعالى قائلاً:

«اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيراً وصلاحاً للمسلمين فسهِّل عليَّ جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعِّبه عليَّ حتى لا أجوزَه، فسهَّل الله عليه الجواز في أسرع ما يكون»[2].

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٩٠.
(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٣.

وكان أمير المسلمين قد أمر بعبور الجمال من صحراء المغرب إلى الأندلس لأغراض عسكرية.

«فعبر منها ما أغصَّ الصحراء، وارتفع رُغاؤها إلى عَنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قطُّ جملاً ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها، وكانت تذعر منها وتقلق وكان ليوسف بن تاشفين في عبورها رأيٌ مصيب: كان يُحدق بها معسكره وكان يُحضرها الحرب؛ فكانت خيل الإفرنج تُحجم عنها»[1].

وبهذا تكون قوة الجهاد المرابطية قد استكملت عبورها وأنهت الشوط الأول من الاستعدادات وأصبحت قريبة من أرض المعركة إذ لم يعد يفصل بينهم وبين النصارى فاصل، فالقوات الإسبانية كانت تُغير على أي مكان في الأندلس وتَعيث وتخرب ثم تعود إلى ألفونسو «فلم يكن في الجزيرة من يلقى أقل كلب من كلابه»[2].

ولهذه الأسباب وزيادة في التحسب العسكري الذي اشتُهر به يوسف بن تاشفين أمر بتقوية حصون الجزيرة الخضراء وشحنها بالسلاح والذخيرة والطعام وتشديد الحراسة عليها؛ لتكون قاعدة حصينة ونقطة اتصال أمينة بين العُدوتين: المغرب والأندلس.

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٧/ ١١٦.
(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٨٨.

استقبال المرابطين في الأندلس:

منذ زمن ومسلمو الأندلس الأتقياء يبحثون عن مخرج لما حلَّ بهم من المحنة والفتن والبلاء، وكان علماؤهم يجوبون البلاد داعين إلى الالتزام بتعاليم الشرع ومحاربة المعاصي والفجور والتحصُّن بالتقوى والخوف من الله تعالى، كما كان الأجداد في أيام الإسلام الزاهرة قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وكان على رأس هؤلاء العلماء الدعاة وفي مقدمتهم: الشيخُ أبو الوليد الباجِي المتوفى عام ٤٧٤هـ، الذي سار بين أمراء الطوائف يدعو إلى الوحدة ولمِّ الشمل والتمسك بأهداب الدين، والتحول عن حالة المجون والتحلل، والعودة إلى حياة الجهاد والعمل على تغيير هذه النفوس التي أماتتها الشهوات والمعاصي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ودعا الشيخ الباجي في جولاته شعوب الأندلس إلى الله تعالى والوقوف عند حدوده، واغتنام الحياة الدنيا لبناء الآخرة، وكان ينشدهم من شعره في هذا المعنى قوله:

إذا كنتُ أعلم علماً يقيناً ... بأنّ جميع حياتي كساعةْ
فَلِمْ لا أكونُ ضنيناً بها ... وأجعلها في صَلاحٍ وطاعةْ

إلا أن هذه الدعوات وأمثالها لم تؤثر في حكام الأندلس ولكنها

صقلت كثيراً من النفوس التي أخذت تتطلع إلى رايات الإسلام والجهاد لتعيش في ظلالها وتلبي نداءها.

فكانت راية المرابطين هي ضالَّتَهم التي يَنشدون، ويوسف بن تاشفين هو القائد المأمون على قيادة الأمة في مثل تلك المرحلة، لذلك كان أهل الأندلس مستبشرين بوصول يوسف وجنده المرابطين إلى بلادهم، وهم على أعلى درجات الاستعداد للانخراط في صف المجاهدين، مما أمَّن دعماً قوياً لحركة الجهاد التي أصبحت تقف على أرضية صُلْبةٍ، تساندها هذه القيادة الجديدة التي وجد الأندلسيون عزتهم وكرامتهم تحت رايتها.

وبهذا مُهدت السبيل أمام المرابطين في الأندلس، وفُتحت لهم القلوب والضمائر. «للذي شاع من خبرهم وإقبالهم على طلب الآخرة وحكمهم بالحق»[1].

لذلك كان الاستقبال صادقاً والفرح عاماً، والاستعداد عالياً، فما إن علم المعتمد بعبور المرابطين حتى أوفد ابنه للقائهم بينما اشتغل هو بمتطلبات الجيش التموينية «وأمر عُمَّار البلاد بجلب الأقوات والضيافات، ورأى يوسف من ذلك ما سرَّه ونشَّطه»[2].

(١) ابن بلقين، التبيان، ص١٠٤.
(٢) الحميري، الروض المعطار، ص٨٦.

ثم إن المعتمد تفقد جنده وأعطاهم الأمر بالتهيؤ والاستعداد للالتحاق بركب المجاهدين، ثم سار هو لاستقبال يوسف بن تاشفين يحفه موكب رسمي في مئة فارس من وجوه أصحابه حتى اقترب من «محلة يوسف فركض نحو القوم وركضوا نحوه فبرز إليه يوسف وحده والتقيا منفردين وتصافحا وتعانقا، وأظهر كل واحد منهما المودة والخلوص فشكرا نعم الله وتواصيا بالصبر والرحمة، وبشَّرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر، وتضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه مقرباً إليه»[1].

وهكذا تحققت أماني أهل الأندلس والمسلمين عامة بوحدة الصف والاستعداد للتضحية ومواجهة الأعداء، وبدا لأهل الأندلس الأمل يلوح بالأفق قريباً منهم يحمل تباشير الخلاص من حياة الذل والفرقة التي عاشوها أيام أمراء الطوائف، فنهض فرسانهم ورجالهم للجهاد، كما كانوا أيام الخلافة الأموية يستعدون للجهاد في صائفة وشاتية، وخرج إليه أهل الجزيرة بما عندهم من الأقوات والضيافات فامتلأت الرحبات والمساجد بالمتطوعين[2]، «ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر وأعان وخرج وأخرج»[3]، ولما تمت

---

(١) م. ن.

(٢) المقري، نفح الطيب: ٤/ ٣٦٢.

(٣) الحميري، الروض المعطار، ص٨٧.

هذه الاستعدادات وتهيأ المجاهدون للتحرك يقودهم أمير المسلمين بحنكته وإيمانه العميق.

«ركب ابن عباد ودار بالمحلة ونظر إلى المعسكر، فرأى عسكراً نقياً ومنظراً بهياً، فلم يشك أن ذلك الجمع لا يخلو من بركة، وأن اللعين أذفنش لا محالة مهزوم فكان كما كان، فحمِد الله سبحانه وأثنى عليه، وسجد لله سجدة وعفَّر وجهه في التراب تواضعاً لله سبحانه وتعالى»[1].

وقد أشار ابن عباد على أمير المسلمين بالتوجُّه إلى إشبيلية ليستريح من وَعْثاءِ السفر فأبى عليه وقال: «إنما جئت ناوياً جهاد العدو فحيثما كان العدو توجهتُ وجهَه»[2].

فكانت هذه الكلمات درساً بليغاً في الحزم والعزيمة على بلوغ الهدف، إذ إن أمير المسلمين كان يزيد على السبعين من العمر، ويقطع كل هذه المسافات ويتحمل كل أعباء القيادة وما يتعلق بها من مسؤوليات ومخاطر وإعداد وتنفيذ، في أرض وَعِرَة غريبة عليه، في كل هذه الظروف يُدعى لتناول قسطاً من الراحة في قصور المعتمد بن عباد الباذخة في الأناقة والفخامة والجمال فيأبى أن يشغله شاغل عن أداء الرسالة التي نذر نفسه من أجلها، وهي الجهاد في سبيل الله وعزة الإسلام، فكيف يقبل أن يرتع في حياة القصور، كما رتع أمراء الطوائف

(١) الحلل الموشية، ص٥٢.
(٢) المراكشي، المعجب، ص١٩٢.

والعدوُّ يحاصر المعاقل والبلاد ويسفك دماء المسلمين، فيا له من درس يصور شدة الإحساس والشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، وأمام المسلمين! يتوجب على كل من يحمل على عاتقه حالة من حالات المسؤولية أو القيادة أن يستقي منه العبرة في حسن الأداء والتحمل للأمانة؛ إذ لا راحة ولا انتظار مع وجود المهامّ والواجبات، ولا غفلة تفسح للعدو أية فرصة للنيل من جبهة الحق والإيمان، ومن هنا كان أمير المسلمين ينظم قلادة الظفَر المؤزّر الذي ازدانت به الأندلس في يوم الزلاّقة الخالد.

معركة الزّلاّقة عام ٤٧٩ للهجرة:

تمهيد: مر بنا أن يوسف بن تاشفين كان يكرم وفود الأندلس المستعينة به على أعدائها وكان يقول: «أنا أول منتدَبٍ لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي»[(١)].

ومن هذا المنطلق كان هو على رأس الجيوش الإسلامية المتجحْفِلة في الجزيرة الخضراء، التي وهبها المعتمد للأمير يوسف لتكون مقراً لجنده، ومركز اتصال مع بلاد المغرب وإمداد المرابطين، وخطاً مأموناً للرجعة.

وذكرنا أن القوات المرابطية كانت تتحشد في سَبتة[(٢)]، ثم تجوز

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ١٩١.
(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٣.

البحر إلى الجزيرة الخضراء حتى علت صيحة الجهاد، ولم تتخلف قبيلة من قبائل الصحراء وبلاد القبلة التي تمثل صُلْب الجيش المرابطي عن المساهمة في المعركة المصيرية الكبرى.

وقد ساهم الفقهاء والدعاة المسلمون بقسط وافر في توحيد الكلمة ورصِّ الصفوف، وبثِّ روح الجهاد والتضحية، عندما كانوا يجوبون البلاد يعظون الناس ويستنفرون الهمم حتى مهدوا السبيل أمام القوات القادمة من المغرب. . . ولهذا استقبلوا في الأندلس بكل حفاوة وتكريم «وخرج إليه أهل الجزيرة بما عندهم من الأقوات والضيافات وامتلأت المساجد والرحبات بضعفاء المتطوعين. . .»[1] مستبشرين باستعادة ما سلب من حقوق وما هدر من كرامة، وبالنصر تحت راية أمير المسلمين، الذي ما كانت قواته تصل إلى إشبيلية حتى خفَّ إليه الناس متطوعين، من سائر بلاد الأندلس للمشاركة في الجهاد مثلما فعل معه الصحراويون «كل صُقع من أصقاعه رابطوا وصابروا»[2].

وانضمت قوات المعتمد بن عباد أمير إشبيلية، وبعض قوات ابن صُمادح أمير (المرِيّة) وعبد الله بن بُلّقين أمير غَرناطة، وأخوه تميم أمير (مالِقَة) إلى معسكر المرابطين وقدم ابن مسلمة أمير الثغر الأعلى وابن ذي النون وابن الأفطس[3] فأمرهم أمير المسلمين أن يكونوا في معسكر

(١) المقري، نفح الطيب: ٤/ ٣٦٢.
(٢) م. ن.
(٣) هو المتوكل على الله عمر بن المظفر بن الأفطس أمير بطليوس.

ابن عباد، فأصبح المسلمون معسكرين معسكر أهل الأندلس ومعسكر المرابطين[1].

تعبئة القوات الإسلامية:

أصبح القائد العام لقوات الأندلس المعتمد بن عباد ثم وزع المسلمون جيشهم على النحو التالي:

المقدمة: يقودها المعتمد بن عباد يؤازره أبو سليمان داوود بن عائشة في عشرة آلاف فارس من المرابطين.

المَيْمَنة: يقودها المتوكل على الله عمر بن الأفطس أمير بطليوس.

المَيْسَرة: فيها أهل شرق الأندلس.

الساقَة: فيها سائر أهل الأندلس.

القوة الاحتياطية: يقودها أمير المسلمين وهي مؤلفة من نخبة من أنجاد المرابطين وأهل المغرب وحرسه الخاص.

انطلق الجيش الإسلامي باتجاه العدو، واستمر في سيره حتى مدينة بطليوس حيث استقبلهم المتوكل بن الأفطس على مقربة منها وقدم لهم المؤن والضيافات اللازمة.

وانتهى إلى سهل يقع شمال بطليوس على مقربة من حدود البرتغال

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٤.

الحالية وتسميه الرواية الإسلامية (بالزَّلاّقة)[1] ويسميه الإسبان (sagajas) وفي سـهل الزلاقة تحققت معجزة وحدة ملوك الطوائف، التي طالما انتظرها المسـلمون فاجتمع شمل أهل الأندلس بعد تفرقهم، وتألفت القلوب على الإيمان والجهاد، وهذا شأن أمتنا في كل محنة، وقد أراد يوسف بن تاشفين رائد هذه الحياة الجديدة التي دبت في الأمة، أن يبقى شعور المودة والمحبة قائماً بين جنده وإخوانه الأندلسيين فعاقد رؤساء الأندلـس على أن يكونوا يداً واحدة وهذا ما يذكره شاهد عيان لتلك الأحداث وهو الأمير عبد الله بن بلقين أمير غرناطة بقوله: «وعاقدنا أمير المسلمين على أن تصل الأيدي إلى غزو الروم بمعونته، وألا يعرض لأحدنا في بلده ولا يقبل عليه رعيته بمن يروم الفساد عليه»[2].

وبهذه السياسة حصل يوسف بن تاشفين على ثقة أمراء الأندلس وملك قلوب الناس من أفراد الشعب، ومما زاد الناس حباً له وتعلقاً به ما كانوا يشاهدونه من زهده وصدق جهاده وإقباله على طلب الآخرة، مما جعل قدومه إلى الأندلس منّةً من الله تعالى عظُمت لديهم، وقد وصف ابن بلقين هذه الحالة في كتابه التبيان بقوله:

«والعجب في تلك السفرة من حسن النيات وإخلاص الضمائر، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك»[3].

---

(١) عنان، دول الطوائف، ص٣٢١.

(٢) ابن بلقين، التبيان، ص١٠٣.

(٣) م. ن.

وبهذه النفـوس الصافية والقلوب المتآلفـة، والتوجـه إلى طلب الآخـرة والرضا بمـا عند الله تعالى، تمتع الجيـش الإسـلامي قُبيـل المعركـة. . . معنويـات عاليـة ومـودة بين أفراد الجيـش. . . وثقـة بـالقيـادة. . . حتـى «أشـربـت قلـوب أهـل الأنـدلـس حـب يـوسـف وأصحابه»(١).

وبعد هذا الاستعراض الذي تبين لنا فيه عمق الروابط وحرارة المـودة وروح الأخـوة التـي انتشـرت فـي صفـوف المسلميـن، مـن المستحسن أن نستعرض الروايات التي تشير إلى حجم القوات الإسلامية وتعداد الجيش المرابطي والأندلسي.

تعداد الجيش الإسلامي:

اختلفت الروايـات حول هـذا الموضوع وأصبح مـن الصعب الوصول إلى رقم يحدد عدد المشاركين في المعركة من كلا الفريقين ومن كل فريق على حدة؛ لذلـك لا بد من اسـتعراض أكثـر الروايـات التي تتحدث عن أعداد المشاركين في معركة الزلاقة، وذلك للوصول إلى أقرب رقم حقيقي في هذا الباب.

وقد ذكر صاحب (الحلل الموشية) المشاركين في موقعة الزلاقة من المرابطين والأندلسيين فقال:

---

(١) المراكشي، المعجب: ٣/ ٢٠٠.

وكان بها من فرسان المسلمين ـ الأندلسيين ـ أربعة وعشرون ألف فارس ما بين دارع وحاسر، ومن المرابطين وأهل المغرب ما ينيف على أربعة وعشرين ألفاً[١].

وقد يكون هذا الرقم هو الأقرب للحقيقة، علماً أنه أكبر تقدير لعدد الجيش الإسلامي في الروايات التي اطلعت عليها. أما صاحب (المعجِب) فإنه عندما يتحدث عن عبور الجيش المرابطي يذكر أن يوسف بن تاشفين عبر بسبعة آلاف من جنده[٢]... ثم تكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزقة زهاء عشرين ألفاً[٣]...

ويتحدث ابن الكردبوس عن العبور فيقول: إن يوسف بن تاشفين عبر إلى الأندلس بكتيبة الخضراء المشتملة على اثني عشر ألف راكب من صناديد الأجناد[٤]...

فالجيش الإسلامي إذاً في أكثره (٤٨) ألفاً، وفي أقله عشرون ألفاً، وفي كلا العددين هو أقل من الجيش النصراني الذي يفوق عدد المسلمين. «واتفق الكل أن عدد المسلمين أقل من عدد الكفار»[٥].

---

(١) الحلل الموشية، ص٥٦.
(٢) المراكشي، المعجب، ص١٩١.
(٣) م. ن، ص١٩٣.
(٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٩٠.
(٥) المراكشي، المعجب، ص١٩١؛ السلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى: ٢/ ٤٣.

تعداد جيش النصارى:

مثلما اختلفت الروايات في تحديد عدد الجيش الإسلامي، كذلك الشأن في عدد جيش الصليبيين مع اتفاق الجميع على أن عددهم كان أكثر من عدد المسلمين.

يذكر صاحب (المعْجِب) عن تأهب ألفونسو السادس قوله: «وكان الأذفنش ـ لعنه الله ـ قد استنفر الصغير والكبير، ولم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه، وجاء يجر الشوك والشجر»[1]. وتذكر رواية أخرى أنه «قد وصل في ستين ألفاً من أنجاد أبطاله»[2].

ويروي ابن الأثير أن عساكر ألفونسو كانت خمسين ألفاً[3].

أما صاحب (الحلل) فيقول: «وتأهب للقاء المسلمين واحتفل في الاستعداد وخرج ومعه ثمانون ألف فارس لابِسين الدروع دون غيرهم»[4].

وتذكر إحدى الروايات أن ألفونسو السادس «برز بالمختار من جنوده، وأنجاد جموعه على باب دربه وترك بقية جموعه خلفه...

---

(١) المراكشي، المعجب: ٣/ ١٩٣.
(٢) ابن الكردبوس، نص تاريخ الأندلس، ص٩٤.
(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠/ ١٥٣.
(٤) الحلل الموشية، ص٥٦.

فالمقلل يقول: «المختارون أربعون ألف دارع ولكل واحد أتباع، وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ويرون أنهم أكثر من ذلك كله»[1].

أما ابن أبي زرع فيروي في كتابه (روض القرطاس)، أن ألفونسو السادس كان في «ثمانين ألف فارس ومئتي ألف راجل»[2].

وهناك روايات أخرى لا تختلف عما مر بنا، يظهر من خلالها أن عدد الصليبيين المشاركين في معركة الزلاقة كان يفوق المسلمين عدداً وعدة.

استعدادات ألفونسو:

جاءت أنباء عبور المرابطين إلى ألفونسو السادس وهو يشدد الحصار على مدينة سَرَقُسْطَة، مما اضطره إلى رفع الحصار عنها، والتفرغ لإعداد الخطط وتجميع القوى، فأرسل إلى ابن ردمير الذي كان يحاصر مدينة طُرْطُوشَة، وإلى البرهانس القائد القشتالي الذي كان يحاصر مدينة بَلَنْسِيَة، فأتوه بجيوشهما وبعث إلى قَشْتالة وجليقية وليون فأتى من تلك البلاد من حشود الروم أمم لا تحصى[3].

واستمر في استنفار الأمم النصرانية وحشد قواها فدوت أصوات

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٤/ ٣٦٣؛ السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٤٣.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٧.

(٣) المصدر السابق، ص٩٤.

استنجاده في أوروبة في وقت كانت الكنيسة تفرض هيمنتها على كل أرجائها بما في ذلك الكنيسة الإسبانية. مما وفر أفضل الأجواء لاستجابة النصارى لنداء ألفونسو.

«فخف الفرسان من إيطالية ومن وراء جبال البرانس»[1]. وأخذت النجدات تتوافد إلى قَشْتالة حتى استكمل ألفونسو استعداداته العسكرية كافة، فسار مزهواً بتفوقه في العدة والعدد «وارتقى ربوة مع جماعة من زعماء قومه ليبصر أعداد جيوشه فأعجبه ما رأى من كثرتهم ولمعان دروعهم فقال لابن عمه غرسية: هذا اليوم لنا فيه الغلبة على المسلمين»[2].

وبعد أن أتم تفقد قواته تابع سيره باتجاه بطليوس حيث سهل الزلاقة وجيش المسلمين، وكان ألفونسو السادس يظن أن المعركة محسومة له لا محالة اغتراراً منه بكثرة جنوده، فكان دائماً يقول: «بهؤلاء أقاتل الإنس والجن وملائكة السماء»[3].

وجاء يجر الشوك والشجر، وإنما كان مقصوده الأعظم قطع تشوف المرابطين عن الأندلس[4].

---

(١) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٤٠٦.
(٢) المقري، نفح الطيب: ٤/ ٣٦٣.
(٣) الحلل الموشية، ص٥٩.
(٤) المراكشي، المعجب: ٣/ ١٩٣.

اختيار يوسف بن تاشفين سهل الزلاقة مكاناً للمعركة:

إن اختيار سهل الزلاقة مكاناً للمعركة جاء بعد تدبر وتخطيط من كلا الفريقين ولم يكن للمصادفة فيه أي دور.

وأما اختيار مدينة بطليوس من قبل المسلمين والتوقف عندها فقد جاء بأمر من يوسف بن تاشفين القائد العام للجيش الإسلامي ويمكن الاعتقاد أن يوسف بن تاشفين كان يريد استدراج الجيش النصراني وإخراجه من مواقعه الحصينة ومن ثم قتاله على أرض يجهلها هو، بينما هي معروفة لدى المسلمين.

ولعل لهذا التدبير ما يبرره لدى أمير المسلمين، فهو جديد على أرض الأندلس التي كانت مسرحاً للقتال والفتن بين أمراء الطوائف الذين أصبحوا يشكلون نصف الجيش الإسلامي وبالتالي من الصعب التوغل في أرض الأعداء وهو لا يعرف من له ومن عليه من هؤلاء الأمراء، يتبين لنا ذلك واضحاً في حديث الأمير عبد الله بن بلقين كونه أحد المشاركين في تلك الوقعة، وقد جاء قوله وهو يتحدث عن ألفونسو:

«وساقه القدر إلى أن توغل في بلاد المسلمين وأبعد عن أنظاره ونحن بإزاء المدينة متربصون؛ إن كانت لنا فبها ونعمت، وإن لم تكن كانت وراءنا حِرْزاً ومَعْقِلاً نأوي إليها وأمير المسلمين يدبر هذا الأمر بحسن رأيه، ويلتوي عسى أن تكون الملاقاة بتلك الناحية، دون أن يحوَج إلى التوغل في بلادهم... وهم كما دخلوا الأندلس لا يعرفون

من لهم ومن عليهم»[1].

وبهذا التدبير يتبين لنا جانب من جوانب شخصية يوسف بن تاشفين القيادية ونضج تخطيطه العسكري حيث تمكن من استدراج خصمه وَفْقَ مخطط محكم ومرسوم إلى المكان الذي اختاره وعينه. وإضافة لما حققه مخطط يوسف من حرمان خصمه من القلاع والحصون التي يحتمي بها، كلَّفه تحمل وعثاء السفر وأعباء التنقل حتى كَلَّ جنده وأثقلهم السلاح من بعد المسافة.

اختيار ألفونسو مكان المعركة:

مثلما اختار يوسف بن تاشفين سهل الزلاقة مكاناً للقاء عدوه تطبيقاً لخطة عسكرية، كذلك فعل ألفونسو باختياره لهذا المكان؛ إذ توخى مهاجمة خصمه في أرضه، بعد مشاورات ومباحثات مع قادته اتفقوا فيها على السير إلى سهل الزلاقة وذلك لإظهار الجرأة والتأثير على معنويات المسلمين، وللتوغل في أرض المسلمين للمبالغة في العبث والتخريب بعد النصر كما كانوا يخططون. وواضح أن هذه الخطة جاءت بعد دراسة وتروٍّ من قبل النصارى وهي خطة ذات تأثير فعال لو تم لهم ما يدبرون.

وقد برر ألفونسو السادس لخاصته وهيئة حربه اختياره هذا بقوله:

---

(١) ابن بلقين، التبيان، ص١٠٥.

«إني رأيت أني إن مكنتهم من الدخول إلى بلادي فناجزوني فيها وبين جُدُرِها، وربما كانت الدائرة علي، يستحكمون البلاد ويحصدون من فيها في غداة واحدة، ولكني أجعل يومهم في حرز بلادهم فإن كانت علي اكتفوا بما نالوه ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي وجَبْرٌ لمكاسِري، وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفتُ أنا أن يكون فيَّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها.

ثم برز بالمختار من جنوده وأنجاده... وترك بقية جموعه خلفه وقال حين نظر إلى ما اختاره منهم: **بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء!...**»[1].

وتطبيقاً لهذه السياسة اعتزم ألفونسو أن يلقى المسلمين في أرضهم حتى لا تخرب بلاده إذا وقعت به الهزيمة وسار على رأس القوات الصليبية المتحدة وهو واثق من تفوق قواته في العدد والعدة والكفاية الفنية[2].

تبادل الرسل قبيل المعركة وتحديد يوم القتال:

من الواضح أن يوسف بن تاشفين كان قائداً للجيش الإسلامي المتحد من الأندلسيين والمرابطين من أهل المغرب، لذلك فهو يمثل

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٤/ ٣٦٣؛ السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٤٢.
(٢) عنان، دول الطوائف، ص٣٢٢.

الجانب الإسلامي خير تمثيل، والتزاماً بتعاليم الإسلام التي توجب الوفاء بالعهود والتمسك بأوامر الدين ونبذ الغدر والخديعة في التعامل، فضلاً عن أن ابن تاشفين كان يقود حركة دينية ترفع راية الإسلام وشعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، توجب عليه إبلاغ عدوه بمبادئ دعوته وتخييره بين الإسلام أو الجزية أو الحرب.

لهذا أرسل يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو السادس يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب عملاً بأحكام السنة، وجاء في رسالة يوسف إلى ألفونسو قوله:

«بلغنا يا أذفنش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا، فعبرنا إليك وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك، ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠]»[١].

ولما وصل كتاب ابن تاشفين إلى ألفونسو لم يستجب له وأصر على طغيانه، بل إنه داخله الكبر وأدركته الأنفة، وقال للرسول: «إن صاحبكم يوسف بن تاشفين قد تعنى من بلاده وخاض البحور وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعباً أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم»[٢].

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٤/ ٣٦١.
(٢) م. ن: ٣/ ٣٦٣.

كما أن ألفونسو شعر بإهانة وجهت إليه[1] من زعيم المرابطين في معتقداته الدينية عندما عرض عليه أن يهجر عقيدته أو يدفع الجزية وارتحل ألفنش حتى نزل بطليوس ونزل يوسف بموضع يعرف بالزلاقة[2] من أحواز بطليوس، وبين المسلمين ومعسكر الروم نهر بطليوس فرع من وادي يانة المسمى اليوم (جريرو)[3].

وكان معتاداً في مثل هذه الحالات واستناداً إلى بعض الأعراف المتبعة في تلك العصور أن يحدد يوم المعركة بموافقة الطرفين، وكان وصول ألفونسو إلى سهل الزلاقة في الأسبوع الثاني من شهر رجب من عام ٤٧٩هـ.

فأصبح وقد أخذ المسلمون مَصافَّهم، فَكَعَّ ألفونسو ورجع إلى إعمال المكر والخديعة فعاد الناس إلى محلاتهم وباتوا ليلتهم ثم أصبح يوم الخميس فأرسل ألفونسو يقترح تحديد يوم الإثنين ليكون يوم اللقاء. ويبدو أن المسلمين ومع إحساسهم بأن ألفونسو إنما أراد من ذلك الغدر، إلا أنهم وافقوا على هذا الاقتراح بعد أن ضاعفوا الحراسة وأخذوا الاحتياطات اللازمة، وبثوا عيونهم وطلائعهم يترصدون أي حركة للعدو، وهذا ما يؤكده أمير المسلمين في رسالته التي بعث بها إلى

---

(١) آفاق عربية، مجلة: العدد ١٢ عام ١٩٨٣م، ص١١.
(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٤.
(٣) عنان، دول الطوائف، ص٣٢٢.

المعز بن باديس صاحب أفريقية وذلك بعد نصر الزلاقة وجاء فيها:

«فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة يوم الإثنين. . . وقال ألفونسو: الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي معسكرنا منهم خلق كثير، والأحد عيدنا فافترقنا على ذلك، وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه، وعلمنا أنهم أهل خداع ونقض عهود فأخذنا أهبة الحرب لهم وجعلنا عليهم العيون»[1]، وقد حدث ما توقعه المسلمون فإنه ما كاد يتنفس صبح يوم الجمعة حتى زحف النصارى ناكثين العهود والمواثيق التي قطعوها على أنفسهم عندما اختاروا يوم الإثنين ليكون يوماً للقاء، ولكنَّ الله موهن كيد الكافرين.

وبهذا لعلنا نكون قد ألممنا ببعض الجوانب التي أحاطت بالظروف والملابسات التي أوجبت تحديد يوم الزلاقة.

الحالة النفسية في معسكر ألفونسو قبيل المعركة:

جرت الاستعدادات في المعسكرين: الإسلامي والنصراني بكل أشكالها، ومن ذلك الإعداد النفسي والتعبئة المعنوية والحث على الصبر والثبات والتحريض على القتال مما كان ينبئ بقيام مواجهة هائلة، لما كان يُكنّ كل من الفريقين من مشاعر تجاه الجانب الآخر.

فالجانب الإسلامي يدافع عن وجوده ودينه وممتلكاته، أما الجانب

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٧.

النصراني فكان يرفع شعار الاسترداد وتخليص إسبانية من أيدي المسلمين، فضلاً عما يمنّي به النفس من الغنائم والحصول على قلاع وحصون جديدة وأراض خِصبة بما فيها من عاملين، يزيد في إغرائه ما اعتاد عليه من النهب والسلب من دون أي رادع أمام ضعف موقف رؤساء الطوائف. فكانت الاستعدادات في ذلك المعسكر واسعة يظهر فيها التصميم على القتال، والعمل على إحراز النصر بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة بما في ذلك الغدر ونقض المواثيق، وهما خُلُقان جُبل عليهما أهل الغرب إلى اليوم، وكان لرجال الكنيسة دور بارز في تحريض النصارى ورفع معنوياتهم لمواجهة المسلمين «وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صلبانهم ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على الموت»[1] ووعظوا جندهم ومنَّوهم بالغنائم والخيرات التي سيحصلون عليها وحثوهم على الاستماتة لاسترداد إسبانية واستباحة بلاد المسلمين.

وهكذا كانت الاستعدادات على أقصاها في معسكر ألفونسو، وكانت آمال النصارى كبيرة، ومعنوياتهم عالية لما بذل من جهد إعلامي واسع، ترك أثره في النفوس التي يزيد من ثقتها ما تمتلكه من تفوق في العدد والعدة، وكان ألفونسو يتفقد جنده ويستعرض قواته، فيرى من الكثرة والاستعداد ما يزيده غروراً على غروره، وهو الذي يأخذ الضريبة من المسلمين في الأندلس منذ عدة سنين، فكانت حالة التفوق المادي

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٤/ ٣٦٣.

تنطبع في نفسه وتترك أثرها في كل تصرفاته وتطلعاته وأحلامه وقد روي أن ألفونسو شاهد رؤيا «في نومه كأنه راكب فيلاً يضرب نقيرةَ طبلٍ، فهالتْه الرؤيا وسأل عنها القساوسة والرهبان فلم يجبه أحد. . . فدل على معبر فسرها له استناداً إلى كتاب الله تعالى وقال: إنها تدل على بلاء عظيم ومصيبة فادحة. . . وتفسيرها من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]. إشارة لجيش أبرهة الحبشي الذي غزا مكة وبلاد العرب فأبيد حوالي عام ٥٧٠م[١].

وأما ضربة النقيرة، فتأويلها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: ٨ ـ ٩]. لكن ألفونسو لم يعبأ بهذه الحالة النفسية لما كان يتمتع به من طغيان وزاده تفوق قواته على ذلك غروراً حتى إنه قال لمعبر الرؤيا كما روى المقري:

«بهذا الجيش ألقى إلـه محمد صاحبِ كتابكم»[٢].

وبهذه العنهجية كان ألفونسو يتعامل مع المسلمين في الأندلس «وانتمى ألفنش انتماء الجبابرة وأنزل نفسه منازل القياصرة وداخله من الإعجاب ما احتقر به كل ماشٍ على التراب»[٣].

---

(١) محمد رضا، محمد رسول الله ﷺ، ص١٧.
(٢) المقري، نفح الطيب: ٤/ ٣١٣؛ السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٤٣.
(٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٨٨.

الحالة النفسية في المعسكر الإسلامي:

كان لعبور يوسف بن تاشفين أثر طيب في نفوس الأندلسيين إذ ارتفعت معنوياتهم وترسخت الثقة في نفوسهم، ورأوا أن هذا العبور منَّة من الله تعالى، لما يعلمون من أخبار عن جهاد المرابطين وتمسكهم بالحق وإقبالهم على طلب الآخرة، وقد نفحت هذه المعاني السامية صفوف الأندلسيين بأريجها؛ فوطَّنوا أنفسهم على الصبر والثبات وقد نوَّه ابن بلقين بهذه الحالة فقال:

«فمن عاش منا كان عزيزاً، تحت ستر وحماية، ومن مات كان شهيداً، والعجب في تلك السفرة من حسن النيات وإخلاص الضمائر...»[1].

وقد ساهم في نشر هذه الروح الجديدة ما قام به الوعاظ والخطباء من حثِّ الناس على الثبات أمام الزحف، والترغيب بالشهادة وما وعد الله به الشهيد من الخلود في الجنان، فتضاعف الاستعداد في صفوف الجند، وبات الناس الليلة التي قُبيل يوم الزلاقة على أُهْبَةٍ واحتراس للذي بلغهم من استعداد معسكر النصارى.

«وبعد مضي جزء من تلك الليلة انتبه الفقيه الناسك أحمد بن رميلة القرطبي ـ وكان في معسكر المعتمد بن عبَّاد ـ فرحاً مسروراً يقول إنه

---

(١) ابن بلقين، التبيان، ص١٠٤.

رأى النبي ﷺ ويبشره بالفتح والشهادة في صبيحة غدٍ وتأهَّب ودعا ودهَّن رأسه وتطيَّب، وانتهى ذلك إلى ابن عباد فبعث إلى يوسف فخبره بها تحقيقاً لما توقعه من غدر ابن فردلند فحذروا أجمعين ولم ينفع ابن فردلند ما حاوله من الغدر»[1].

وفي فجر صباح الجمعة زحف ألفونسو بجيشه على المسلمين ناكثاً بوعده فكانت الزلاقة.

تعبئة الجيش الإسلامي لخوض المعركة:

عسكر الجيشان الإسلامي والنصراني كلٌّ تجاهَ الآخر، لا يفصلهما سوى نهر وادي بيرا وهو فرع صغير من وادي يانة الممتد ما بين بطليوس وماردة[2] وكان الجيشان في حالة استنفار تام وقد انتهى ترتيب القوات الإسلامية على الشكل التالي:

- الجناحان: وكان بهما ملوك الطوائف[3].

- الميمنة: يقودها المتوكل بن الأفطس ملك بطليوس.

- الميسرة: يشكلها أهل شرق الأندلس.

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٤/ ٣٦٥.
(٢) عنان، دول الطوائف، ص٢٣٥.
(٣) المصدر السابق، ص٣٢٢.

ـ المقدمة[1] : يقودها المعتمد بن عباد يؤازره أبرع قواد المرابطين أبو سليمان داوود بن عائشة على رأس عشرة آلاف من فرسان المرابطين، وكان في المقدمة وحدات الفرسان الثقيلة التي كان لها دور فاعل وأساسي في سير المعركة وامتصاص زخم الهجوم العنيف.

ـ القوة الاحتياطية: يقودها أمير المسلمين ومعه نخبة من أنجاد المرابطين وحرسه الخاص وصفوة من الجند وُزِّعوا على شكل فرق اختفت خلف التلال القريبة بشكل أمَّن المباغتة للعدو مما أربك مخططاته ونشر الفوضى في صفوفه، ولا شك أن ترتيب الخطط وابتكار الأساليب القتالية الناجحة كان نتيجة طبيعية لسياسة الشورى التي يعمل بها المرابطون ولنضج الفكر العسكري الذي يعمل به أمير المسلمين الذي كان أبعد الناس عن الانفراد بالرأي والاستبداد بالأمور.

تعبئة جيش النصارى لخوض المعركة:

بعد أن جاء المتطوعون من فرسان جنوبي فرنسة وإيطالية وفرسان الكنائس، فضلاً عن قوات أراغون وجليقية واشتوريش وبسكونية[2]، ثم تجمع قوات ألفونسو السادس، فوضع خطته العسكرية وقسَّم جيشه على الشكل التالي:

---

(١) حركات، النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، ص٢٢٣.

(٢) عنان، دول الطوائف، ص٣٢٢؛ عنان، مواقف حاسمة، ص٢٣٥.

القسم الأول: يقوده الكونت غارسية والكونت رودريك وهذا القسم كُلِّفَ بمهاجمة قوات المعتمد بن عباد.

القسم الثاني: تألف من جناحين يقود كل منهما قائد كبير وهما مانشو راميرس ـ ملك أراغون[1] ـ والكونت ريموند.

ثالثاً: القلب: يقوده ألفونسو السادس ملك قشتالة نفسه.

رابعاً: المقدمة: يقودها البارهانس القائد القشتالي الشهير وكان معظم المقدمة يتألف من جنود إمارة أراغون، والمتمعن بخطة ألفونسو وتقسيماته العسكرية يتضح له التشابه الكبير بين توزيع القوات الإسلامية وتوزيع القوات النصرانية، ولكن خطة الغدر التي دبرها ألفونسو للكيد بالمسلمين انقلبت وبالاً عليه أمام حذر وبراعة القيادة الإسلامية وقوة استطلاعها، وقد استطاع المسلمون أن ينفذوا أغلب خطتهم بسرية تامة عن جاسوسية خصومهم التي لم تستطع أن تكشف قواتهم على حقيقتها.

سير المعركة:

تم الاتفاق بين يوسف بن تاشفين وألفونسو السادس على أن يكون اللقاء يوم الإثنين، لكن ثبت أن ألفونسو وجيشه لم يحترموا الاتفاق الذي اقترحوه هم؛ إذ كانت خطتهم مبنية على الغدر والخديعة كما تبين ذلك عند الكلام عن تحديد يوم المعركة.

---

(١) حركات، النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، ص٢٢٣.

ونظراً لتوجس المسلمين من غدر النصارى، فقد أكثروا العيون، وبثوا الطلائع يترصدون تحركات العدو واستعداداته وهم على جياد الخيل السريعة.

واستمر الحال على هذا الشكل حتى سَحَرِ يوم الجمعة ويتبين ذلك من الرسالة التي بعث بها أمير المسلمين إلى المعِزِّ بن باديس حيث جاء فيها:

«فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة المذكور ١٢ رجب ٤٧٩هـ أن العدو قد قصد بجنوده نحو المسلمين، يرى أنه قد اغتنم فرصة في ذلك الحين فنبذتْ إليه أبطالُ المسلمين وفرسانُ المجاهدين، فتغشَّتْه قبل أن يتغشاها...»[١].

فتم مواجهة غدر ألفونسو وخداعه بيقظة المسلمين وقيادتهم، وكما وصف الشاعر ابن جهور ذلك اليوم بقوله:

لم تعلمِ الرومُ إذ جاءت مصمِّمَةً يومَ العروبةِ أنَّ اليومَ للعَرَبِ[٢]

وفي سهل الزلاقة اشتبك الجيشان في صراع عنيف وفي معركة رهيبة عامة هجمت فيها مقدمة النصارى بقيادة البارهانس على مقدمة

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٧.
(٢) م. ن، ص٩٨. ويوم العروبة هو يوم الجمعة.

المسلمين التي يقودها المعتمد بن عباد يسانده داوود بن عائشة بفرسانه المرابطين.

ونظراً لكثافة الهجوم وكثرة المشاركين فيه وتفوقهم النوعي في العدة والسلاح الفردي، كانت الصدمة قوية ردت المدافعين عن مواقعهم، ولم يثبت المعتمد بن عباد وفرسان إشبيلية إلا بصعوبة شديدة وصبر كبير، فقاتلوا قتالاً مشهوداً حتى أثخنوا بالجراح وجُرح المعتمد بن عباد، وتراجع بعض الأندلسيين إلى مدينة بطليوس وكادت تدور عليهم الدائرة.

وفي ذلك الوقت العصيب كان ألفونسو قد هاجم قوات المرابطين المؤازرة لابن عباد التي يقودها داوود بن عائشة، فاصطدم تفوق النصارى بصبر المرابطين وثباتهم المعهود واستمر القتل في الطرفين إلا أن ضغْط النصارى كان يزداد على جبهة داوود بن عائشة. ولما أُخبر أمير المسلمين بحال القوات التي يقودها المعتمد وابن عائشة وبحَراجة موقفها أمدَّهم بأقوى قادته وهو الأمير سير بن أبي بكر على رأس قوة من المرابطين استطاع أن ينفذ بها إلى قلب جيش النصارى وأن يتصل بقوات المعتمد فخفف الضغط على الأندلسيين الذين أخذوا يستعيدون ثباتهم، إلا أن ألفونسو السادس كان يواصل ضغطه على قوات ابن عائشة ويزيد من تقدمه حتى أصبح أمام خيام المرابطين، واقتحم الخندق الذي يحميها.

وفي هذا الوقت الذي اطمأن فيه النصارى إلى نهاية مرضية لهم

منشغلين بمواصلة هجماتهم، كان يوسف بن تاشفين يدبر الضربة النهائية التي تقلب الموقف لصالح المسلمين وتنهي قوة الخصم نهائياً، فرتب أمير المسلمين خطة مبتكرة تجلت فيها عبقريته ونُضْجُ تجاربه العسكرية، وتمثلت تلك الخطة بمفاجأة العدو من جهة لا يتوقعها، فتقدم بقواته الاحتياطية متجاوزاً النصارى المهاجمين، وقصد إلى معسكرهم فأضرم فيه النار وأحرقه وقتل حماته من الفرسان والرجال، وفرَّ الباقون منهزمين نحو ألفونسو؛ فأقبلت عليه خيله من معسكره فارين وأميرُ المسلمين في أثرهم، وطبولُه تضرب حول جيشه يشق دويُّها عَنانَ السماء، وبنوده مدفوعة وصفوة المرابطين بين يديه يحكمون سيوفهم في رقاب المعتدين، ولم يشعر ألفونسو إلا وبعض جند حاميته على معسكره قد وصلوا إليه وعليهم علامات الرعب وآثار الهزيمة، فلما علم بما حل بمعقله[1] ارتد من فوره لينقذ محلته من الهلاك فاصطدم بقوات أمير المسلمين ووقعت بينهما معركة هائلة، مُزِّقَتْ فيها قُواتُ ألفونسو شَرَّ ممزَّق وعند معسكر النصارى استؤنفت المعركة ثانية، وكان يوسف بن تاشفين قد جلب مع جيشه إلى الأندلس الجمال فكانت ذات نفع عظيم، تحمل العتاد وتجمح منها خيل النصارى.

وفي معركة الزلاقة تجلت كفاءة يوسف بن تاشفين وقدرته على

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٥؛ وينظر: عنان، دول الطوائف، ص٣٢٤.

توجيه المعركة في كل صفحاتها، فهو ليس فارساً صوَّالاً جوَّالاً فحسب، بل كان ذا مقدرة عسكرية مبدعة، يبتكر الخطط وينظم الهجمات، ويحقق المباغتة ويستجرّ العدو إلى المكان الذي يريده، فما أن اشتد الهجوم على مقدمة المسلمين واختل ترتيبها حتى دعمها بقوة كافية حوَّلت الموقف من التراجع إلى الثبات ثم التقدم لسحق العدو، وما أن اطمأن على نجاح خطته في دعم المقدمة واستعادة ثباتها حتى تجاوز خصومه وفاجأهم في معاقلهم وبين ذخائرهم، فأباد حماتهم وغنم إمكانياتهم وأحرق معسكرهم وفتح جبهة جديدة في موقع لا يتوقعه خصمه.

وكان يوسف على فرس يمر بين الصفوف يحرّض المسلمين ويقوي نفوسهم ويحضهم على الجهاد ويقول: «يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رُزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سَلِمَ فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة»[1].

فقاتل المسلمون في ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب في الموت، وكان لطبول المرابطين الذي يصم الآذان دويُّها دور في اضطراب جيش النصارى، فضلاً عن أن المرابطين قاتلوا في صفوف متراصة متناسقة ممتثلين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٤].

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٥.

وهذا الترتيب العسكري لا عهد للنصارى بمثله، فعلى الرغم من تفوقهم في السلاح فقد عجزوا عن مناهضة هذه الصفوف المتراصة[1]، وكان المعتمد بن عباد وأصحابه الذين ثبتوا معه قد يئسوا من الحياة، وظنوا أن الدائرة قد دارت عليهم ولم يعلموا بما كانت عليه الحالة العسكرية العامة ولكنهم رأوا الروم يولون مدبرين فظنوا أنهم هم الذين هزموهم فقال المعتمد لأصحابه: شدّوا على أعداء الله فشدُّوا عليهم، وحمل القائد سير بن أبي بكر بمن معه فزاد الضغط على قوات ألفونسو فاستمرت الهزيمة. وفي ذلك الحين تراجعت الطائفة المنهزمة من المسلمين إلى بطليوس في بداية الهجوم[2]، لما أخبروا أن أمير المسلمين قد ظفر في هجومه، فتدارك المسلمون بعضهم بعضاً واشتد الهجوم على ألفونسو وقواته حتى أيقنوا بالفناء، ولم تُغنِ عنهم دروعهم القوية وأسلحتهم المتفوقة أمام وحدة الصف الإسلامي ومعنوياته الجهادية العالية.

فاشتد القتل في جيش النصارى، ووُجد أقوام منهم عليهم دروع محصَّنة قطعت السيوف أوساطها مع الجثث[3]، وهنا آن الأوان لكي يوجه يوسف بن تاشفين ضربته الأخيرة والمميتة إلى خصمه بعد أن

(١) عنان، دول الطوائف، ص٣٢٥.
(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٦.
(٣) الحلل الموشية، ص٦٢.

أنهكه في ساحة المعركة، فقد زج بحرسه الخاص[1] المكون من أربعة آلاف مجاهد إلى قلب المعمعة، فاستطاع أحدهم أن يصل إلى ألفونسو السادس وأن يطعنه في فخذه طعنة نافذة بقي يعرج منها طوال حياته. وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب، وأدرك ألفونسو وقادته وفرسانه أنهم يواجهون الموت، فبادر بقليل من أصحابه يقدر بين (٥٠٠ أو ٣٠٠) واعتصموا بتل قريب، ومن ثم انسلَّ تحت جنح الظلام منهزماً هارباً يلعق جراحه، وكما قال الشاعر أبو تمام:

موكّلاً بيَفاعِ[2] الأرض يفرعه[3] من خفة الخوف لا من خفة الطربِ[4]

وهكذا بفضل الله ثم صبر المرابطين وصدق نيات المجاهدين، تحطمت الحملات الصليبية الأولى، التي شُنَّت على الوجود الإسلامي في الأندلس.

وبعد نهاية المعركة وفرار النصارى أمضى المسلمون الليل في ميدان الحرب حتى الصباح، فصلَّوا الفجر في وسط المقتلة التي كانت

---

(١) عنان، دول الطوائف، ص٣٢٥؛ وانظر: المقري، نفح الطيب: ٤/ ٣٦٧؛ وكذلك: الناصري، الاستقصا: ٢/ ٤٧.

(٢) اليفاع: المرتفع من الأرض.

(٣) يفرعه: يعلوه.

(٤) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٩٥ وهذا البيت من قصيدة أبي تمام التي امتدح بها الخليفة المعتصم بالله بمناسبة فتح عمورية.

من أعظم الوقائع العسكرية، قتل فيها ملوك الشرك وأنصاره وحُماته وشجعانه، ولم ينج إلا ألفنش مُثقلاً بالجراح[1] ومعه أقل من خمسمئة فارس، وتابع فراره ولم يتوقف إلا عند قورية بعد مسافة عشرين مرحلة من مكان المعركة حيث فقد معظم أصحابه الفارين معه ولم يصل منهم إلى طليطلة إلا ألفنش في مئة فارس[2].

وبهذا النصر المؤزر الرائع الذي أحرزه المسلمون بقيادة أميرهم أبي يعقوب انتهت الموقعة التي استمرت ليوم واحد فقط.

«وقد حطم الله شوكة العدو الكافر ونصر المسلمين وأجزل لديهم نعمه، وأظهر بهم عنايته، وأجمل لديهم صنيعه»[3]. «وكان يوماً لم يُسمع بمثله من يوم اليرموك والقادسية فيا لَهُ من فتح ثبَّت قدم الدين بعد انزلاقها، وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها... واعتز بها رؤساء الأندلس، فجزى الله أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين أفضل الجزاء!»[4].

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٦.
(٢) م. ن؛ وينظر: عنان، دول الطوائف، ص٢٢٦.
(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٤٤؛ وينظر: المقري، نفح الطيب: ٤/ ٣٦٧؛ عنان، دول الطوائف، ص٤٤٧.
(٤) الحلل الموشية، ص٦٦.

أثر قيادة يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة:

خاض المرابطون وأهل الأندلس بقيادة أمير المسلمين غمار معركة غير متكافئة في العُدة والعدد.

فعدوهم يفوقهم في العدد ويفضلهم في التسليح، وهو قريبٌ من دياره وعارف بطبيعة الأرض التي يقاتل عليها، على خلاف المرابطين الغرباء عن الأرض والطبيعة.

وقد كان في جيش ابن تاشفين مجاميعُ من أهل الأندلس الذين يعيشون أجواء من التحاسد والمشاحنات الجانبية، مما يُضعف الاعتماد عليهم وهذا ما حدث، فقد فرَّ الكثير منهم إلى مدينة بطليوس[1] في بداية الهجوم المعادي، وقد صرح أمير المسلمين بذلك في رسالته إلى بني زيري وحدّد نوعية هذه الفئة بقوله:

«. . . فلما رآهم مَن كان معه من جنده من جميع الطبقات الذين كانوا يدخرون من قبله الأموال والضياع . . . فرّوا يطلبون معقلاً يعصمهم، ولا عاصم إلا الله، ولا هارب منه إلا إليه . . .»[2].

وقد أشاد أمير المسلمين بثبات ابن عباد وثبات جميع الرجالة والرماة والجنود الذين صمدوا معه.

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٩٤.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٧.

وأول ما يجب أن نوضحه في الدور القوي والإيجابي الذي أداه يوسف بن تاشفين في ذلك اليوم الخالد أنه لم يؤخذ على حين غرة، ولم تستطع خطة ألفونسو القائمة على الغدر والخديعة أن تنال من قدرة يوسف على العمل في جميع الظروف، بل إن هذا القائد الفذّ استوعب الموقف وجعل خطة ألفونسو وبالاً عليه إذ حصد نتائج غدره هزيمة ساحقة. وساهم في فشل مخطط الغدر الذي دبره النصارى معرفة أهل الأندلس بأساليبهم الماكرة، إذ إن المعتمد بن عباد هو قائد مقدمة جيش المسلمين وهو أكثر أهل الأندلس خبرة بأساليب ألفونسو ومكايده.

كما أن يوسف بن تاشفين قاد هذه المعركة وعمره يزيد على السبعين عاماً، فكان يتعامل مع خصمه بعين القائد المجرِّب الذي أمضى حياته مجاهداً وقائداً عسكرياً، فهو الذي حنّكته معارك الصحراء وأنضجته معارك المغرب يُعد لكل أمر عدَّته، فما أن توجس من ألفونسو السادس غدراً حتى لجأ إلى تدبير حكيم متحسباً من مفاجأة العدو، وتمويهاً على عيونه وطلائعه المتقدمة، فما كاد ليل الجمعة الذي سبق يوم المعركة يرخي سدوله على جيش المرابطين حتى غيَّر مواضع قواته، وقد ذكر ابن الكردبوس ذلك بقوله: «فلما كان الليل رحل أمير المسلمين ونزل بين جبلين»[1] وقد أمضى الليل يرتب المواضع ويوزع المهام ويعد العدة لكل احتمال، فلما جاءه رسول ابن عباد ليخبره بتحركات العدو،

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص٩٣.

وجده على أهبة للحرب قد عبأ كتائبه طول ليله، ولم ينم أحد في معسكره تلك الليلة[1].

فكيف يَغْفُل ابن تاشفين والعدو على الأبواب، ومصير الأمة وآمالها أمانة في عنقه وهو يعلم أنه مسؤول أمام الله تعالى عن كل النتائج وهو الزاهد العابد المجاهد.

فكان على صلة بطلائعه وسراياه المتقدمة كلها، وكان يتابع تحركات المقدمة التي يقودها المعتمد بن عباد، فما أن علم بعنف الهجوم الذي شنَّه ألفونسو السادس وبتضعضُع موقف المقدمة وتخلخُل صفوفها حتى رَفَدَها بخيرة قواده وأكثرهم خِبرة وتجربة وهو القائد سير بن أبي بكر على رأس قوة من فرسان المرابطين، فسدَّ الثغرة وامتصَّ زخم الهجوم المعادي فأعاد الثقة إلى صفوف الأندلسيين الذين انهارت معنوياتهم في بداية الهجوم، كما لجأ أمير المسلمين إلى معالجة الموقف المتأزم والضغط المعادي المتزايد على مقدمته، فابتكر الخطة العسكرية المناسبة، وذلك عندما تجاوز مواقع الخصم وأتاه من مأمنه وذلك باستدارته عليه من الخلف والانقضاض المفاجئ على معسكره ومجمع ذخائره ويجرأة كبيرة وخطة مدروسة، مما أجبر النصارى على التراجع لحماية قاعدتهم الأساسية، فأربك مخططهم الهجومي وشتت إمكانياتهم، فخف الضغط على المقدمة وفترت وطأة الهجوم، فلم تشعر

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٥.

مقدمة المسلمين إلا والعدو يتراجع أمامها، مما أفسح المجال أمام ابن عبـاد قائد المقدمة أن يصدر أوامره بشن هجوم مقابل على خصومه، وبهذه الإجراءات التي عمل بها أمير المسلمين أثبت أنه يمتلك قدرة قياديـة عالية، وأعصاباً حديدية لا تتشنج ولا ترتبك في أشد الظروف حرجاً وصعوبة، يستند في ذلك إلى إيمانه العميق وعقيدته الراسخة، مستمداً العون من الله العظيم.

وهاهو يتحدث عن ذلك الموقف قائلاً: «فكبَّرنا وكبَّر الكل معنا، مبتهلين لله وحده لا شريك له، ونهضنا للمَنون الذي لا بد منه ولا محيص لأحد عنه، وقلنا: هذا آخر يومنا من الدنيا فَلْنَمُتْ شهداء»[1].

فكان بين الصفوف يشحذ الهمم ويرفع المعنويات، ويحث على الثبات، ويرغب بالشهادة، ويثير الحمية الإسلامية في النفوس، وهو ثابت الجنان هادئ النفس بالرغم مما يحيط به من خطوب، وإلى ذلك يشير الشاعر عبد الجليل بن وهبون مشيداً بحسن بلاء يوسف وولاء المعتمد وإخلاصه، مذكّراً بوشائج القربى التي تربط بين ابن تاشفين وابن عباد، إذ ينسبهما إلى قبيلة حمير اليمانية الأصل، وذلك في قصيدته التي هنأ بها المسلمين بنصر الزلاقة في بلاط المعتمد بن عباد فجاء فيها قوله:

فثـار إلى الطِّعـانِ حليـفَ صـدقٍ　　تثـور بـه الحفيظـة والـذِّمـامُ
نمـا فـي حميـر ونمتـك لخـمٌ　　وتلـك وشـائـجٌ، فيهـا التحـامُ

---

(١) عنان، دول الطوائف، ص٤٤٩.

وفي موقعة الزلاقة برهن ابن تاشفين على أن هذه الأمة إذا تمسكت بعقيدتها، والتأمت جراحها، وتوحد صفها فإنها لا تُغْلَبُ بإذن الله، وأنها قادرة على دحر خصومها أيّاً كان جنسهم أو عددهم.

وقد تجلى دور يوسف بن تاشفين في هذه المعركة وعلى كل صفحاتها، وكان للتنظيمات العسكرية التي أبدعها واتبعها قادة المرابطين دور حاسم في إحراز النصر، فكان استخدام الإبل في المعركة بعد جلبها من المغرب بأمر أمير المسلمين مفاجأة لجيش الإسبان وأنصارهم الأوروبيين، إذ أصبحت بمثابة درع تقي المسلمين من سهام العدو، وكان منظرها الغريب على خيول النصارى يثير الذعر فيها ويجعلها تنفر تحت فرسانها مما يربك صفوفهم ويضعف إقدامهم.

كما قاتل أمير المسلمين بنظام مستمد من العسكرية الإسلامية وعقيدتها المتميزة والمستلهمة من تعاليم القرآن الكريم وسيَر المجاهدين، فواجه أعداءه بنظام الصفوف المرصوصة متَّبعاً الطريقة التي قاتل فيها رسول الله ﷺ يوم بدر في العام الثاني من الهجرة، آخذاً بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وهذا التكتيك لا عهد لجيوش النصارى به، حيث كانوا يعتمدون على القوة الفردية تحميهم الدروع الواقية والأسلحة المتفوقة.

وكان جيش المسلمين مدرّباً تدريباً عالياً ومشاركاً في أعمال

عسكرية متنوعة خلال سنين الجهاد التي أمضاها في المغرب والصحراء، يقوده أمير المسلمين من نجاح إلى نجاح حتى حصل على الثقة العالية من جيشه، فأصبح أمير المسلمين يحرك كل هذه القوات باتجاه واحد وإلى هدف واضح يقره الشرع ويؤمن به المجاهدون، فلا لَبْسَ في المسؤولية، ولا ازدواجية في تحديد المهمات، فالكل يسير باتجاه الهدف رافعاً شعار النصر أو الشهادة، فكانت النتيجة نصراً تاماً على جيوش الصليبية الأولى، وفراراً مشيناً لألفونسو السادس قائد تلك الجيوش، الذي انسل تحت جنح الظلام وهو يتمنى أن لا يلوح الفجر، لكي يمعن في الهزيمة ويفلت من الطلب، وكما وصفه الشاعر عبد الجليل بن وهبون:

نضا أدْراعَهُ واجتابَ ليلاً ... يود لَوَ انَّ طولَ الليل عامُ[1]

وبهذا يتبين لنا أن دور يوسف بن تاشفين كان أساسياً وحاسماً ولم يقتصر على جانب من الجوانب التي حققت النصر، فقد كان ثباته وإقدامه واضحاً، واستعداده للتضحية بملكه ودمه كاملاً، فضلاً عن معالجته للمواقف الحرجة في المعركة بحكمة نادرة ونجاح كبير.

وقد كان أسلوبه في الحشد والاستعداد متميزاً حيث نشر في النفوس روح الاستعداد والتضحية وبثَّ في القبائل روح النظام والضبط

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام: ٣/ ٢٤٨.

يكن في الأندلس غزوة أعظم منها، قُتل فيها من النصارى نحو ثلاثمئة ألف».

أما صاحب (المعجب) فيقـول: «ونجا الأذفونـش ـ لعنه الله ـ في تسعةٍ من أصحابه».

وابن عبد المنعم في (الروض المعطار) يقدّر الناجين من جيـش ألفونسـو بـ«نحو خمسـمئة فارس ما منهم إلا مكلوم، وأباد القتل والأسر ما عداهم من أصحابه».

وأورد ابن بلقين في مذكراته وصفاً لنهاية هذه المعركة، وهـو شاهد عيان وأحد المشاركين فيها، يقول: «اقتفى المسلمون آثارهم وركبوهم بالسيف ومات من جيشهم خلائق، وتبددوا في الطريق فمن بين قتيل وميت مثقل صريع».

والحقيقة أن أولى نتائج هذه المعركة هو إنقاذ الأندلس من خطر حركة الاسترداد التي رفع شعارها ألفونسو، ورفع الحصار الذي كان مفروضاً على كثير من أمهات مدن الأندلس، فمُنحت الأندلس بذلك عمراً جديداً عاشت فيه قروناً من الزمن، وقد كان ذلك النصر ثأراً حقيقياً استوفى فيه الأندلسيون ما اقترفه الإسبان بحقهم من ظلم وعدوان استمر سنين.

وعلى الرغم من الخلاف الظاهر بين الروايات في تحديد عدد جيش النصارى، فإنها تتفق على فداحة الكارثة التي لحقت بقوات

(١) ابن بلقين، التبيان، ص١٠٤.
(٢) المراكشي، المعجب، ص١٩٥.

ألفونسو ومن ساندها، وعن الفتح المبين الذي أحرزه المسلمون بعد أن تحلّوا بروح الجهاد، ووطنوا أنفسهم على الصبر والثبات والتعاون، تحت ظل قيادة كفوءة متفانية في العمل لخدمة الإسلام والمسلمين.

وأيّاً كان من الروايات السابقة هو المعبّر عن الرقم الحقيقي فإنه

وحفظ الأمن»[1].

كما أن نصر الزلاقة رفع الروح المعنوية لأهل الأندلس مثلما زرع هيبة المرابطين في صدور النصارى، ويتحدث ابن بلقين عن هذه الحالة فيقول: «إن الروم أشربوا منذ تلك الوقعة خوفاً وانكماشاً»[2].

ومن الطبيعي أيضاً أن تلمع أسماء القادة والفرسان الذين ثبتوا وقاتلوا في يوم الزلاقة، أمثال أبي سليمان داوود بن عائشة، والقائد سير بن أبي بكر وغيرهم من القادة الذين ساهموا في صنع النصر الكبير.

وقد تجاوزت نتائج هذه المعركة عالم الأندلس إلى المغرب وأفريقية، فقد بعث أمير المسلمين كتب النصر فقرأت في منابر المغرب والمهدية والقيروان، ووصلت التهاني من أرجاء المغرب، حتى وصل فيما قيل تهنئة من الإمام أبي حامد الغزالي[3].

ومن نتائج الزلاقة السياسية تَفَهُّمُ يوسف لأحوال الأندلس وتيقُّنه بعجز أمرائها عن مواجهة النصارى وهذا ما صرّح به أحدهم عندما قال:

«وأخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده وهو قد اطلع عياناً وسماعاً من اختلاف كلمتنا ما لم يرَ وجهاً لبقائنا في الجزيرة»[4].

(١) أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص٤٨١.
(٢) ابن بلقين، التبيان، ص١٠٨.
(٣) شعيرة، المرابطون تاريخهم السياسي، ص١٢١.
(٤) ابن بلقين، التبيان، ص١٠٧.

يكن في الأندلس غزوة أعظم منها، قُتل فيها من النصارى نحو ثلاثمئة ألف».

أما صاحب (المعجب) فيقـول: «ونجا الأذفونـش ـ لعنه الله ـ في تسعةٍ من أصحابه».

وابن عبد المنعم في (الروض المعطار) يقدّر الناجين من جيـش ألفونسـو بـ«نحو خمسـمئة فارس ما منهم إلا مكلوم، وأباد القتل والأسر ما عداهم من أصحابه».

وأورد ابن بلقين في مذكراته وصفاً لنهاية هذه المعركة، وهـو شاهد عيان وأحد المشاركين فيها، يقول: «اقتفى المسلمون آثارهم وركبوهم بالسيف ومات من جيشهم خلائق، وتبددوا في الطريق فمن بين قتيل وميت مثقل صريع».

والحقيقة أن أولى نتائج هذه المعركة هو إنقاذ الأندلس من خطر حركة الاسترداد التي رفع شعارها ألفونسو، ورفع الحصار الذي كان مفروضاً على كثير من أمهات مدن الأندلس، فمُنحت الأندلس بذلك عمراً جديداً عاشت فيه قروناً من الزمن، وقد كان ذلك النصر ثأراً حقيقياً استوفى فيه الأندلسيون ما اقترفه الإسبان بحقهم من ظلم وعدوان استمر سنين.

وعلى الرغم من الخلاف الظاهر بين الروايات في تحديد عدد جيش النصارى، فإنها تتفق على فداحة الكارثة التي لحقت بقوات

ألفونسو ومن ساندها، وعن الفتح المبين الذي أحرزه المسلمون بعد أن تحلّوا بروح الجهاد، ووطنوا أنفسهم على الصبر والثبات والتعاون، تحت ظل قيادة كفوءة متفانية في العمل لخدمة الإسلام والمسلمين.

وأيّاً كان من الروايات السابقة هو المعبّر عن الرقم الحقيقي فإنه سيعبّر عن كل هذه المعاني التي ذكرناها. ولا شك أن المسلمين قد دفعوا ثمناً لهذا النصر في بداية هجوم النصارى خاصة لكنه على كل الأحوال لا يُقاس بأي شكل من الأشكال بخسائر النصارى الذين فقدوا نظامهم وتبددت خططهم وخارت قواهم ولم يعودوا يفكرون إلا بالفرار (ولات حين مناص).

نتائج معركة الزلاقة على الصعيد السياسي:

سُرَّ أهل الأندلس بالمرابطين، وأظهروا التيمُّن بأمير المسلمين، وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر وانتشر الثناء في كل أنحاء الأندلس، وذلك أن الأندلس قبله كانت «بصدد التلف من استيلاء النصارى عليها وأخذهم الإتاوة من ملوكها فلما قهر الله العدو وهزمه، على يد أمير المسلمين أظهر الناس إعظامه ونشأ له الودُّ في الصدور»[1].

وكان يقابل هذه المشاعر صدق يوسف في نصرة إخوانه الأندلسيين وتضحياته الكبيرة في هذا الباب، وهذا ما نستنتجه من قول الأمير عبد الله

---

(١) المراكشي، المعجب: ٣/ ١٩٦.

ابن بلقين عندما يتحدث عن اللقاء مع يوسف بن تاشفين وعن المشاعر في تلك المرحلة فيقول: «ورأينا من إكرامه لنا وتحفّيه بنا ما زادنا ذلك رغبة فيه ولو استطعنا أن نمنحه لحومنا، فضلاً عن أموالنا»[1].

فقد عشق أهل الأندلس الخلال التي اتصف بها أمير المسلمين إذ كان فارساً مجاهداً يحمي الذمار، ومؤمناً عادلاً يحكم بما أنزل الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وابن تاشفين هو «الذي قطع الأذفونش... عن الجزيرة بعد أن كان يقدر أنها في ملكه وأن رؤوسها خدم له، وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين»[2].

وبذلك يتبين لنا أن الزلاقة قد رسخت زعامة ابن تاشفين على الصعيد السياسي في المغرب والأندلس دون منازع. وقد كان يتحسس واقع أهل الأندلس وما يعانونه من عسف ملوكهم، وإثقالهم بالمغارم والضرائب، ومن استحواذ النصارى على بلادهم، مما زرع ثقة الأندلسيين بهذا القائد وأخذوا يتناقلون أخبار عدله وتفقده لرعيته فكان ذلك بمثابة الدعاية للمرابطين، حيث كان أمير المسلمين «يتحرى أحوال المدن وحكوماتها، ويستمع إلى الظُّلامات ويتخذ ما يجب لإقامة العدل

(١) ابن بلقين، التبيان، ص١٠٤.
(٢) المراكشي، المعجب، ص١٩٥.

وحفظ الأمن»[1].

كما أن نصر الزلاقة رفع الروح المعنوية لأهل الأندلس مثلما زرع هيبة المرابطين في صدور النصارى، ويتحدث ابن بلقين عن هذه الحالة فيقول: «إن الروم أشربوا منذ تلك الوقعة خوفاً وانكماشاً»[2].

ومن الطبيعي أيضاً أن تلمع أسماء القادة والفرسان الذين ثبتوا وقاتلوا في يوم الزلاقة، أمثال أبي سليمان داوود بن عائشة، والقائد سير بن أبي بكر وغيرهم من القادة الذين ساهموا في صنع النصر الكبير.

وقد تجاوزت نتائج هذه المعركة عالم الأندلس إلى المغرب وأفريقية، فقد بعث أمير المسلمين كتب النصر فقرأت في منابر المغرب والمهدية والقيروان، ووصلت التهاني من أرجاء المغرب، حتى وصل فيما قيل تهنئة من الإمام أبي حامد الغزالي[3].

ومن نتائج الزلاقة السياسية تَفَهُّمُ يوسف لأحوال الأندلس وتيقُّنه بعجز أمرائها عن مواجهة النصارى وهذا ما صرَّح به أحدهم عندما قال:

«وأخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده وهو قد اطلع عياناً وسماعاً من اختلاف كلمتنا ما لم يرَ وجهاً لبقائنا في الجزيرة»[4].

---

(١) أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص٤٨١.

(٢) ابن بلقين، التبيان، ص١٠٨.

(٣) شعيرة، المرابطون تاريخهم السياسي، ص١٢١.

(٤) ابن بلقين، التبيان، ص١٠٧.

ولهذا قام يوسف بن تاشفين بما يتوجب عليه من النصح والعمل على توحيد كلمة أمراء الأندلس، وحثّهم على نبذ الخلاف والتعاون ضد الخطر المشترك الذي يهددهم ويهدد أمتهم. وقد عقد أمير المسلمين مجلساً لأمراء الأندلس بعد الفراغ من أمر الزلاقة، ونقل لنا أمير غرناطة بعض وصايا أمير المسلمين التي أدلى بها لأمراء الأندلس «ولما انقضت غزوته تلك جمعَنا في مجلسه ـ أعني رؤساء الأندلس ـ وأمرنا بالاتفاق والائتلاف، وأن تكون الكلمة واحدة، وأن النصارى لم تفترسنا إلا للذي كان من تشتتنا واستعانة البعض بهم على البعض فأجابه الكل أن وصيته مقبولة»[1].

إلا أن الذي ثبت فيما بعد، أن هؤلاء الأمراء لم يعملوا بهذه النصيحة وأنهم آثروا مصالحهم الشخصية على مصلحة الأمة ومصيرها، مما زاد من تعلق أهل الأندلس بيوسف بن تاشفين وقيادته للأمة، وتيقنهم بأن إنقاذهم لا يكون إلا على يدي هذا المجاهد الذي أخلص لعقيدته وأحب أمته حتى أصبح رمزاً للإخلاص والنجدة، بعد أن اعتز المسلمون بنصر الزلاقة، وامتنعوا عن دفع الضرائب، التي كان يثقل كواهلهم بها ألفونسو السادس، فنهب الخيرات وسلب الأموال حتى عبَّر أحد الشعراء عن هذه الحالة بقوله:

---

(١) ابن بلقين، التبيان، ص١١٠.

والمـــال يـــورَدُ كلُّـــه قَشْتـــالـــةً ... فـــالله يَلْطُـفُ بالعبـاد ويَـرحـمُ[1]

ونظراً لفقدان النصارى تفوقهم في الأندلس وخسـارة قَشْـتالة للمغارم التي كانت تردها من الأندلس، أخذت ترسل الوفود إلى الغرب وإلى روما، حيث تعاونت معها الكنيسة وأخذت تعمل على تـوحيد القوى الصليبية والاستعداد للمعركة القادمة.

وفي سـياق الحديث عن الزلاقة لا بد من التنبيه إلى أن الأميـر عبد الله بن بلقين قد أشار في مذكراته إلى أن يوسـف بن تاشـفين آثر الاحتياط ولم يتتبع العدو، وأن المعتمد بن عباد صاحب إشْبيلية حرضه على تتبع العدو المنهزم رجاء أن يكون في ذلك القضاء النهائي على العدو ولتنقطع الحاجة إلى نجدة المرابطين الذين اكتفوا بالنصر.

وهنا لا بد من الوقوف عند هذه الرواية والتمعن بما جاء فيها؛ إذ إن أجواء المودة والصفاء التي ملأت النفوس بعد إتمام ذلك الإنجاز العظيم المتمثل بسحق أكبر قوة إسبانية غربية تهاجم المسلمين في الأندلس، كانت مخالفة لسياق الحديث الذي يشير إليه أمير غرناطة.

وإن لقاء أمير المسلمين والمعتمد بن عباد بعد تحقيق النصر كان مفعماً بمشـاعر الحب والثقة، وقد وصف لنا صاحب (الروض) لقاء هذين القائدين بعد المعركة بقوله:

---

(١) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص١٦١.

«وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه، وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقاومته وحسن بلائه، وسأله عن حاله عندما أسلمه رجاله بانهزامهم فقال له: «هاهم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك»[1].

فلو كان الأمر على ما ذكر ابن بلقين لكان مجرى الحديث غير هذا، ونحن وإن كنا نتمنى لو أن أمير المسلمين تمكن من استغلال ذلك النصر بمتابعة العدو واستعادة حقوق المسلمين المغتصبة كما فعل القائد طارق بن زياد بعد انتصاره في معركة وادي لُكَّة عام ٩٢هـ، إلا أننا لا نشك في إخلاص أمير المسلمين، لو أن الظروف المحيطة به كانت تساعده على ذلك آنذاك.

ومن تلك الظروف وفاة ولده وولي عهده في المغرب الأمير أبي بكر بن يوسف وقد أشار ابن أبي زرع إلى هذا الجانب بقوله: «واتصل بأمير المسلمين في ذلك اليوم وفاة ولده أبي بكر، وكان تَرَكَه مريضاً بسبتة فاغتمَّ لذلك، وانصرف راجعاً إلى العُدوة... ولولا ذلك لم يرجع»[2].

ولهذا نستطيع أن نقول: إن هذه الرواية قد يراد منها التشويش،

(١) السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٤٨.
(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٨.

وذلك لما بين ابن عباد وابن بلقين من خلافات ومشاحنات شديدة، وربما أراد صاحب هذه الرواية النيل من أمير المسلمين انتصاراً لنفسه، إذ إن أمير المسلمين هو الذي عزله عن إمارة غرناطة بعد ثبات تحالفه مع ألفونسو السادس ضد المسلمين.

إجراءات ابن تاشفين في الأندلس قبيل عودته إلى المغرب:

على الرغم من عودة أمير المسلمين السريعة إلى المغرب بعد الفراغ من الزلاقة فإنه قام باتخاذ عدة إجراءات وتدابير مستقبلية، لدعم الأندلس والاطمئنان على مستقبلها.

وكان من أول تلك التدابير، دعوته أهل الأندلس إلى الوحدة ورصِّ الصفوف ونبذ الخلافات وتوجيه الجهود إلى المعركة المصيرية ضد العدو المشترك الذي يتربص بهم جميعاً.

ثم ترك قوة من ثلاثة آلاف فارس من المرابطين[1] دعماً للمعتمد ابن عباد يعملون بإمرته، يقودهم القائد أبو عبد الله بن الحاج، وقد كان لهذه القوة المرابطية تأثير معنوي عالٍ إذ ساهمت في المحافظة على روح النصر التي انتشرت في نفوس الأندلسيين، واستطاع المعتمد بمساندة هذه القوات مهاجمة أراضي طُلَيْطُلَة والاستيلاء على أقليش وقونقة، كما ترك أمير المسلمين قوات مرابطية أخرى في غرب الأندلس يقودها القائد

---

(١) السامرائي، علاقات المرابطين، ص١٤٦.

سير بن أبي بكر وقد استطاعت هذه القوات بالتعاون مع قوات المتوكل ابن الأفطس أمير بطليوس الإغارة على أواسط البرتغال مما يلي نهر التاجة[1]، فحطمت الكثير من تحصينات العدو وقلاعه التي كان يتمركز فيها، وبهذا يتبين لنا أن أمير المسلمين كان يرغب في متابعة العدو واستثمار النصر.

كما أنه لم يدخر وسعاً لنصرة إخوانه الأندلسيين وتثبيت مواقعهم، مما يدل على إحساسه الإسلامي الأصيل، وشعوره بالمسؤولية التاريخية التي حمل أعباءها بكل كفاءة واقتدار.

أسباب عودة يوسف بن تاشفين إلى المغرب:

بعد انتهاء معركة الزلاقة أقام يوسف بن تاشفين مع قواته بظاهر إشْبِيلِيَة ثلاثة أيام ثم رجع إلى المغرب، وكان لعودته تلك أسباب كثيرة، فرضت على أمير المسلمين الإسراع في العودة تلافياً لأي خطر محتمل وتثبيتاً للاستقرار في بلاد المغرب.

وقد يكون من أهم تلك الأسباب، وفاة الأمير أبي بكر[2] بن يوسف ابن تاشفين ولي العهد[3] والمكلف بإدارة المغرب. فمن الممكن أن

---

(١) حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص٢٨٨.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٤.

(٣) ابن الأبار، الحلة السيراء: ٢/ ١٠٠ ويذكر «أن وفاة أبي بكر عندما نزل يوسف في الجزيرة الخضراء حتى هم بالانصراف إلى المغرب لكنه آثر الجهاد وكان=

يؤثر هذا الحدث في أحوال المغرب خصوصاً وأن فيه الكثير من الأمراء الأقوياء، أمثال والي سجلماسة إبراهيم بن الأمير أبي بكر بن عمر أمير المرابطين الذي استخلف يوسف بن تاشفين على إمارات المغرب.

وقد يكون من الأسباب التي ساهمت في سرعة عودة أمير المسلمين استياؤه من أمراء الطوائف وسوء نواياهم وتفرق كلمتهم، كما أن أوضاع المغرب الإدارية والأمنية ساهمت في إسراعه بالعودة إلى المغرب لكونه المسؤول الأول في الدولة، فكان عليه أن يتفقد أحوال بلاده إذ كان من سيرته أن يطوف بنفسه على أرجاء مملكته الشاسعة ويتحرى أحوال المدن وحكوماتها، ويستمع إلى الظُّلامات ويتخذ ما يجب لإقامة العدل وحفظ الأمن[1]، وهذا ما أكده ابن أبي زرع بقوله: «ففي عام ٤٨٠هـ خرج يتطوف على بلاد المغرب، يتفقد أحوال الرعية وينظر في أمور المسلمين ويسأل عن سير عماله في البلاد وقضاته»[2].

وهناك عامل آخر مهم أيضاً يتمثل في تحرشات إمارة بني مناد الذين كانوا مجاورين لدولة المرابطين فحاولوا اغتنام فرصة انشغال أمير المسلمين بأمر الأندلس والاستعانة بقبائل بني هلال والانقضاض على المغرب الأوسط[3].

= قد رشحه أبوه لولاية العهد».

(١) أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص٤٨١.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٨.

(٣) حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص٢٨٧.

إلا أن الدكتور حسن أحمد محمود يذكر أن هناك أسباباً أبعد وأعمق من ذلك[1]، فإنه يرى أن يوسف بن تاشفين لا يزال عاملاً لأبي بكر بن عمر الأمير الأعلى للمرابطين وقد توفي هذا الأمير وعلم يوسف بن تاشفين بذلك وهو في الأندلس، فتوجب عليه الإسراع في العودة إلى المغرب لأخذ البيعة لنفسه من جديد ولعدم إفساح المجال لباب التنافس والخلاف على الإمارة وهو مشغول بمعركة الجهاد في الأندلس.

وبهذا يكون قد اختلطت على المؤرخين وفاة أبي بكر بن عمر أمير المرابطين بأبي بكر بن يوسف فقالوا: رحل يوسف من الأندلس لوفاة ولده أبي بكر بن يوسف. ومما يؤكد هذا الرأي النقود المرابطية التي ظلت تضرب باسم الأمير أبي بكر بن عمر منذ عام ٤٥٠هـ حتى عام ٤٧٩هـ ثم تلاشي ضرب هذه النقود، لكي تضرب رسمياً باسم يوسف ابن تاشفين منذ عام ٤٨٠هـ العام الذي توفي فيه أبو بكر بن عمر ويؤكد هذا الرأي، صاحب تاريخ المرابطين السياسي بقوله:

«ونذهب نحن مذهب الدكتور حسن محمود فنرجح أن السبب في العودة هو وفاة أمير الملثمين الأكبر أبو بكر بن عمر»[2].

---

(١) م. ن.

(٢) عبد الهادي شعيرة، المرابطون تاريخهم السياسي، ص١٢٥.

ولكن وفاة الأمير أبي بكر بن عمر وحدها ليست مبرراً لعودة أمير المسلمين بهذه السرعة، إذ إن يوسف بن تاشفين هو خليفته الشرعي بإجماع المرابطين منذ زمن بعيد، إلا أن وفاة الأمير أبي بكر بن عمر قد تكون سبباً مرجحاً لعودة أمير المسلمين إلى المغرب فضلاً عما ذكرنا من أسباب أخرى ـ والله أعلم ـ.

اتخاذ يوسف بن تاشفين لقب أمير المسلمين:

كان يوسف بن تاشفين يدعى بالأمير فحسب حتى فترة متأخرة، وهناك خلاف حول التاريخ الذي اعتمد فيه المرابطون هذا اللقب ليوسف ابن تاشفين، ففي الوقت الذي يرى فيه ابن أبي زرع في كتابه روض القرطاس(١) أن يوسف بن تاشفين لم يتخذ هذا اللقب إلا بعد نصر الزلاّقة عام ٤٧٩هـ، يرى آخرون أن هذا اللقب عرف قبل ذلك بكثير ومنذ عام ٤٦٦هـ.

فعندما اتسعت دولة المرابطين اجتمع زعماء القبائل وأعيان المرابطين وقالوا ليوسف بن تاشفين: أنت خليفة الله في المغرب وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير بل ندعوك بأمير المؤمنين، فقال لهم: حاشا لله أن أتسمى بهذا الاسم الذي يتسمى به خلفاء بني العباس؛ لكونهم من تلك السلالة الكريمة ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة، وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم.

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٨٨.

فقالوا له: لا بد من اسم تمتاز به، فقال لهم: يكون (أمير المسلمين) فقيل: إنه هو الذي اختار هذا الاسم لنفسه فأمر الكتّاب أن يكتبوا بهذا الاسم إذا كتبوا عنه أو إليه[1].

وقد صدر منشور في هذا الخصوص يُعلم المرابطين بالاقتصار على هذا اللقب في مخاطباتهم لأمير المسلمين، ونَصُّ ذلك المنشور هو:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد الكريم وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً. من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة والخاصة من أهل (الفلأنة) أدام الله كرامتهم بتقواه، ووفقهم لما يرضاه، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، أما بعد: حمداً لله أهل الحمد والشكر، ميسّرِ اليسر وواهب النصر، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر، وإنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بمراكُش حرسها الله علينا بالفتح الجسيم وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة بُرودَ النعيم، وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به عن سائر أمراء القبائل وهو (أمير المسلمين وناصر

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٢٧.

الدين) فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى ولي العدل بمنه وكرمه والسلام.

وكانت علامته الصادرة عنه (الملك والعظمة لله)[1]. وإنما تسمّى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين أدباً مع الخليفة وورعاً منه[2] رحمه الله تعالى، وإلا فقد كان بعيداً عن أرض الخلافة، بل إنه كان أقوى شوكة من الخليفة في ذلك الحين، وهذا الموقف المتواضع يضاف إلى مواقف ابن تاشفين السديدة التي تدل على أصالة انتمائه الإسلامي، وشدة غيرته على الدين، وتمسكه الكامل بوحدة الأمة الإسلامية على امتداد أصقاعها.

* * *

(١) الحلل الموشية، ص٢٩.
(٢) السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٥٨.

الفصل السادس

العبور الثاني إلى الأندلس

وغزوة حصن لييط

الفَصْل السَادِسُ

العبور الثاني إلى الأندلس

وغزوة حصن لييط

أسباب العبور الثاني إلى الأندلس:

بـالرغم من كل المعاناة التي عاشتها الأندلس من فرقة الصف، وجور الحكام، وانحراف تربية المجتمع عن قيم الإسلام الأصيلـة، وضعف روح الجهاد والتضحية، والهيمنة المطلقة للعدو على المسلمين في الأندلس، بالرغم من كل ذلك فقد تحقق للمسلمين نصر مؤزر في الزلاقة دفع فيه النصارى الإسبان الثمن المناسب لكل ما اقترفوه من مآسٍ ضد الأندلسيين وكان ذلك بسبب هيّن، وعلاج مبذول لهذه الأمة في كل العصور، ألا وهو الحكم بما أنزل الله وتوفر القيادة النبيلة في تـوجهها ومعتقدها، في عطائهـا ومنعها، وفي تطلعها وإحساسـها، وبإيمانها بأنه ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]، الظالمون لأنفسهم، لأنهم خالفوا فطرتهم بمخالفتهم تعاليم ربهم وانقيادهم لأهوائهم وتفضيلهم أحكام البشر وقوانينهم على أحكام رب العالمين، والظالمون لأمتهم لأنهم لم يسيروا بها بمسيرة الأجداد الذين

نشروا فيها العدالة وحققوا لها الحماية والسيادة والعزة ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

لكل هذه المعاني ولغيرها نقول ومعنا كل دلالات التاريخ وعبره: إن هذه الأمة لن تنهض من كبواتها ولن تبرأ من أسقامها وأمراضها التي أثنتت في جسدها لعمقها وطول فترتها، حتى ترتدي رداء الإسلام الصادق ظاهراً وباطناً، وتستقي من زُلالِ فيضه الصافي في فكرها ومنهجها وسلوكها.

ولذلك ما إن توافرت هذه المعاني في دعوة المرابطين وقيادتهم حتى قطفوا ثمارها اليانعة، وحدةً في الصف وارتفاعاً في التربية والشعور، وصلابة وسمواً في القيادة.

ولكن على الرغم من النصر الذي تحقق في معركة الزلاقة وتسامي أمراء الأندلس عن حالة الفتن والتطاحن التي كانوا يعيشونها، وإخلاصهم النية لله تعالى في تلك المرحلة ولاسيّما في المواجهة والجهاد في الزلاقة، إلا أنهم ما إن شعروا بحالة الأمن وزوال الخطر حتى نزعوا رداء التوبة وقيم الإسلام ومعاني الجهاد، وعادوا إلى ما كانوا عليه من تعسف في المعاملة وهضم لحقوق الرعية وانحراف بها عن الإسلام، وانصراف إلى مجالس اللهو والشراب ومداعبة الجواري واقتنائهن، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ [الحشر: ٢] وسلط عليهم عدواً مقيماً في وسط بلادهم يغير ويسلب ويسبي ويعود ليتحصن في حصن لييط «وهو حصن حصين

على رأس جبل شاهق بينه وبين مدينة لورقة نصف يوم»[1]، وكانت قوات هذا الحصن تقوم بأعمال انتقامية كردّ على الهزيمة الشنيعة التي لحقت بالنصارى في معركة الزلاقة.

وقد تنفس ألفونسو الصعداء منذ أن علم أن أمير المسلمين عاد إلى مراكش فانتعشت نفسه وخف رَوعه، فأخذ ينسق أعماله مع القوات الصليبية التي تهاجم بلاد المسلمين وسواحلهم قادمة من أوروبة، ويطلب المعونة منها لتعويض خسائره الهائلة في الزلاقة، فوصلته من إمارتي بيشة وجنوة الإيطاليتين إمدادات «في نحو أربعمئة قلاع ـ أي سفينة ـ»، فحاصر بَلَنْسِيَةَ وهاجم السواحل الأندلسية ووجه النصارى هجماتهم على بلاد المعتمد، فأصبح لموقع حصن لييط أهمية كبرى لدى النصارى في هذه المرحلة، فزادوا في بنيانه وتحصينه ليكون قاعدة متقدمة لهم في أرض المسلمين، وليتمكن من مواجهة أعتى أنواع الحصار والمقاومة؛ فشُحن بالذخائر والمقاتلين حتى أصبح عدد قوات هذا الحصن ثلاثة عشر ألف مقاتل بين فارس وراجل، تدعمها قوات ألفونسو وتقوم بالتنسيق مع القوى الصليبية الأخرى لتشتيت القوة الإسلامية وإشغال أبناء كل منطقة من مناطق الأندلس بالدفاع عن نواحيها.

وأمام هذا الوضع المتأزم عانت الكثير من نواحي الأندلس الأمرَّين من هجمات قوات حصن لييط، وقد ساعدهم في ذلك موقعهم الحصين

---

(١) الحلل الموشية، ص٦٧.

وخبرتهم بالأرض وبأساليب حكام الطوائف وميلهم إلى حالة الدعة والمسالمة بعد رحيل أمير المسلمين عن الأندلس.

«فلما تحقق عند النصارى أنه قد جاز وقطع البحر وفاز اتفقوا على تدويخ شرق الأندلس، فشنّوا الغارات على سَرَقُسْطَة وجهاتها وتمادوا إلى بَلَنْسِيَة ودانِية وشاطِبَة ومُرْسِيَة وذواتها فانتسفوها نسفاً، وتركوها قاعاً صفصفاً، وأخذوا حصن مرة رايط وغيرها؛ فساء حال الشرق وحسُن حال الغرب بمن فيه من المرابطين»[1].

وقد أثار هذا الحصن الرعب في المناطق القريبة منه، وأمام عجز القوات الأندلسية عن صد هذا الخطر الداهم أخذت الوفود الأندلسية تتوجه إلى مراكش تبث الشكوى وتطالب بعودة أمير المسلمين ثانية إلى الأندلس «فلم تزل وجوه الأندلس من تلك البلاد يترددون إليه بالشكوى حتى وعد بالجواز إليهم»[2].

ولما كانت بلاد المعتمد هي الهدف الأول لهجمات قوات حصن لييط فقد ضاق ذرعاً بتلك الحال، ولم يعُد أمامه من حل سوى العبور إلى أمير المسلمين ودعوته للجهاد ثانية في الأندلس فانطلق «من إشبيلية في خاصته وجاز البحر إلى يوسف بن تاشفين فتلقاه بالمعمورة على حلق

---

(١) ابن الكردبوس، ص٩٦.
(٢) الحلل الموشية، ص٦٧.

وادي سبو، وقابله بالسلام والترحيب بوجهٍ طلقٍ وصدرٍ رحبٍ وإكرامٍ جمٍّ، وقال له: ما السبب الذي دعاك إلى الجواز إلينا وهلاً كتبت إلينا بحاجتك؟.

فقال له: جئتكَ احتساباً وجهاداً وانتصاراً للدين وقد أجرى الله الخير على يديك، وحظُّك مما جئتُ به الحظ الأوفر، وقد اشتد ضرر النصارى المستولين على حصن لييط وعظُم أذاه بالمسلمين لتوسطه في بلادهم، ولا جهاد أعظم منه أجراً ولا أثقل في الميزان وزناً. فتلقى أمير المسلمين مقصده بالقبول ووعده بالحركة والجواز»[١].

وهكذا يلبي أمير المسلمين صريخ أهل الأندلس والمعتمد بن عباد للمرة الثانية بما في ذلك من تكاليف العبور إلى الأندلس وترك بلاد المغرب، وإعداد الجيوش وآلات الحصار وما إلى ذلك من متطلبات، دون أن يظهر على المرابطين أية بادرة تُشعِر أهل الأندلس بمَنٍّ أو استعلاء، بل إن المرابطين كانوا يرون ذلك واجباً من واجبات الأخوّة في الإسلام.

وبعد أن أكمل أمير المسلمين ترتيب الأوضاع في المغرب وأتم وسائل الإعداد للمعركة أخذاً بكل الأسباب المؤدية إلى النصر الذي يحمي المسلمين ومصالح الأمة، اجتاز البحر إلى أرض الأندلس عام ٤٨١هـ[٢]، فنزل في الجزيرة الخضراء القاعدة العسكرية التي اتخذها

---

(١) م. ن.
(٢) ابن أبي زرع، ص٩٦.

أمير المسلمين رباطاً للمجاهدين يساند الأعمال الجهادية في الأندلس ويحمي خطوط المواصلات والإمداد، ومن هناك أنفذ أمير المسلمين كتبه لملوك الأندلـس يستدعيهم للجهاد معه والموعد حصن ليبط[1]. فاستقبله ابن عباد بما أعدّه من ذخائر وآلات وأسلحة ومواد تموينية خدمةً للمعركة المقبلة.

ثم تحركت كتائب المجاهدين إلى ساحة القتال يستنهضون من يجتازون في بلاده من أمراء الطوائف، فاستنفروا أمير مالِقَة تميم بن بُلّقين أثناء عبورهم في أرضه ثم التحق بهم عبد الله بن بُلّقين أميرُ غَرْنَاطَة والمعتصم بن صمادح أمير المرِيّة، والتحق بهم مجاهدو مدن شقورة وبسطة وجَيّان، ومن مدينة مُرْسِية وصل بعض خبراء الحصار «وجاءهم من مرسية النجارون والبنّاؤون والحدادون»[2].

وبعد كل هذه الاستعدادات أطبق المسلمون الحصار على حصن ليبط الذي اجتمع فيـه النصارى، بعد أن «أعدّوا فيـه ما يُحتاج من كل شيء، فِعْلَ مَن نظرَ على سعة»[3].

وكان ألفونسو على اطلاع بما يجري، يتربص فرصة للنيل من المسـلمين ويعد العدة ويجمع القوى في هذا السبيل، إلا أن تجاربـه

---

(١) الحلل الموشية، ص٦٨.
(٢) المصدر السابق، ص٦٩.
(٣) التبيان، ص١٠٩.

الكثيرة التي اكتسبها في فترة حكمه الطويل ـ ولاسيَّما في معركة الزلاقة ـ جعلته على يقين كامل بأن الأمة الإسلامية إذا اتحدت في أي جزء من أجزائها الممتدة على ظهر المعمورة، ورفعت راية الجهاد فإنها لا تقهر حينذاك ولا يقف بوجهها شيء، وما دامت هذه الحالة متوافرة في الجيش المحاصر لحصن لييط، فلا بد إذن من دحره والإتيان عليه بإذن الله.

سير أحداث حصار حصن لييط:

وقد شرع المسلمون في مهاجمة الحصن وتضييق الحصار عليه «وشن الغارات على بلاد الروم»[1].

وهوجم الحصن في الليل والنهار وحددت مهام القتال وكان كل أمير يقاتل يوماً بخيله ورجله، واستخدمت المجانيق والعرادات وقطعت عنه الاتصالات والأقوات، ولكن لم تظهر على هذا الحصن بوادر الانهيار، لكثرة ما جمع فيه النصارى من الأقوات والذخائر، ولشدة الاستحكامات التي أقيمت على جوانبه في تلك المنطقة الجبلية الشديدة الوعورة.

وأمام هذه الحالة فقد عقد اجتماع عسكري حضره أمير المسلمين والمعتمد بن عباد، تدارسوا فيه الحالة التي جابهتهم من قوة استحكامات هذا الحصن «وظهر لهما من حصانته ومنعته واستعصامه ما آيسهم عنه،

---

(١) ابن أبي زرع، ص٩٩.

وأنه لو كان دون سور لكان شفا جرفه عاصماً لما فيه وأنه لا يتأتى لهم أخذه إلا بالمطاولة»[1].

ولم يكن أمراء الطوائف ممن تتوفر فيهم هذه الصفة من الصبر والمطاولة التي أمر الله تعالى المؤمنين بالتحلي بمعانيها حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فملّوا المكث في الحصار وطول الانتظار وظهرت معادنهم الحقيقية وما جبلوا عليه من حب للفتن والمشاحنات فيما بينهم، «وطالت تلك المحلة الملعونة فكأنما مثلق أبان الطيب من الخبيث وكشف العورات»[2].

هكذا بقلّة صبرهم وضعف إحساسهم بالمسؤولية أفسدوا على أمير المسلمين جهاده، بما أشغلوه به من الخلافات والشكاوى فيما بينهم وفيما بينهم وبين رعاياهم الذين كانوا يحذرون من اتصالهم بأمير المسلمين، فتنكشف حالهم وتظهر عوراتهم.

وقد كان من أهم المخاصمات السياسية التي دارت بين الأمراء المشاركين في الحصار ما حدث بين المعتمد بن عباد وابن رشيق والي

---

(١) الحلل، ص٦٩.
(٢) التبيان، ص١١٠.

مُرْسِيَة، الذي ثار في هذه المدينة معلناً استقلاله عن ابن عباد، فشكاه ابن عباد إلى أمير المسلمين مدعماً شكواه بحجج منها: نَقْضُ ابن رشيق عهد الطاعة لابن عباد واستقلاله عنه وكذلك اتصاله بالنصارى ودفع جباية مرسية لألفونسو. ويبدو أن هذه التهمة كانت مكشوفة للجميع ولم تكن خافية عن الأمراء الآخرين، فقد أورد ابن بُلّقين عن ذلك قوله: «إن معونته للروم بلبيط لم تخفَ على أحد، يعتقد أن ببقائها يثبت في مرسية»[1].

وأمام هذه الاتهامات الخطيرة أمر يوسف بن تاشفين بأن تعقد محاكمة لهذين الخصمين ويستفتى فيها الفقهاء لتقرير حكم الشرع فيه، فصدر الحكم فيه، بإزاحته عن المسلمين وإسلامه لسلطانه[2] فقبض على ابن رشيق وسجن عند المعتمد على أن يبقي على حياته، وانتصاراً لابن رشيق تمرَّد ابنه وأقاربه وأنصاره وتحصنوا في مدينتهم «ومنعوا الميرة عن المحلة ـ المعسكر ـ فاختلت أمورها ووقع الغلاء بها وارتفع السعر فيها فضاقت بالناس الأحوال»[3].

«ووقعت بين المعتمد والمعتصم صاحب المرِيَّة مشاجرات وتباعات باردة في معاقل من نظر الجبل، وفي أمر شربة ما وقع فيه

(١) التبيان، ص١١٢.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) الحلل، ص٧٠.

الشكوى إلى الأمير وانفصلا عن غير موافقة»[1].

ومن تلك المشاحنات ما حدث بين أمير مالِقَة وأخيه أمير غَرْناطة حيث يقول عبد الله بن بلقين عن ذلك: «ومثل ذلك جرى مع أخينا صاحب مالقة»[2].

ويذكر ما أثاره عليه أخوه تميم أمير مالِقَة من شكاوي لأمير المسلمين مطالباً أمير غَرناطة ببعض ممتلكاته، وكان قد تقدم بمثل هذه الشكوى بعد الفراغ من معركة الزلاقة. هذا بعض ما تبين لأمير المسلمين من حال حلفائه الذين دعوه للجهاد، أما ما سمعه ورآه من الرعية فهو أكثر من ذلك بكثير:

«وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس، ورعيتهم في ذلك يأتون أفواجاً شاكين»[3].

«رأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم عن مغارم الأقطاع التي كانت عليهم مع احتياجهم إلى الإنفاق ما قلق به وساء الظن من أجله»[4].

وبهذا يتبين لنا أن أمراء الطوائف كانوا على أحرّ من الجمر أيام

---

(١) التبيان، ص١١٣.
(٢) م. ن.
(٣) م. ن.
(٤) م. ن.

الحصار وجلاً مما أظهرته رعيتهم من تمسك بأذيال المرابطين بما شاهدوه فيهم من دين وعدل ومساواة في الأخذ والعطاء.

وقد تحدث أمير غرناطة عن هذه الناحية بوضوح قائلاً: «وإنما وجست نفسي من الرعية لطمعهم في حَطِّ المغارم، وللذي شاع من الزكاة والعُشْرِ عند المرابطين»[(1)].

وأمام هذا الوضع المزري الذي ظهر به أمراء الأندلس وهم أمام أعدائهم لم يتورعوا من الاستمرار في خلافاتهم ومهاتراتهم الباردة، بل لم يتورع البعض منهم من السقوط في وحل الخيانة والاتصال بالأعداء كما فعل ابن رشيق.

يضاف إلى هذه الأوضاع السيئة انعدام الثقة بين هؤلاء الأمراء ورعاياهم، وتخوفهم من تدخل أمير المسلمين، الذي يقود دولته على أسس من أحكام الشرع الإسلامي الحنيف، هذه الأحكام التي يخشاها الطغاة وزعماء الطوائف، وتتمسك بها الشعوب الإسلامية ومنها الأندلسية آنذاك وترغب في العيش تحت ظلالها.

ومن الأوضاع السيئة التي شعر بها أمير المسلمين: شِحَّةُ الإمدادات التموينية بعد أن قطعت مدينة مُرْسِيَة إمداداتها للمرابطين، وثبوت اتصال المتغلبين عليها بالأعداء، وأيضاً تململ أمراء الطوائف

---

(١) التبيان، ص١٢٠.

وضجرهم من طول فترة الحصار وإطلال فصل الشتاء، الذي بحلوله سيخلق ظروفاً جغرافية قاسية. وتخلصاً من العواقب السيئة لمثل هذه الأوضاع المحيطة بالمرابطين ارتأى أمير المسلمين أن يخفف الضغط عن هذا الحصن ويرفع الحصار، فاسحاً المجال لمن تبقى فيه من النصارى للنجاة بأنفسهم والهروب من قبضة الأسد.

لذلك تراجع المرابطون إلى مدينة لورقة التي تبعد مسافة نصف يوم عن هذا الحصن، بعد حصار دام أربعة أشهر. ومن هناك أخذ يراقب حركات ألفونسو الذي جمع من الصليبيين أمماً لا تُحصى لإنقاذ المحاصرين في لييط، وهذا ما إن علم بانسحاب المرابطين حتى تسلل بقواته إلى حصن لييط وخرّج مَن كان فيه من بقايا القوات التي كانت تعمل على بث الرعب في المناطق القريبة منه، ومن ثَم أحرق الحصن وعاد أدراجه إلى طليطلة مسرعاً خشيةً من مواجهة المرابطين، بل إن ابن أبي زرع في (روض القرطاس) يروي أن ألفونسو لم يجرؤ على الوصول إلى الحصن إلا بعد أن جاز أمير المسلمين البحر إلى المغرب، ولم يشأ أمير المسلمين أن يأمر بمتابعة قوات ألفونسو وذلك لأمرين:

الأول: علمه بأن أقصى ما يتمناه ألفونسو وجيشه استنقاذ من تبقى من الحصن من النصارى والنجاة من مواجهة المرابطين.

الثاني: ما آل إليه حال أمراء الأندلس من الخلاف والتدابر وموت الهمم.

وإلى هنا تنتهي أحداث الحصار وأخبار الحملة الثانية التي قام بها أمير المسلمين تلبيةً لدعوة إخوانه في العقيدة ومناصرتهم على عدوهم.

ولا بد من إلقاء نظرة على نتائج هذه الحملة وتأثيرها على مسار جهاد المرابطين ونظرتهم للمواجهة العسكرية في الأندلس.

نتائج العبور الثاني وحصار حصن لييط:

على الرغم من كل العوائق التي تسبب بها ملوك الطوائف في وجه هذه الحملة فإنها حققت الكثير من النتائج الإيجابية والتي منها:

اجتثاث خطر القوات المتمركزة في حصن لييط، الواقع في أراضي المسلمين وبين ظهرانيهم، واستيلاء المعتمد بن عباد على الحصن بعد انسحاب ألفونسو السادس، وضمه إلى ملكه، وبذلك تخلص المعتمد من هذا الخطر المحدق.

وبهذا يكون المعتمد قد حقق نصراً كاملاً لا تشوبه أي شائبة، ولاسيَّما إذا أضفنا إلى استيلائه على حصن لييط تخلصَه من ابن رشيق المتمرد في مدينة مرسية والقبض عليه.

لكن أمير المسلمين لم يكن ينظر إلى الأمور من الزاوية التي ينظر منها ابن عباد، إن يوسف بن تاشفين كان يحمل آمال أمة وأمانة دعوة، إنه لا يرضى بالاستيلاء على حصن أو الانتصار في معركة، إنه يريد أن يحقق السيادة الكاملة لأمته ويزيل أي خطر محدق بها، إن يوسف بن تاشفين كان يطمح بإعادة الأندلس بكاملها إلى أهلها المسلمين الذين

أخرجوا منها بالقوة والإرهاب، لهذا لم تكن نتيجة هذه الحملة ملبية لآمال أمير المسلمين.

ومن نتائج هذه الحملة أن أمير المسلمين ازداد يقيناً بأن أمراء الطوائف غير مخلصين في جهادهم، وهم غير معنيين بمصير المسلمين في الأندلس، وإنما كان همهم وعنايتهم تدور في فلك المحافظة على عروشهم، وما يؤمن لهم الظهور بمظهر الملوك والأمراء وتحت أي راية كانت.

وإضافة إلى ذلك لمس أمير المسلمين عدم صدق أمراء الطوائف في تعاونهم مع المرابطين من أجل قضية بلادهم وعقيدتهم.

إلا أن عزاءه كان في هذا التأييد الشعبي الواسع وهذه الرغبة الملحة من علماء الأندلس بالانضواء تحت راية المرابطين للعيش تحت ظلال الشريعة الإسلامية التي يحكم بها المرابطون.

وبذلك فتحت قلوب أهل الأندلس للمرابطين وأميرهم قبل أن يتقرر ضم هذه البلاد إلى دولتهم، ولا شك أن هذا يذكِّرنا بصفات الفاتحين الأولين الذين كانت تفتح لهم القلوب قبل أن تفتح لهم أبواب المعاقل والحصون.

وعلى كل حال فقد قرر أمير المسلمين العودة إلى المغرب بعد أن جرد «من عسكره جيشاً ينيف على أربعة آلاف فارس وبعثه إلى بَلَنْسِيَة وأردف يمده عسكراً عظيماً قدم إليه محمد بن تاشفين إلى جهة بلنسية

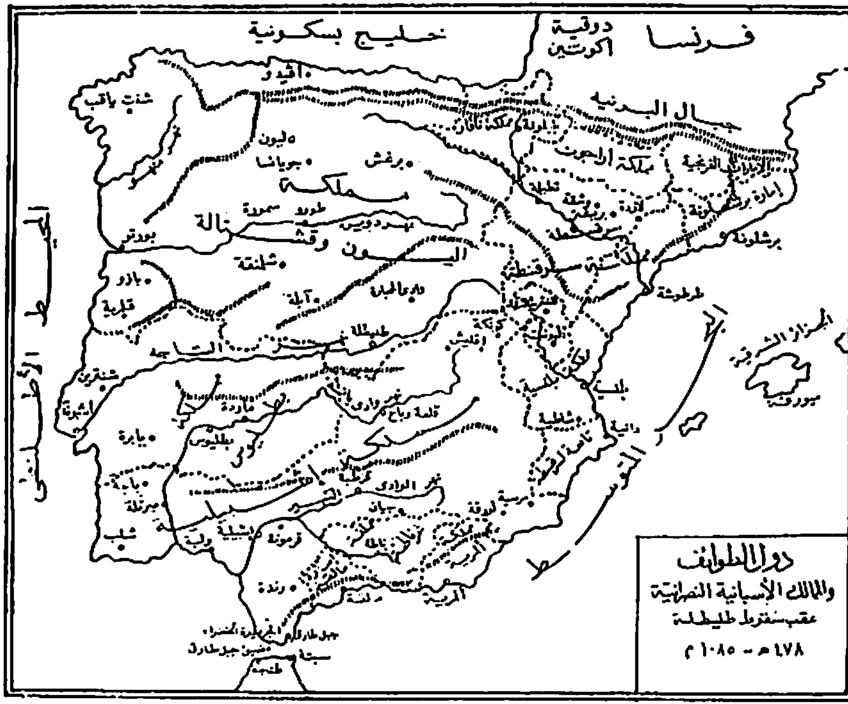
وانصرف من هناك إلى العُدوة ـ المغرب ـ»[1].

وبإرسال هذه القوات يكون أمير المسلمين قد دخل في معركة أخرى مع النصارى تدور حول مدينة بلنسية التي أنشب بها القمبيطور حرب عصابات، بغية استلابها والسيطرة عليها، وسنفرد لهذه المعركة التي استمرت بضع سنين فصلاً لها. وبعد أن ترك أمير المسلمين هذه الجيوش في الأندلس عاد إلى بلاده وفي نفسه من أمر الأندلس وأمرائها (المقيم المقعد)[2] لما عاين من انحراف عن جادة الإسلام، وتمزق في الصف، وتشتت في القوى، وركون إلى الأعداء الظالمين، والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

وما كان ليوسف بن تاشفين أن يقبل بهذه الحال، وهو الذي تربى على حب الإسلام وأمة الإسلام وضحى ومعه المرابطون بكل نفيس من أجل أن يسود الإسلام بكل تعاليمه في دنيا المسلمين، لذلك كان لا بد من أن يعيد المرابطون دراسة استراتيجية جهادهم في الأندلس على ضوء تجاربهم التي خاضوها هناك.

* * *

(١) الحلل، ص٧٠.
(٢) المراكشي، المعجب، ص١٩٩.



خريطة الأندلس في عهد ملوك الطوائف

الفصل السابع

العبور الثالث الى الأندلس

وعزل ملوك الطوائف

الفصل السابع

العبور الثالث إلى الأندلس

وعزل ملوك الطوائف

أسباب العبور الثالث ٤٨٣ للهجرة:

أظهر المرابطون من النكاية في العدو والدفاع عن المسلمين وحماية الثغور ما صدق بهم الظنون وأثلج الصدور وأقر العيون، فزاد حب أهل الأندلس لهم، واشتد خوف ملوك الروم منهم، ويوسف بن تاشفين في كل ذلك يمدهم بالجيوش والخيل ويقول في كل مجلس من مجالسه:

«إنما غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استيلاءَهم على أكثرها وغفلةَ ملوكهم وإهمالهم للغزو، وتَواكُلَهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة، وإنما هَمٌّ أحدهم كأس يشربها وقَيْنَة تُسمعه ولهو يقطع به أيامه، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في هذه الفتنة ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة إنما همّ أحدهم فرس يروضه ويستفرهه، أو سلاح يستجيده أو صريخ يلبي دعوته»[1].

---

(١) المراكشي، المعجب، ص٢٢٦.

هذه هي همة أمير المسلمين وتطلعاته أن ينقذ بلاد المسلمين وأن يستعيد من الإسبان ما استلبوه أيام فتنة ملوك الطوائف، وأن يوحد الصفوف ويجمع القوى، وكان أمله أن يكون أمراء الأندلس بمستوى هذه التطلعات والآمال؛ فينبذوا خلافاتهم ويصلحوا ذات بينهم ويدركوا الأخطار المحيطة بهم فتسمو هممهم وترتفع معنوياتهم وتتآلف قلوبهم.

وقد بذل في هذا الباب من الجهود والمساعي ما فيه الكفاية لتنبيه الغافلين وتذكير العاقلين، فهاهو ذا ما إن تنتهي معركة الزلاقة عام ٤٧٩هـ حتى جمعهم في مجلس أخوي فوعظهم ونصحهم. يقول أحد ملوك الطوائف: «وأمرنا بالاتفاق والائتلاف وأن تكون الكلمة واحدة، وأن النصارى لم تفترسنا إلا للذي كان من تشتتنا، واستعانة البعض منهم على البعض. فأجابه الكل أن وصيته مقبولة، وأن ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري إلى الحقيقة»[١].

وعلى الرغم من إدراك هؤلاء الحكام لكل هذه المعاني وإظهارهم القبول لهذه النصيحة لكنهم لم يعملوا بمضمونها، فأعاد عليهم نصحه ثانيةً بعد أحداث حصن لييط بقوله: «أصلحوا نياتكم تُكْفَوا عدوَّكم»[٢].

لكن هذه النصائح القيّمة كانت تذهب أدراج الرياح، فما إن يعود أمير المسلمين إلى المغرب حتى يعود حكّام الطوائف إلى سيرتهم

---

(١) التبيان، ص١٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٢٢.

السابقة، وبهذا الإصرار على الغي والضلالة فشلت جهود أمير المسلمين الرامية إلى الإصلاح ورصّ الصفوف وتوحيد القوى، وأمام هذه الحالة غير المسؤولة ظهر ملوك الطوائف على حقيقتهم السابقة التي عهِدَها فيهم عدوهم، مما أطمعه أن يعود إلى سياسته القديمة المتمثلة بشن الغارات وإرهاب العُزَّل من السلاح واستخدام الإعلام المبرمج، وإطلاق الشائعات والتهديد المقرون بحملات التخريب والنهب والسبي، ثم إرسال الرسل والوفود للمطالبة بالأموال وإغراء ملوك الطوائف وأمرائهم بعضهم ببعض، كما كان الحال قبل عبور المرابطين إلى الأندلس، فيخضع حكام الطوائف لهذه السياسة ويرتمون في أحضان أعدائهم ويعقدون معهم الاتفاقيات السرية ويدفعون لهم الأموال مقابل كَفِّ عاديتهم عنهم.

وهذه السياسة التي كان يعمل بها حكام الطوائف، كانت تغضب الشعوب المسلمة وتزيد من حماسها وتأييدها لأمير المسلمين الذي أغاظته هذه السياسة المنافية لتعاليم الإسلام، والمخالفة لوصاياه لهم بتوحيد الصفوف والاجتراء على العدو ومقابلة هجماته بهجمات مضادة، والثبات على الحق والمدافعة عن العرض والأرض والمال.

لكن هذه المعاني لم تجد لها آذاناً صاغية عند حكام الطوائف بل لم تمنعهم من التعاون مع النصارى، وقد تصدى لهم علماء الأمة وقضاتُها بالنصح والتذكير بمصالح الأمة وحقوقها المترتبة عليهم لكن هؤلاء ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ [نوح: ٧].

وأمام هذا الانحراف السياسي الذي تلبس به هؤلاء القوم بتعاونهم مع النصارى، أخذت شعوب الأندلس تتحين الفرصة للخلاص من هذا الوَهْنِ الذي أصابهم بسبب هذه القيادات العاجزة عن قيادة الأمة في تلك المرحلة، وقد عبر عن حالة التربُّص بالحكام المتعاونين مع أعداء الدين والوطن وبشّر بالخلاص منهم الشاعر السميسري بقوله:

رجـونـاكـمْ فمـا أنصَفْتُمـونـا   وأمّلنـاكُـمُ فخَـذَلْتُمـونـا
سنصبـرُ والـزمـانُ لـه انقـلابٌ   وأنتـمْ بـالإشـارةِ تَفهمـونـا

وقد قاد هذه المرحلة الجهادية علماء المسلمين في الأندلس وصاروا هم لسانَ حال الرعية المعبرَ عن حالها وآمالها وتطلعاتها حتى ارتفعوا إلى مستوى القادة في أنظار شعوبهم، فحمل هؤلاء العلماء العاملون أمانة الأمة في أعناقهم منذ أيام أبي الوليد الباجي المتوفى عام ٤٧٤هـ.

وتطلع الجميع في أنظارهم إلى ابن الإسلام المخلص لقضية الجهاد ابن تاشفين، وأخذوا يبينون له خداع هؤلاء الملوك وعَجْزَهم عن حماية مصالح الأمة، وتفريطهم في واجباتهم تجاهها، وانغماسهم في المعاصي وتعاطي الخمور والإمعان في اللهو، وأن حياة القصور الباذخة التي يحياها هؤلاء الحكام لم تكن من الكسب الحلال وإنما هي أموال المسلمين المسروقة باسم الضرائب والمُكوس والغرامات وما إلى ذلك، وأمام هذه المخالفات الشرعية الواضحة التي يرتكبها رؤساء

الطوائف، وإلحاح شعوب الأندلس وعلمائها من خلال وفودهم إلى ابن تاشفين للتخلص منهم وتدارك البلاد قبل سقوطها بيد الأعداء الإسبان الذين تساندهم أوروبة الصليبية والبابوية. . . وأمام هذا الواقع المؤلم لم يعد أمام أمير المسلمين سوى سلوك أحد هذين الطريقين:

الأول: أن يحافظ على علاقاته الودية مع أمراء وملوك الطوائف، ويستمر في إسداء النصح والمواعظ لهم لعلهم يتخلون عما هم فيه من الغفلة والانحلال ويعودون إلى تعاليم دينهم وخدمة أمتهم على ما في هذا الخيار من إغضاب الرعية والعلماء والمجاهدين في الأندلس، والمخاطرة الأكيدة بمصير الأندلس المسلمة.

الثاني: أن يحمل أعباء الجهاد في الأندلس على عاتقه بكل ما تعنيه هذه الكلمة من مواجهة للنصارى الإسبان الذين تساندهم أوروبة الصليبية بكنائسها وبابويتها، وإغضاب ملوك الطوائف ومواجهة تحالفهم مع ملوك إسبانية مقابل إرضاء المسلمين وسلامة الأمة.

وبعد أن استنفد يوسف بن تاشفين كل طاقاته في سبيل انتشال حكام الطوائف مما هم فيه من الفرقة والخلاف، وتبصيرهم بظروف المرحلة التي تعيشها الأمة آنذاك لم يعد أمامه سوى سلوك الطريق الثاني وتوطيد العزم لتنفيذه، وتحقيق آمال الأمة ورضا الله تعالى والأجيال اللاحقة. وتلبيةً لدعوات وفود الأندلس المتعاقبة إلى أمير المسلمين تدعوه فيها لتدارك المسلمين وتُظهر له مداخلات الطوائف مع النصارى فأخذ يعد عدة الجهاد للمرة الثالثة في الأندلس، بعد أن فرغ من تفقد بلاده

المغرب ومتابعة سيرة الولاة والقضاة والتأكد من تمسكهم بمنهاج الكتاب والسنة؛ كما اعتاد أن يفعل ذلك في كل عام خدمة للأمة وتنفيذاً لأوامر الدين وتحرياً للعدل وتأدية الحقوق.

محاصرة طُلَيْطُلَة وموقف حكام الطوائف:

وفي مدينة سَبتة أكمل أمير المسلمين الاستعدادات وعبر البحر للمرة الثالثة عام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م، وقد رافقه في هذه الحملة أشهر قواد المرابطين.

ويبدو أن أمير المسلمين رغب أن يفتح باب الجهاد على مصراعيه هذه المرة وأن يدع فرصة لأمراء الأندلس لمراجعة حساباتهم والالتحاق بركب الجهاد والثأر للمسلمين من أعدائهم، واستعادة حقوقهم السليبة، ومهاجمة العدو في عقر داره وإزالة حاجز هيبة الأعداء من نفوسهم «فسار حتى نزل طليطلة وحاصرها والفنش بها وهتكها»[1].

وواصل سيره إلى الشمال حيث هاجم كثيراً من المدن الواقعة شمال عاصمة قَشْتالَة، وحاصر مدينة قلعة رباح، وبعث الخوف والرعب في قلوب النصارى الإسبان، الذين لاذوا في حصونهم مختبئين، بعد أن كانوا يهاجمون أرض المسلمين في الأندلس، لكن الذي حصل أن أمراء الطوائف لم يغتنموا هذه الفرصة وينخرطوا في صفوف المجاهدين، بل

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص٩٩.

إنهم لم يستقبلوا المرابطين بما يتوجب عليهم من عون ومساعدة لجيش المسلمين. ولم يستقبل المرابطين سوى المعتمد بن عباد ثم عاد إلى بلاده، وأمام هذا الموقف المتخاذل الذي اتخذه أمراء الطوائف من قضية الجهاد، ونظراً لمناعة الحصون ووعورة البلاد في الأندلس اضطر ابن تاشفين إلى رفع الحصار عن طليطلة لما يتطلبه فتحها من وقت وجهد، علماً أن النصارى بقيادة ألفونسو وعلى الرغم من تخاذل حكام طليطلة لم يتمكنوا من دخولها إلا بعد تحالفات وأعمال تخريبية وحصار دام سبع سنين.

ولم يكن ابن تاشفين غافلاً عما يقوم به حكام الطوائف من تحركات مريبة مع النصارى، بل كانت تتوالى عليه الأخبار بما «يغيظه ويحقده»[١] خاصة من أمير غرناطة.

وهكذا يقف أمراء الطوائف مرة ثانية موقفاً غادراً كان من آثاره الحد من نتائج حملات الجهاد وجعلها غير حاسمة، مما ألزم أمير المسلمين أن يأخذ بفتاوى علماء المسلمين القائلة بعدم شرعية استمرار رؤساء الطوائف بالحكم ومواقع قيادة المسلمين.

أسباب عزل حكام الطوائف:

لم يكن لحكام الطوائف أي مبرر لما اتخذوه من مواقف مخالفة

---

(١) الحلل الموشية، ص٧١.

لرغبة شعوبهم وتعاليم دينهم، وذلك بتقاعسهم عن واجب الجهاد والاستمرار والثبات على تكاليفه.

وقد يكون النجاح الذي حققه المرابطون في جهادهم وتضحياتهم السخية في الأندلس، وحياة الجد والعمل التي يتحلى بها هؤلاء المؤمنون، وما أدت إليه من تعلق مسلمي الأندلس بأمير المسلمين بعد أن انكشف لهم عجز أمرائهم وانحرافهم عن جادة الحق والصواب قد يكون ذلك من العوامل التي أثارت أمراء الأندلس وسهلت عليهم سلوك طريق التعاون مع الأعداء للمحافظة على عروشهم. وقد يكون هذا النص أحد المعالم المهمة التي توضح لنا تلك الصورة التي تعبّر عن نفسيات هؤلاء الأمراء تجاه المرابطين: «فحسدهم ابن عباد وغيره من الرؤساء بقلّة إنصافهم وكثرة بغيهم واختلافهم، فاعتقدوا بهم المكر وأضمروا لهم النكث والغدر وخاطبوا ألفنش سراً أن يسعوا على المرابطين سراً وجهراً ويصيّروهم له طُعمة على أن يتركهم على ما بأيديهم عمالاً ويجبون له من الرعية أموالاً فوقع الاتفاق على ذلك وشرعوا في تدبير الأمر من هنالك»[1].

والظاهر أن قيام حكام الطوائف بالتعاون مع النصارى للوقوف بوجه مسيرة الجهاد الظافرة قد بدأ بعد عام ٤٨١ هـ أي بعد عمليات حصن لييط، حيث عاينوا تحول الرعية عنهم وانضمامهم إلى صف المرابطين

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١٠٤.

وعطف يوسف على مطالبها، وتأييده للإصلاح ورفع الجور عنها، مثلما لاحظوا تغيُّر أمير المسلمين عليهم بعد تفريطهم بواجباتهم وانشغالهم بمشكلاتهم الخاصة على حساب مصلحة الأمة، لذلك بدأت اتصالاتهم بألفونسو لإعاقة مسيرة الجهاد وحَرْفِها عن مسارها المقرر لها، والعمل على كسب الوقت لإتمام ذلك التعاون، ومن جانب آخر لإظهار صعوبة الاستمرار بالعمل الجهادي والحملات العسكرية المنظمة أمام مناعة حصون الأندلس.

ففيما يتعلق بالجانب الأول فقد استغل المعتمد بن عباد على سبيل المثال نيّات المرابطين الطيبة وإخلاصهم لحركة الجهاد لتحقيق مآربه الشخصية وأطماعه التوسعية على حسابهم، فوجّه الحملة المرابطية الثانية ليتخلص من ابن رشيق وليضع يده على إقليم مرسية، بعد أن يتخلص من فرسان حصن ليط[1].

ويؤيد هذا الاتجاه ما ذكره ابن الكردبوس بقوله:

«وحادوا بأمير المسلمين عند انصرافه من العُدوة وهي الدخلة الثانية عن الجهاد وأغروه بغَرناطة ومالِقَة والمرِيَّة وشغلوه بها عن مكافحة الأعادي، كي يتم تدبيرهم على مَهَل ويتأهب العدو لما أمل»[2].

---

(١) حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص٢٩٩.
(٢) ابن الكردبوس، نص تاريخ الأندلس، ص١٠٤.

والحقيقة أن يوسف بن تاشفين ومن خلال تجربته العسكرية الطويلة وخبرته بمداخلات الأمور وتوجهات الرجال، كان مدركاً لكل ما يحيط به، فقد عرف ما بَيَّنَه ابن عباد فيما يتعلق بالجانب الثاني فقال: «قصد ابن عباد أن يُرينا صعوبة قتال الحصون المنيعة وأن بلاده ذات معاقل صعبة»[1].

والأمر الذي يجب الانتباه إليه هنا هو أن أمراء الطوائف لم يكن بوسعهم القيام بأي خطوة ضد تعاون المرابطين مع الأندلس، وذلك لما لهذا التعاون من تأييد إسلامي واسع وعلى المستويات كافة تأييداً يحصي على أمراء الطوائف أنفاسهم، وتجنباً لأخذهم بالشبهة كان أمير المسلمين يتعامل معهم على الظاهر ويَكِلُ سرائرهم إلى الله تعالى مما يدل على قوة إيمانه وثقته بنفسه، وإلا فقد كان «سر القوم في الغدر به عنده واضح، ومكرهم في الإيقاع به لائح، لكنه جرى على مدادهم كأنه لا يعلم حقيقة اعتقادهم، وإنما كان غرضه أن يتبين للمسلمين مذهبهم وسعيهم الذميم وطلبهم، كي تقوم له الحجة عليهم عند امتداد يده في عقابه إليهم»[2].

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن أمير المسلمين قد تردد كثيراً في تنفيذه قرار خلع حكام الطوائف تورُّعاً منه لما أعطاهم من عهد سابق،

---

(١) حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص٢٩٩.
(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١٠٥.

بأن لا يتدخل في شؤونهم لكنه وبعد أن استنفد جهوده في محاولة إصلاحهم والارتفاع بهم إلى مستوى الأحداث التي كانت تعيشها الأندلس، لم يعد بإمكانه مخالفة الفقهاء والقضاة وأعلام المسلمين الذين أصدروا فتوى حاسمة قالوا فيها: «إن هؤلاء الرؤساء لا تحل طاعتهم ولا تجوز إمارتهم لأنهم فساق فجرة فاخلعهم عنا، فقال لهم: وكيف يجوز لي ذلك وقد عاهدتهم، وارتبطت معهم على إبقائهم؟ فقالوا له: إن كانوا عاهدوك فهاهم قد ناقضوك، وأرسلوا إلى ألفنش أن يكونوا معه عليك حتى يوقعوك بين يديه ويعود أمرهم إليه فبادرهم بخلعهم بجمعهم، ونحن بين يدي الله المحاسبون فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون، فإنك إن تركتهم وأنت قادر عليهم أعادوا بقية بلاد المسلمين إلى الروم، وكنت أنت المحاسب بين يدي الله تعالى»[1].

فهل بعد كل هذا يلام أمير المسلمين على عزله هؤلاء الرؤساء الذين أعطوا أسوأ مثل للعلاقات القائمة فيما بين المسلمين، وفيما بينهم وبين أعدائهم، بعد أن استباحوا دماء رعاياهم وأموالهم، وفرَّطوا في بلادهم وترامَوا في أحضان النصارى على حساب مصلحة الأمة ووحدتها، ينفذون إرادة العدو ويحرصون على رضاه ويتآمرون على الجهاد والمجاهدين، مستمرئين كل أنواع المعاصي والفجور؛ فأسقطوا هيبة المسلمين في صدور أعدائهم بعد أن كان من أكبر أماني بلاطات

(١) م. ن، ص١٠٧.

أوروبة أن تُقبل لهم سفارة في حاضرة الخلافة، أو أن تحظى لهم بعثة من أبناء أو بنات ملوكها بالقبول في معاهد قرطبة، فيتباهون على أبناء جلدتهم بمشاهدة مدينة الزهراء أو الزاهرة وأمثالها في بلاد المسلمين، وهنا لا بد من القول: إننا وبعد كل هذه الأدلة نخالف قول من يقول: إن المنقذ - ابن تاشفين - قد تحول إلى غاصب ونرفض كل أحكام المستشرقين وآراء المدرسة الإسبانية التي أوردها بعض مؤرخينا في هذا الباب.

فهل كان نور الدين محمود غاصباً عندما ضم مدينة دمشق إلى دولته لتكون سداً في وجه الصليبية؟!.

وهل كان صلاح الدين الأيوبي معتدياً عندما وحَّد مصر مع الشام لتقوية صمود جبهة الحق والإيمان والانتقال بالجهاد إلى حالة الهجوم على العدو واقتلاعه من أرض الإسلام؟!.

لم يكن هؤلاء القادة العظام متجاوزين لمنهج الأمة وقوانينها، بل كانوا في تصرفاتهم الخالدة تلك يمثلون إرادة الأمة وحالة الانتفاض على الضعف والفرقة والتخلف، وكانوا هم يد الدين الباطشة بكل المارقين عن تعاليم الإسلام، والمتهاونين بمصير الأمة.

إذن كان يوسف بن تاشفين يبعث أمة من جديد عندما أخذ بفتاوى علماء المسلمين بوجوب التخلص من هؤلاء الحكام العاجزين عن

حماية الأمة وأداء رسالتها، وقد جاءت فتوى الإمام أبي حامد الغزالي[1] بإجازة تدخل المرابطين في شؤون الأندلس، وفتوى الإمام الطُّرْطُوشِي في مصر إجماعاً للأمة وتأييداً للقائد المسلم يوسف بن تاشفين قلّما نجد مثيلاً له في تاريخنا الطويل.

وكان اتصالُ يوسف بن تاشفين بالخلافة العباسية آنذاك على الرغم من بعد المسافة والفارق الكبير في القوة بين دولة المرابطين الفتية والخلافة المغلوبة على أمرها دليل صادق على حرصه على وحدة الأمة الإسلامية وانتظام شملها.

اتصال يوسف بن تاشفين بالخلافة العباسية وإعلان الولاء لها:

كان الإسلام ولا يزال يغذي في نفوس أبنائه حب الوحدة والجماعة، ويحذرهم من حياة يعيش فيها كل إنسان هائماً على وجهه، يفعل ما يشاء ويردد شعار من يشاء ليس له شريعة يقف عند حدودها، حتى سميت مثل هذه الحياة بالجاهلية التي يعيش فيها الناس كالسوائم والأنعام، وقد بلغ اهتمام النبي ﷺ بانتظام شمل المسلمين وحثهم على حياة التعاون والجماعة والانقياد لأحكام الشرع الإسلامي والتبرؤ من كل العصبيات المخالفة لذلك فقال: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عميّة يغضب لعصبية

---

(١) ينظر: عنان، دول الطوائف (الملحق).

أو يدعو لعصبية أو ينصر عصبية فقُتل فَقَتْلَتُهُ جاهلية»[1].

وقد استوعب المسلمون هذه المعاني في كل مراحل تاريخهم المشرق العزيز حتى أصبح هذا الأمر من البديهيات التي يؤمن بها كل مسلم غيور على دينه وأمته إلى أن أطلَّ هذا القرن فجلب على المسلمين من البلاء والفرقة والتمزق والضياع، ما تجاوز ما حصل في عهد الطوائف من نكبات ومحن، ففي الوقت الذي كان فيه حكام الطوائف يسبغون على أنفسهم الألقاب العظيمة ويتمرد كل منهم على جيرانه من أبناء ملته ويتحالف مع أعداء أمته، كان يوسف بن تاشفين كلما ازداد ملكه ازداد تواضعه والتصاقه بجماعة المسلمين وإمامهم، إن اتصال يوسف ابن تاشفين بالخلافة العباسية في بغداد على ما هو عليه من القوة والاستغناء يعد درساً بليغاً في مستوى الفهم الواعي والعميق لمصلحة الأمة.

وقد ورد الكثير من الروايات حول هذا الاتصال إذ يرى البعض أن جماعة المرابطين كانت ترى نفسها جزءاً من كيان المسلمين الواحد الذي يجب أن يكون خاضعاً للخلافة رمز الإسلام السياسي الذي يلتف حوله المسلمون، لذلك ترى كتب[2] النقد أن المرابطين دعوا على منابرهم للخليفة العباسي منذ أن تبلورت جماعتهم في المغرب قبل قيادة يوسف بن تاشفين، ويجعلون ذلك منذ عام ٤٥٠ هـ ثم أكد ذلك يوسف

(١) مسلم، كتاب الإمارة.
(٢) حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص١٣٤.

بسفاراته التي أرسلها إلى بغداد فحقق صلة المرابطين مع الخلافة بشكل عملي وربط روحي.

وذكر أن يوسف بن تاشفين اتصل بالخلافة العباسية بعد معركة الزلاقة عام ٤٧٩هـ إذ أرسل سفيراً إلى بغداد هو (أبو بكر عتيق بن عمران ابن محمد بـن عبد الله الـربيعي)[١] قاضي مدينـة سـبتة، ويبدو أن هـذا الرسول استطاع الوصول إلى الخليفة المقتدي بأمر الله العباسـي الذي حكم بين عامي ٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ[٢]، وأدى سفارته ثم عاد إلى بلاده يحمل رد الخلافة إلى يوسف بن تاشفين، وفي طريق عودته قتله بدر الجمالي أمير الجيش الفاطمي في مدينة الإسكندرية عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م لأنه وجد معه كتباً من الخلافة العباسية إلى أمير المسلمين، وبهذا يتبين أن أمير المسلمين لم يتسلم رد الخلافة العباسية في هذه السفارة.

وقد أورد ابـن عِذاري في كتابـه (البيـان المُغْرِب)[٣] إشـارة حول اتصال أميـر المسلمين بالخليفة العباسي واهتمام المرابطين بالخلافـة وتتبع أخبـارها، ووردت إشـارة أخرى إلى ذلك في لقاء يوسـف بن تاشفين بمجموعة من العلماء والفقهاء الذيـن «قالوا له: يجب أن تكون ولايتـك من الخليفة لتجب طاعتك على الكافة، فأرسـل إلى الخليفـة

---

(١) السامرائي، علاقات المرابطين، ص٣٣٠.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٢٣.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٢٨.

المستظهر بالله رسولاً ومعه هدايا كثيرة، وكتب معه كتاباً يذكر فيه ما فتح الله عليه من بلاد الفرنج وما اعتمده من نصرة الإسلام، ويطلب تقليداً بولاية البلاد، فكتب له تقليداً من ديوان الخلافة بما أراد ولقب أمير المسلمين وسُيِّرَت إليه الخُلَعُ فسُرَّ بذلك سروراً كثيراً»[١].

وقد كانت سفارة أمير المسلمين هذه إلى دار الخلافة برئاسة عبد الله بن محمد بن العربي المعافري وولده القاضي (أبو بكر) وذلك عام ٤٨٥هـ أي بعد مقتل السفير الأول القاضي عتيق بن عمران[٢].

وقد قامت هذه السفارة بدور إعلامي ممتاز للتعريف بجماعة المرابطين والجهاد الذي يخوضونه ضد الصليبية التي ترفع شعار (الاسترداد) ومن أعمال هذه السفارة أيضاً أنها دعت للمرابطين في موسم الحج في مكة والمدينة، والتقى رجال هذه السفارة بكبار علماء المسلمين أمثال الإمام الغزالي في بغداد والطرطوشي في الإسكندرية أورد ذلك ابن خلدون بقوله: «فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس، فعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة. . وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم، وخاطبه الإمام الغزالي، والقاضي أبو بكر الطرطوشي يحضّانه على العدل، والتمسك بالخير، ويُفتيانه في شأن

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١٠/ ١٤٥.
(٢) السامرائي، علاقات المرابطين، ص٣٣٠.

ملوك الطوائف بحكم الله»[1].

وقد استطاع أبو بكر بن العربي خلال هذه السفارة أن يحصل على علوم غزيرة من خلال لقاءاته مع أعلام المسلمين في المشرق حتى أصبح من الفقهاء المشهود لهم بغزارة العلم وحسن الفهم فقصده طلاب العلم من جميع أنحاء الأندلس، وذلك بعد عودته إليها وثبت على هذا النهج بالتدريس والدعوة والإفتاء إلى أن توفي في عام ٥٤٣هـ/ ١٠٤٨م بينما كانت وفاة ابن العربي الوالد في الإسكندرية وهو في طريق العودة إلى المغرب.

المباشرة بعزل ملوك الطوائف:

أ ـ عَزْلُ أمير غَرْناطة عبد الله بن بُلَقين ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م:

وهو ابن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصَّنْهاجي[2] أمير غَرناطة إحدى دويلات الطوائف في الأندلس.

اتصالات ابن بلقين ومفاوضاته السرية مع النصارى:

ذكرنا سابقاً أن أعداء أمتنا لم يجترئوا عليها إلا إذا عصفت بها رياح الفرقة والخلاف وأن هذه الحالة في كل العصور كانت الآفةَ التي تدفع

---

(١) انظر كتاب الطرطوشي إلى ابن تاشفين في ملحق هذا الكتاب (ن).
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ٢٦٢.

الأمـة ثمنها غالياً من دمائها وممتلكاتها وكرامتها، ولـم يكن ألفونسـو السادس جاهلاً بحال المشاركين في حصار حصن لييط عام ٤٨١هـ، إذ إن بعضهم كان على اتصال به كابن رشيق أمير مُرْسِيَة مثلاً، لذلك ظن أن فرصته قد حانت لابتزاز حكام الطوائف وإعادتهم إلى ما كانوا عليه قبل الزلاقة، وهذا ما دفعه إلى إرسال قائده البرهانس إلى عبد الله بن بلقين يطالبه بالجزية والضرائب التي لم تدفع له منذ أيام الزلاقة عام ٤٧٩هـ، ويستخدم هذا البرهانس من أساليب التهديد والوعيد والمخادعة ما يعبر عن حقيقته الصليبية، التي مازال طَبْعُ عالم الغرب عليها إلى اليوم، فلا يـؤمن لهم جوار ولا يوثق لهم بعهد، إلا إذا كـان ذلك مقروناً بالقـوة والاستعداد الدائم للتضحية، وبدل أن يعمل أمير غرناطة على تنسـيق مواقفه مع إخوانه أمراء الأندلـس نراه يستسـلم لابتزاز هذا الصليبي، بصورة لا تليق بأمير مسلم، وكأن معركة الزلاقة لم تكن وكأن المرابطين ليسوا مع هؤلاء الأمراء يشكلون رِدْءاً وكَنَفاً لإخوانهم أهل الأندلس.

وهـو بهذا الموقف الانهزامي يدفع الأموال للبرهانس، مخالفاً بذلك عزة المسلمين ورغباتهم ومغضباً المجاهديـن ومخيبـاً آمالهم، ولكن (من يهن يسهل الهوان عليه) فالذي يهون عليه التفريط بخيرات الأمة يهون عليه تضييع مصيرها، فبعد أن يدفع الأموال للنصارى يعقد تحالفاً معهم، ويسجن معارضيه ويشردهم، متعللاً بالأعذار الواهية. يتضح ذلك من قوله في كتابه (التبيان) حيث يقول: «وكان البرهانـس زعيم جهات غرنـاطة والمرِيّة، وكان ألفونش وكله أمر الجهتين...

فأرسل إلي أولاً عن نفسه ينذر بدخول وادي آش وأنه لا يرده عن ذلك إلا الفداء لها»[1] فيتدارس أمير غرناطة رسالة البرهانس مع حاشيته ويقرر عقد اتفاقية معه «فاجتمع رأينا على إرضائه باليسير، مع معاقدته ألا يقرب لنا بلداً بعد أخذ هذه الدفعة فارتبط إلى ذلك»[2].

ويبدو أن البرهانس كان يعتمد سياسة الخطوة خطوة ويعمل لحسابه الخاص ولحساب سيده، فما أن يحصل على غنيمته حتى يفتح باباً آخر للابتزاز فهو يقول: «ها أنا قد صلح جانبي! والأوكد عليكم أمر ألفونش الذي هو على الحركة عليكم وإلى غيركم، فمن أنصفه نجا ومن حاد عنه فسلّطني عليه، إنما أنا عبده لا بد من إتيان مرغوبه والوقوف عند أمره، ولا ينفعكم هذا الذي أعطيتموني إن خالفتموه، وليس بنافع إلا فيما يخصني دون رئيسي إن حد لي ضده»[3].

وببلادة ظاهرة يستسلم ابن بلقين لنصح عدوه ويقول: «فعلمنا أن قوله حق يقبله العقل»[4].

ويدرك البرهانس هذه الحالة في نفسية أمير غَرْناطة فيرسل إلى صاحبه أن يوجه رسولاً إلى غرناطة يطالب بالضريبة، فإن لم يستجب ابن

---

(١) ابن بلقين، التبيان، ص١٢٣.
(٢) م. ن.
(٣) م. ن.
(٤) م. ن.

بُلقين لمطالب ألفونسو يتكفل البرهانس بالانتقام منه.

وبهذه المهازل المدروسة يتمكن النصارى من ابتزاز حكام الطوائف وامتصاص أموال المسلمين من أيديهم لما عرفوه عنهم من حب للبطالة وانغماس في اللهو، أما عندما يواجهون المرابطين فإنهم لا يطمعون بأكثر من الاعتصام في حصن أو قلعة تحميهم من عاصفة المجاهدين. فهل نلوم بعد كل هذا شعب الأندلس عندما يرفض أمراءه هؤلاء ويتمسك بدعوة المرابطين؟!.

وعلى كل حال فإن ألفونسو أخذ بوصية قائده البرهانس وأنفذ رسولاً إلى غرناطة يطالب بضريبة ثلاثة أعوام.

يقول ابن بلقين: فقال له رسوله: «لم آت عن ذلك كله إلا أن تعطيه ما فاته عنك من جزية ثلاثة أعوام بثلاثين ألفاً لا ينقص منها شيء»[1].

وبعد تردد يقبل ابن بلقين بشروط ألفونسو، لكنه يطلب عقد اتفاقية معه بأن لا يعترض له بلداً، مع علم ابن بلقين بأن هؤلاء قوم لا يحجزهم عهد ولا ميثاق، ولا يردعهم سوى السيف والقوة، يقول: «فأجاب إلى تلك المعاقدة حرصاً على أخذ المال، ونحن لا نشك أنه يغدر»[2].

---

(١) م. ن، ص١٢٥.
(٢) المصدر السابق نفسه.

وبعد أن يقبض الأموال ينتقل إلى المرحلة الأخرى، كما هو مدروس ومخطط له من قبل، ولتمزيق صف المسلمين، وليفتح الباب للتدخل في شؤون البلاد، وليبقى هذا الباب مفتوحاً لسلب المزيد من الأموال، يستخدم رسول ألفونسو الخبث والمكر، وهذا الخلق الذميم ثابت إلى اليوم في سياسة الغرب بأجمعه عندما يتعامل مع قضايا العالم، يقول: «وقال لي عند ذلك رسوله: يقول لك ألفونش: إن كنت تريد أن تخلط مع هذه المعاقدة استعانة به على شيء من بلادك التي عند ابن عباد فهو يجدُّ لك فيها»[1] فأجبته: «إني لا أعين على مسلم أحداً»[2].

ففي نظر ابن بلقين أن الأموال التي يقدمها للعدو لا تعين على مسلم، وإغلاق جبهة غرناطة في وجه المجاهدين لا تسهل للعدو العبور إلى جيرانه المسلمين، لكنه مع كل ذلك يدرك أن هذه الموازنات مرفوضة عند أمير المسلمين الذي طالما دعا أمراء الطوائف إلى وحدة الصف وتنظيم المقاومة الجماعية ضد العدو والابتعاد عن المعاقدات الفردية والاتفاقات السرية.

وقد صرح بتخوفه من المرابطين بقوله للبرهانس: «إنا مغرورون في هذه الفعلة معك وستدركنا تباعاتها عند المرابطين ونطالَب بذلك»[3].

---

(١) م. ن، ص١٢٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

إلا أن مبعوث ألفونسو يطمئنه ويجيبه بما يزيل عنه حالة التخوف تلك ويشجعه على سلوك غير سبيل المؤمنين ويقول له: «متى أدرككم في ذلك منه طلب فعليَّ الذّبُّ عن مدينتكم»[1].

وإيغالاً في طريق الغي والخروج عن الصف وتحسباً لساعة الحساب التي بدأ يشعر أنها قد اقتربت، لما شاهده من علامات الاستنكار في وجوه قومه وأبناء إمارته بدأ يرمم القلاع ويشيد الحصون ويزيد في البنيان ويجمع الأقوات والذخائر لإطالة زمن الحصار ما أمكن فيقول: «وأعددت لكل حصن قوته لأزْيَدَ من عام»[2].

موقف أهل غَرْناطة من مفاوضات أميرهم مع النصارى:

هذه السياسة التي انتهجها أمير غَرْناطة بتحالفه مع النصارى أغضبت الشعب المسلم في إمارته وأخذ يتطلع لفرصة الخلاص من هذا الحاكم، وقد عبر الشاعر السميسري عن الرفض الشعبي لهذه السياسة بقوله:

حالفَ أذْفونشَ والنَّصارى ... فانظرْ إلى رَأْيِهِ الدَّبِيْرِ
وشادَ بنيانه خِلافاً ... لطاعة اللهِ والأميرِ
يبني على نفسه سَفاهاً ... كأنَّه دُودةُ الحريرِ

---

(١) المصدر السابق، ص١٢٦.
(٢) م. ن، ص١٢٠.

دعــوه يبنــي فســوفَ يَــدْري إذا أتـــتْ قُــدرةُ القَــدِيْــرِ[1]

ولم يكتف أهل غرناطة بالإنكار على أميرهم بل أخبروا أمير المسلمين بكل تحركاته المريبة مع النصارى، وكان الدور البارز في هذا الباب للقاضي أبي جعفر القليعي قاضي غرناطة الذي عارض سياسة أميره، مما عرضه للسجن والقيد، ولم يطلق سراحه حتى تعهد بأن لا يتدخل في السياسة، وأن لا يتحدث إلا فيما يعنيه حيث قال للأمير: «نعم أنا ألتزم الروابط وأسلك سبيل العافية إن شاء الله تعالى... فلم يكن إلا أن انطلق وطار إلى أمير المسلمين بالشكوى»[2].

وممن أنكر على ابن بُلّقين سياسته تلك (مؤمل) أحد أتباعه، الذي أرسل إلى أمير المسلمين يخبره بكل ما يجري في غرناطة، وفي مدينة قرطبة «اجتمع أمير المسلمين بالمعتمد وسأله عما لهج الناس به، من مداخلة الرومي فشهد بذلك»[3].

وبعد أن اجتمعت كل هذه الأدلة التي تبين خروج عبد الله بن بلقين عن الجماعة كان لا بد من الحزم في هذا الأمر وتدارك حصون غرناطة، قبل أن تفتح أبوابها للنصارى، فكتب أمير المسلمين إلى ابن بلقين كتاباً

---

(١) ابن أبي زرع، ص٩٩؛ دول الطوائف، ص٣٤٠.
(٢) التبيان، ص١١٩.
(٣) م. ن، ص١٤٧.

يقول فيه: «أقبل إلينا ولا تتأخر ساعة واحدة»[1].

وكان أمير المسلمين قد كتب إليه كتاباً يوبخه فيه على سوء مسلكه ويهدده بالانتقام للرعية الذين أكثروا من التألم والاستياء من توجهاته المشينة. وقد جاء في ذلك الكتاب الذي يرد فيه أمير المسلمين على بعض تبريرات ابن بلقين لتوجهاته السياسية ما يأتي: «أما مداهنتك وقولك الباطل قد علمناه، وستعلم عن قريب كيف ترضى الرعية وما تصنع إذا زعمت أنك نظرت لها، ولا نُسَوِّفُ فإن هذا قريب غير بعيد»[2].

لكن أمير غرناطة لم يستجب لكل هذه الرسائل مستنداً في ذلك إلى مناعة حصونه وإلى ما نسج من تحالفات مع القوى النصرانية، أما رأي شعبه وتعاليم دينه فلم يكن لها أي دور في توجهاته. وبعد كل ما تقدم زحفت قوات المرابطين إلى غرناطة، فأغلق ابن بلقين الأبواب في وجهها، وقد كانت مهمة القوات المحيطة بمدينة غرناطة حراستها «من دخول عسكر براني»[3] قد يرسله ألفونسو تنفيذاً للمعاهدات السابقة، وقد استمر الحصار لمدة شهرين، مما زاد في غليان المعارضة لعبد الله ابن بلقين واتساعها؛ لتشمل خدمه وأتباعه مما يدل على انعزاله التام عن مواطنيه وعن عمق الهاوية التي وقع فيها، شأنه شأن أي حاكم يستند على

---

(١) م. ن، ص١٤٧.

(٢) م. ن، ص١٢٧.

(٣) المصدر السابق، ص١٤٩.

القوى الخارجية في تثبيت حكمه فما إن تحين للشعب فرصة الخلاص حتى يقطع كل الحبال الموصولة بالأجنبي، التي يستند إليها عرشه، فيهوي إلى الدرك الأسفل مع الهالكين، تتبعه لعنة التاريخ والأجيال اللاحقة لما أضاع من حقوق واستباح من محرمات، ولما قطع المرابطون حبال ابن بلقين مع النصارى وسدوا كل المنافذ التي تدخل منها الريح الخبيثة، ولما التفت ابن بلقين إلى شعبه هل يجد فيه عوناً وسنداً لما هو فيه من المحنة؟ وجد أن الشعوب المسلمة لا تسلك سوى طريق واحد هو الطريق الذي ارتضاه لها خالقها وسلكه نبيها ﷺ، وبعد أن عاين ما عمي عنه، وظهر له ما خفي، أخذ يقسم شعبه إلى طبقات ويقيّم مواقفهم من المرابطين على الشكل التالي: «أما الجند من البربر فكانوا مغتبطين بهم. . ، ومن كان من التجار وأهل البلد، فكانوا على نية أنهم مع من سبق. . ، وأما الرعية، فبخ بخ ذلك ما كانت تبغي، طمعاً منها في الحرية، وأنها لا يلزمها غير الزكاة والعشر، وأما الرقاصة من المغاربة الذين كانوا عماد الحضرة وبهم نمسك الحصون فهم أول من أطاع. . ، وأما العبيد والصقالبة، فالعبيد الأعلاج أول من عصا. . . حتى الخدم من النساء والخصيان كلٌّ طامع في إقبال الدنيا عليه. . .»[1].

«ولم يتبين لي خلاف أهل بلدي إلا والأمر قد فات»[2].

---

(١) م.ن، ص١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) المصدر السابق، ص١٥٣.

ونظراً لهذا الموقف الداخلي، ولانقطاع الاتصالات مع النصارى من حلفائه، أصيب بخيبة أمل كبيرة ولم يعد أمامه سوى التسليم للمرابطين، وهذا ما فعله ابن بلقين بعد أن أعطاه أمير المسلمين الأمان في النفس والأهل، ووكل أمره إلى جرور الخادم، إلى أن ينتهي من تسليم كل ما يتعلق بشؤون الإمارة وممتلكاتها إلى المرابطين، وقد أدى ابن بلقين كل ما طلب منه، ولم يماطل في شيء من الأمور التي تدخل ضمن اتفاقية التسليم، ويذكر هذا الأمير أنه أصيب بحالة من الجزع الشديد في تلك الفترة، وأن أخوف ما كان يخيفه، هو التقييد بالحديد، يزيد من جزعه ووجله ذلك شعورُه بما ارتكب من جريمة الاتصال بأعداء أمته ودينه وأعداء إخوانه المرابطين يقول: «ولم يبق إلا طلب السلامة بحشاشة النفس وهي غنيمة في مثل هذا الوقت الحاد. . . قد أشرب قلبي من الخوف والجزع ما لم أعهده قط»[1].

ويبدو أن هذا الأمير لم يتعرض لتجارب قاسية في حياته، لذلك لم يحاول المراوغة والتفلت من تبعات ما وقع فيه من ورطة، فلم يثبت عليه ما يخالف السجلات الموجودة في إمارته، إذ إن هذه المحنة التي يمر بها قد شغلته عن التفكير بأي شيء غير النجاة من الموت فيقول: «فأذهلني ذلك عن كل ما لي فيه صلاح من تقدمة النظر في مال أو غيره بل كانت نفسي آكد علي، لم تعمل حساب من يعيش، لاسيَّما من لم تَجْرِ

(١) م. ن، ص١٥٤ـ١٥٥.

عليه قبل ذلك محنة ولا أكربه الدهر برزية»[1].

وكان يؤلمه ما يردده جرور، مبكتاً له عن جمعه للأموال التي لم تنفعه، ولم يبق له منها شيء، كما يظهر تشكيه من جرور لتشديده في الطلب وتضييق الخناق عليه.

وفي شهر رجب من عام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م[2] دخل المرابطـون غرناطة بعد أن هاجموا طليطلة عاصمة النصارى القَشْتاليين وبعثـوا الرعب في نفوس جندها فقطعوا بذلك حبالهم مع ابن بلّقين.

ودخل أمير المسـلمين قصر غرناطـة وأقام فيه مدة يصلح أحوالها، وينظم أمورها، وقد ألغى كل الضرائب والمكوس والغرامات التي كانت تثقل كاهل المسلمين فيها، وأقر ما أقره الشرع فقط من الأعشار والزكاة، فعمت الفرحة في هذه الإمارة وتحققت أماني أبنائها في الحياة الهانئة الكريمة كسائر إخوانهم المسلمين في دولة المرابطين.

وفي هذا العام أيضاً أتم المرابطون السيطرة على أعمال ابن بلّقين وبلاده كافة بعد أن فتحت لهم أبـواب القلاع والحصون مـن قبل الشـعب المسـلم فيها، فاستولـوا على البيـرة[3] وجَيّـان والمنكب وضواحيها

(١) المصدر السابق، ص١٥٥.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة أخبار غرناطة: ١/ ١٤٠.

(٣) مفاخر البربر، ص٤٣.

وما اتصل بها من قلاع وحصون، وبهذا تكون غرناطة أول إمارة أندلسية تخضع للمرابطين، وقد تم ذلك من دون أن يُراق فيها أي دم مسلم فأصبحت لبنة جديدة في بنيان دولة المرابطين وشوكة في حلوق الأعداء، وصارت قاعدة للمجاهدين بعد أن كانت مزرعة للنصارى يجنون منها الأموال والذخائر ويسرقون خيرات شعبها المسلم، بعد أن تخلى أميرها عن قيم الإسلام وتعاليمه.

أما مصير أميرها عبد الله بن بلقين فقد دوّن كل مفردات في تاريخه كتاب (التبيان) ولنأخذ مقتطفات من مذكراته توضح لنا ما آل إليه حاله.

نهاية أمير غرناطة:

يحدثنا عبد الله بن بلقين عن تطورات الأحداث بعد دخول المرابطين غرناطة وإنهاء عمليات تسليم مقاليد أمورها لهم، أنه زود بثلاثمئة دينار وثلاثة خدم وخمس دواب، ثم أمر بالمسير إلى الجزيرة الخضراء والانتظار فيها، يرافقه وفد من المرابطين يشيعونه ويؤانسونه ويتكفلون أموره، وأنه كان في سفره ذلك جزعاً ويسأل الله أن يكفر عنه السيئات طوال الطريق، ومن الجزيرة الخضراء أمر بركوب البحر إلى مدينة سبتة في المغرب وقد صادف ذلك أن كان البحر هائجاً، مما زاده قلقاً على قلق، ومن سبتة نقل إلى مدينة مكناسة الزيتون حيث استقبله الأمير سير وآنسه وزوده بمئة دينار.

ثم وافاه كتاب من أمير المسلمين يطمئنه فيه، ويعده بكل جميل،

مما زاد من اطمئنانه، وأخيراً أمر باستيطان مدينة أغمات «فأتيناها ولقينا من أمير المسلمين كل جميل وأنزلنا بداره الصغرى في الحريم. . . ووجدناه بعد الله أرفق بنا وأحسن مذهب فينا من الناس أجمعين»[1].

وفي مدينة أغمات يصارع ابن بلّقين نفسه ويحاول أن يلزمها جادة الرشاد والرضا بقدر الله تعالى «ورُضْناها بما تستمر عليه من ترك الشره، والتنزه عما فات، وإعمال قطع اليأس عما قيل، واليأس عما فات يعقب راحة»[2].

«ثم اقتصرنا على النظر فيما يخصنا، وأنزلنا أنفسنا بمنزلة من لم يكن قط إلا على هذه الحالة، واعتبرنا بمن كان قبلنا ونظرنا لمن هو دوننا»[3].

ويحاول أن يغتنم من دنيـاه لآخرته قبل الموت وحلول الفوت فيختم تأملاته تلك بحديث عن النبي ﷺ فيقول:

(سـئل النبي ﷺ عن علامة انشـراح القلب للإسلام فقال: «هو التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل لقاء الفوت»)[4]. وبسلوك ابن بلقين هذا المنهج ما يدل على أنه قد

---

(١) التبيان، ص١٧١.
(٢) م. ن، ص١٧٣.
(٣) م. ن، ص١٧٦.
(٤) م. ن، ص١٧٥.

اعتبر من تجربته. ومن المحنة التي مر بها، وأيقن أن الدنيا فانية، وأن كل ملك زائل، وأن الملك لله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء.

٢ ـ عزل أمير مالِقَة تميم بن بلَقين ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م:

وهو شقيق الأمير عبد الله حاكم غَرناطة، وشريكه في وراثة ملك أبيهما، وشبيهه في الأسباب التي أدت إلى خلعه.

ففي العام الذي استسلم فيه عبد الله بن بلقين تم القبض على أخيه تميم، واعتقل وسيق إلى المغرب.

ومن أهم أسباب اعتقاله: المداخلات السياسية مع النصارى[1] والتي لم يسلم منها أحد من حكام الطوائف، والخشية من أن يفتح أبواب قلاعِه وحصونه للنصارى وقد قيل لأمير المسلمين: «ثقفت صاحب غرناطة وأخوه منه وإن تركته يتصرف في بلده طلبك بالثأر وأفسد عليك ما ترجو صلاحه مع شِدتِه وحِدَّته، فهو بذلك موسوم معروف»[2].

يضاف إلى ذلك ما قدمه أهل إمارته من شكاوى ضده إلى أمير المسلمين. «وأن أهل مالقة رفعوا إليه حينئذ أفعالاً قبيحة وأيادي سيئة أسداها إليهم»[3] فاتفقت الأسباب على أخذه، ونقل إلى السوس في

---

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: ٦/ ١٨٧.
(٢) ابن بلقين، التبيان، ص١٦٣.
(٣) م. ن، ص١٦٤.

جنوب المغرب، وفي طريقه إلى هناك التقى أخاه عبد الله في مدينة مكناسة، وحدثه عما قاساه من أهوال، ومن مواقف أهل إمارته (مالقة) التي اتخذوها ضده ثم نقل إلى منطقة السوس، وهناك عفا عنه أمير المسلمين، «وبالغ في إكرامه، وكان معه في عافية ورغد من العيش، وفوض أمره إلى ولاة السوس»[1].

ويعزل الأمير تميم انتهى حكم آل زيري في الأندلس، الذي امتد منذ تغلب آل زيري على غرناطة أيام الفتنة بعد سقوط الخلافة الأموية عام ٤٢٢هـ حتى عام ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م.

* * *

وفي هذا العام بعد أن فرغ أمير المسلمين من أمر غرناطة عاد إلى مراكش في المغرب وفوض أمر الأندلس إلى قائده الكبير سير بن أبي بكر[2]. ومن مراكش انطلق أمير المسلمين بجولاته التفقدية لشؤون رعيته، وكما عهد عنه ذلك: يسمع شكاوي المظلومين، ويؤازر المستضعفين، ويصغي لنصح الناصحين، يراقب تصرفات عماله وسيرة قضاته، حتى إذا اطمأن إلى سلامة البلاد وحسن توجه الولاة وثقة الناس به، عاد إلى دراسة أوضاع الجهاد وشؤون الجبهات.

وقد أسفرت هذه الدراسة عن وضع مخطط شامل لشؤون

---

(١) م. ن.

(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٠٠.

الأندلس، يوضح فيه نهاية للحكام الخارجين عن صف الأمة الإسلامية ويقطع فيه كل الحبال الموصولة مع القوى الخارجية وأعداء الأمة. فنقل أمير المسلمين مقر قيادته إلى مدينة (سَبتة) عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م ليكون على اتصال مباشر مع جنده ويراقب التطورات العسكرية في الثغور عن كثب.

وبعد إتمام كافة الاستعدادات وضعت الخطط وقسمت المهام وسُمي القادة[١]، فكانت القيادة العامة في الأندلس للأمير سير بن أبي بكر، وكانت مهمته مملكة بني عباد في (إشبيلية) وهي أكبر دويلات الأندلس في عهد الطوائف كما هو معلوم، فإذا فرغ من بني عباد يتوجه نحو مدينة بَطَلْيَوس عاصمة بني الأفطَس وكُلف القائد أبو عبد الله بن الحاج بإخضاع قرطبة وفيها الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون.

- وعُين القائد أبو زكريا بن واسينو على عسكر ثالث ومهمته إمارة (المرِيَّة) عاصمة بني صمادح.

- وأُعدَّ جيش رابع بقيادة جرور الحشمي وجهته مدينة (رُنْدَة) وفيها يزيد الراضي بن المعتمد، وقد توجهت هذه القوات إلى تنفيذ أهدافها فكانت مجريات الأحداث على الشكل الآتي:

---

(١) الحلل، ص٧٢.

٣ ـ إمارة المرِيَّة ٤٣٣/٤٨٣هـ ـ ٤٨٤هـ وعزل أميرها ابن صمادح التجيبي:

كانت هذه الإمارة تحت حكم المعتصم بالله أبي يحيى محمد بن معن بن صمادح التجيبي وقد تغلبت هذه الأسرة على المرِيَّة منذ عام ٤٣٣هـ[١].

ويدأ حكم المعتصم بالله بن صمادح منذ عام ٤٤٣هـ واستمر حتى عام ٤٨٣هـ أي أن ملكه دام أكثر من أربعين عاماً، صرفها في ميادين اللهو والملذات وبين مجالس الشراب والشعر وقد اجتمع حوله كثير من الشعراء يُنشدونه بما يحلو له ويظهرون ولعهم به وبمجالسه، فأجادوا في مدحه إجادة بالغة، ومن ذلك قول ابن عمار فيه:

وإني إذا غَرَّبْتُ عنك فإنما جبينك شمسي والمرِيَّةُ مَشْرِقي[٢]

أما صاحب (القلائد) فقد وصف هواياته ومشاغله بما يأتي: «واشتغل بترميق أساطيله وتنميق أباطيله، لم تمتد له همة إلى مزاحمة ملك في ملكه، ولم يزد على مراعاة أمر جواريه وفلُكه»[٣].

كان المعتصم بالله بن صُمادح ينظم الشعر الذي يصف به مجالس

---

(١) ابن عذاري: ٣/ ١٦٧.
(٢) قلائد العقيان، ص٤٧.
(٣) م. ن.

شرابه وندماءه»، ولم يزل على تلك الحال من الفضلة حتى دهمته قوات المرابطين، لتحالفه مع أمير غرناطة، ولتخلفه عن لقاء أمير المسلمين مع أمراء الأندلس في غرناطة، مما أوجب العمل على عزله قبل ابن عباد. ويحدثنا أمير غرناطة عنه قائلاً: «كان بتخلفه موسوماً بالنفاق، ولأنه معاقدي على ذلك وأن تخلفه لا يكون إلا عن اتفاق»[1].

وكانت بلاد ابن صُمادح كسائر بلاد الأندلس ترقب وصول المرابطين إليها لتعلق ولائها بهم، وللتخلص من منكرات حكامها ومظالمهم، فما إن وصلت فرقة المرابطين المكلفة بإخضاع المرية والتي يقودها القائد[2] أبو زكريا بن واسينو إلى معاقل ابن صُمادح حتى فتحت لهم أبوابها واستقبلهم الناس بالطاعة والولاء، وقد انهار ملك ابن صُمادح «وتناثرت معاقله أجمع، حتى بلغ العسكر إلى باب المرِيَّة»[3].

وكان خبر خضوع غرناطة للمرابطين واستسلام أميرها قد وقع على ابن صُمادح وقوع الصاعقة، فمرض منذ ذلك الحين، لما علم من سوء العاقبة واقتراب ساعة الحساب، على التفريط بحقوق الأمة وامتهان إرادتها، ولما شعر بدنو أجله، استخلف ابنه الملقب عز الدولة، وأوصاه قائلاً: «استمسك بإشْبِيلِية ما استطعت، فإن رأيت ابن عباد قد خرج

---

(١) التبيان، ص١٦٧.
(٢) الحلل، ص٧٢.
(٣) التبيان، ص١٦٧.

فلا تتربص ساعة واحدة، وانْجُ بنفسك إلى القلعة، وادخل البحر بما قدرت عليه من ذخائرك إذ لا مطمع لك في البقاء بعده»[1].

وقد فاضت نفسه أثناء محاصرة المرابطين لقصبته، ولما سمع أصوات المحاصرين قبيل وفاته قال: نُغُِّصَ علينا كل شيء حتى الموت، فبكت إحدى حظاياه فرمقها بطرفه الكليل، وقال وهو يتنفس الصعداء من حر الغليل:

تَـرَفَّـقْ بـدمعِـكَ لا تُفْنِـهِ   فبيـن يـديـك بكـاءٌ طـويـلُ[2]

ويبدو أن اتصالات ابن عباد مع النصارى قد جعلت المرابطين يحتاطون لهذا الأمر ويوقفون أعمالهم العسكرية في بعض الجبهات ومنها المرية، وربما رحلوا عنها إلى حين[3].

«وفتر الطلب على المرية للشغل بما حدث بأمر ابن عباد وأنه أوكد الأشياء»[4].

وكان عز الدولة ابن المعتصم بن صُمادح قد أخذ بوصية أبيه بعد وفاته «فما بقي بعده إلا ستة أشهر ويلغه خلع المعتمد»[5]، فاختار إحدى

(١) م. ن.
(٢) قلائد العقيان، ص٤٨.
(٣) ابن عذاري: ٣/ ١٦٨.
(٤) التبيان، ص١٦٨.
(٥) ابن عذاري: ٣/ ١٦٨.

سفن أبيه التي اعتنى في بنائها وشحن فيها جميع ما قدر عليه من ممتلكاته.

ونظراً للتأييد الشعبي الذي يحظى به أمير المسلمين في المرية لم يستطع عز الدولة تنفيذ خطته بالهرب حتى تكتم في أمره وادعى أنه ذاهب «إلى أمير المسلمين بهدية يهدئ بذلك أهل المرية، فسروا بفعله وقالوا له: هذا هو الصواب قبل أن يحل بك ما حل بغيرك»[1].

وبهذا الخداع استطاع عز الدولة أن يفلت من أهل المريّة وينجو دون أن يحاسب عما كسبت يداه، فالتجأ إلى قلعة بني حماد، تحت رعاية المنصور بن الناصر في منطقة بجاية[2] ثم دخل المرابطون المرية عام ٤٨٤هـ، فأصبحت إحدى ركائز الجهاد الأندلسي بعد أن نبذت لهوها وحطمت حاناتها ورفعت راية المرابطين التي كتب عليها:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد لاحظت أن بعض المؤرخين يضعون دخول المرابطين إلى المرية قبل خضوع إشبيلية، وبعضهم الآخر يضعون ذلك بعد فتح أو إخضاع إشبيلية، والصواب أن دخولها كان على وفق التسلسل الذي ذكرناه، والله أعلم.

---

(١) التبيان، ص١٦٨.

(٢) القلائد، ص٤٨.

٤ ـ المعتمد بن عباد ملك إشْبِيلِيَة:

أهم ميزاته الشخصية والسياسية:

إن إشبيلية وملكها المعتمد بن عباد تختلف في كثير من جوانبها عن باقي دول الطوائف، وذلك لما تميزت به هذه المملكة من سعة رقعتها وامتداد حدودها إلى عدة ممالك مجاورة مما جرَّها إلى الاشتراك في كثير من الأحداث في تلك الفترة، ومثلما اختلفت إشبيلية عن غيرها من الإمارات الأندلسية، كذلك اختلف ملكها المعتمد عن كثير من أقرانه حكام الطوائف. فقد كان ملكاً شجاعاً أديباً شاعراً أصيلاً، لكنه لم يكن ذا التزام خلقي أو سياسي، وقد كان الشعراء رجال بلاطه المقربين وأركان دولته المعتمدين، فأولاهم كل رعاية، ومنحهم كل رتبة، وعمَّر بهم النوادي وأقام لهم المجالس، وأغدق عليهم المنح والعطايا، وإذا كانت النفوس قد (جُبلت على حب من أحسن إليها)، فإن هذه الفئة تجاوزت حد الحب والإعجاب إلى حالة الافتتان والهيام بهذا الملك الشاعر، حتى لم تعد ترى له قريناً أو مثيلاً بين الملوك والأمراء، يقول الفَتْحُ بن خاقان فيه:

«فأصبح عصره أجمل عصر، وغدا مِصْرُه أكملَ مصر، تُسفح فيه دِيَمُ الكرم... وكان قومه وبنوه لتلك الحلية زيناً... إن أقدموا أحجم عنترة العبسي، وإن فخروا أقصر عرابة الأوسي»[1].

---

(١) قلائد العقيان، ص٥.

بل إن من المعجبين بالمعتمد من يروي أنه بلغ مرحلة الكمال، وأن خصال الخير كلها قد جمعت فيه، حتى قال فيه صاحب كتاب (المعجب):

«وفي الجملة فلا أعلم خصلة تحمد في رجل، إلا وقد وهبه الله منها أوفر قِسْم، وضرب له فيها بأوفى سهم، وإذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدُها بل أكبرها»[1].

وهو عند الشعراء فوق هذا كله، فهو الربيع والهواء، بل إنه الأرض والماء، فإذا أصيب أو سجن فإن الدنيا ستصبح في خطر، وستحتجب الشمس ويمنع القطر، وعلى الناس أن ينتظروا الهلاك إن غاب، وهذا ما نقرؤه في قول الشاعر:

انفضْ يديك من الدنيا وساكنِها ... فالأرضُ قد أقفرتْ والناسُ قد ماتوا

والمعتمد عند شعرائه:

بحرٌ محيطٌ عهدناه تجيءُ له ... كنقطةِ الدَّارةِ السبعُ المحيطاتُ
ويدرُ سبعٍ وسبعٌ تستميدُ به ... السبعُ الأقاليم والسبعُ السماواتُ

إلى هذا الحد كان المعتمد في أناشيد شعرائه لشدة ما غمرهم به من تكريم ومجالسة.

---

(١) المراكشي، المعجب، ص١٠١.

وعلى كل حال فإننا لا ننكر الخِلال الطيبة والخصال الحميدة، ونُثني على الجوانب المضيئة في شخصية المعتمد الأدبية والسياسية ولكن قبل الخوض في تلك الجوانب نقول: إذا أريد بهذا الإطراء والمديح لشخصية المعتمد، التغطية على الجوانب السلبية والمظلمة في هذه الشخصية، وإذا أريد بتمجيد شعر المعتمد وشعرائه الطعنُ بإخلاص المرابطين والغمز بمنهج وشخصية أمير المسلمين والتشويش على إنجازات الجهاد الذي أنقذ الأندلس، فهنا يجب تحكيم التاريخ والتمعن في سيرة المعتمد العملية وخياراته السياسية قبل الدخول في تفاصيل الأسباب التي أدت إلى عزله وسجنه في المغرب. فإذا كان المعتمد يختص ببعض صفاته عن أقرانه رؤساء الطوائف فإنه يحمل في المقابل كثيراً من عيوبهم وسقطاتهم، بل إنه يتحمل الوزر الأكبر لكثير من الفتن التي دارت، والبلاد التي ضاعت في أيامه. فعلى الرغم من أن المعتمد صاحب أكبر دولة من دول الطوائف، وصاحب السلطة الأدبية على باقي أقرانه فإننا نجده يدفع الضريبة إلى ألفونسو السادس، ويسارع إلى عقد الاتفاقيات معه، والتي كان أبشعَها وأكثرها إمعاناً في السقوط السياسي والانحراف عن جادة الصواب، تحالفُه مع ألفونسو أثناء حصاره لمدينة طُلَيْطُلَة التي هي من أكبر مدن المسلمين في الأندلس.

وقد كان ذلك التحالف يقضي بإطلاق يد ألفونسو في طُلَيْطُلَة المسلمة وقيام المعتمد بمهاجمة بلاد المتوكل بن الأفطس أثناء قيامه

بنجدة أهل طليطلة[1]، وقد نفذ المعتمد بنود هذا التحالف الظالم بحذافيره حتى تمكن ألفونسو من طليطلة واتخذها عاصمة لدولته، وأطلق على نفسه لقب الإمبراطور، ولم يعد يقبل من المعتمد الأموال التي كان يدفعها له، وإنما أراد أن يضم إشبيلية إلى مملكة قَشْتالة ويلحقها بطليطلة.

وبالرغم من كل الأحداث الخطيرة التي كانت تعصف بالأندلس آنذاك فإن المعتمد لم يتخل عن مجالس اللهو والشراب، مطلِقاً العِنان لشهواته ولذاته الفانية، مجاهراً بالمعاصي والابتذال ينشد لكأسه وجواريه ومعاصيه، فهاهو يصف أيامه ولياليه فيقول:

وكم ليلةٍ قد بتُّ أنْعُمُ جُنْحَها ... بِمُخصِبَةِ الأردافِ مُجْدِبَةِ الخصرِ
وبيضٍ وسمرٍ فاعلاتٍ بمهجتي ... فِعالَ الصفاحِ البيضِ والأَسَل السُّمْرِ
وليلٍ بِسَدِّ النهر لهواً قطعتُه ... بذاتِ سِوارٍ مثلَ منعطَفِ البدرِ[2]

ولم يكتف المعتمد بإظهار نشوته هذه لما بلغه من الإسفاف ووهْيِ الروح وضعفها، وانعدام الذوق الإسلامي الأصيل والخلق الكريم المحتشم، بل إنه يتمادى في وصف عوراته ومجالس لهوه فيتغنى بلياليه الحمراء وكؤوسه المترعة في مثل قوله:

---

(١) دول الطوائف، ص١٠٩.

(٢) قلائد العقيان، ص٦.

ولقد شربتُ الرَّاحَ يسطعُ نورُها   والليـلُ قـد مَـدَّ الظـلامَ رداءَ[1]

فكانت مجالسه لإدارة الراح وتعاطي الأقداح، فهو يزهو بمجالسه تلك، ويدعو جلساءه إليها، ويُجيز مادحيه بها.

وبقدر ما أسرف المعتمد في طلب المتعة والبطالة، أسـرف في تبذير أموال دولته على ندمائه وشعرائه مما تـرك أسـوأ الأثر في نفوس رعيته وعامة الناس من أبناء دولته، فضلاً عن أهل الدين والتقى الذين سئموا دولة بني عباد لما أظهر المعتمد من التهتك والشرب والملاهي، دون أن يراعي في ذلك ديناً أو عرفاً.

وعلى الرغم من رقة أشعاره وصفائها فإننا نجد الكثير من أفعاله تنطوي على الغدر وتنضح في الكثير من جوانبها بالغش والغلظة، وهذا ما ظهر جلياً في طريقة استيلاء المعتمد على مدينة قرطبة.

استيلاء المعتمد على قرطبة:

وذلك عندما استنجد به أميرها وقائدها عبد الملك بن أبي الوليد ابن جَهْوَر لصد غارات يحيى بن ذي النون أميرِ طُلَيْطُلَة، فاستجاب المعتمد لهذه الاستغاثة، وأرسل جنده إلى قرطبة بعد أن زودهم بخطة تعتمد المكر والخديعة للاستيلاء على هذه المدينة التي لا تزال تتمسك ببعض رسوم الخلافة، فما إن علم صاحب طليطلة بقدوم جيش إشبيلية

(١) م. ن.

حتى رفع الحصار عن قرطبة وعاد أدراجه. فلما ارتحل الجيش المهاجم تظاهر جيش المعتمد بالاستعداد للعودة إلى إشبيلية فتأهب عبد الملك لتشييعهم وشكرهم على حسن صنيعهم، لكنه فوجئ بأنهم أحدقوا بقصره في الصباح، وحاصروه ثم أسروه هو وإخوانه وأهل بيته ومعهم الشيخ أبو الوليد عمر بن جهور وكان مصاباً بالفالج، ثم حملوا إلى جزيرة شَلْطِيْش وأقاموا بها، ولم يلبث الشيخ ابن جهور أن مات في شَلْطِيش متأثراً بهذه المحنة، ولم يكن عبد الملك بن أبي الوليد حسن السيرة مع أهل إمارته لذلك تخلَّوا عنه ولم يدافعوا عنه أثناء محنته. وبهذا الشكل انتهى حكم بني جهور عام ٤٦٢هـ.

وقد فرح المعتمد بنجاح خطته تلك وأنشد مفاخِراً أقرانه رؤساء الطوائف باستيلائه على قرطبة حيث قال:

عرسُ الملوكِ لنا في قَصْرِها عرسُ ... كلُّ الملوك بها في مأتم الوَجَلِ
فراقبوا عن قريبٍ لا أبالكمُ ... هجومَ ليثٍ بدرع البأسِ مشتملِ[1]

وبهذه السياسة المخادعة ضم المعتمد قرطبة إلى مملكته.

وبالطبع لسنا ضد فكرة توحيد دول الطوائف حتى ولو تحت راية المعتمد، ولكن الأداء والأسلوب الصحيح يأتي بنتائج صحيحة.

(١) قلائد العقيان، ص١١.

قتل المعتمد لوزيره أبي بكر بن عمار الشاعر:

ومن أفعال المعتمد التي تدل على قسوته وغلظته قَتْلُه لشاعره ووزيره أبي بكر بن عمار. ومجمل هذه القصة أن المعتمد سخر من وزيره ابن عمار في إحدى قصائده وعرَّض بقومه، فردَّ عليه ابن عمار بقصيدة لاذعة، هجا فيها المعتمد وزوجته الرُّمَيْكِيَّة وأولاده، جاء فيها:

تَخيرتَها من بناتِ الهِجانِ رُمَيْكِيةً ما تُساوي عقالا
فجاءَتْ بكلِّ قصيرِ العِذارِ لئيمِ النَّجارينِ عَمَّاً وخالا..[1]

وقد نمت هذه القصيدة إلى المعتمد فلمَّا تمكن من ابن عمار الذي كان فاراً من أرض المعتمد آنذاك، جاء به إلى قرطبة على أقبح صورة ومن ثم ساقه إلى إشبيلية ودخلها على قَتَبٍ، وقيودُه ظاهرة والناس ينظرون إليه.

وقد توسل ابن عمار إلى المعتمد، وناشده الله أن يحقن دمه واستعطفه بكل مقال، ونظم له درراً من القصائد لكن كل هذه التوسلات لم تُجدِ نفعاً، وأقدم المعتمد على قتله بيده وهو يرسف بقيوده ويستدرُّ عطفه، وضربه المعتمد بالطبرزين حتى قتله وترك الطبرزين في رأسه، فعلَّقت الرميكية على هذا المنظر ساخرة بقولها: «قد بقي ابن عمار هدهداً ـ الطائر المعروف ـ»[2].

---

(١) م. ن.
(٢) المقري: ٢/ ٤٥١.

المعتمد وزوجته الرُّمَيْكِيَّة ويوم الطين:

وإذا كان المعتمد قد شغل عن منادمة خواص دولته بمنادمة العقائل والجواري، فإن أولى هذه العقائل حظيته اعتماد الرميكية، التي أسرف في سعيه وراء شهواتها، وأسرف كثيراً في سبيل تلبية مطالبها ورغباتها.

ومن ذلك قصتها المشهورة بـ(يوم الطين) «ذلك أنها رأت الناس يمشون في الطين، فاشتهت المشي في الطين، فأمر المعتمد فسحقت أشياء من الطيب وذرت في ساحة القصر حتى عمته، ثم نصبت الغرابيل وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب وعجنت بالأيدي حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريها»[1]. تشبهاً بالفقراء والفلاحين الذين يسيرون في الطين.

كل ذلك كان يفعله المعتمد وبلاد المسلمين في الأندلس مستباحة من قبل النصارى، وأهل ثغورها ما بين أسير أو طريد أو محاصر.

وإذا كان المعتمد قد استطاع أن يصور الأحداث التي عاشها في حياته بتصوير بارع وتعبير منمّق، يسانده في ذلك مجاميع من شعراء القصور، ممن اصطنعهم وأسبغ عليهم من أموال دولته، حتى صوروا لنا أيام سروره نعيماً مقيماً وخُلْداً باقياً، متناسين أن هذا النعيم لم ينغمس فيه

---

(١) نفح الطيب: ٢/ ٨٤٨.

سوى المعتمد وحاشيته من الشعراء والندماء والأتباع، أما باقي الشعب، فما عليه سوى دفع الضرائب وتنفيذ أوامر المعتمد، ومن خالف ذلك تعرض للأذى والعقاب.

والشعراء هؤلاء على أتم الاستعداد لرسم كل ما يجري من أحداث بشكل يُسوِّغ لرب نعمتهم أن يفعل ما يشاء، فقوله الحق وفعله الصواب، وإذا كان المعتمد قد استطاع أن يفعل هذا كله فإن التاريخ قد سجل لنا أنه لا يختلف كثيراً عن زملائه حكام الطوائف.

وإذا كان الشعراء قد أكثروا من مدح آل عباد، فإن هناك من غَضَّ منهم وعرض بهم، ومن هؤلاء الشاعر أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورقي - من مدينة لَوْرَقة - حيث قال:

تَعَزَّ عن الدنيا ومعروفِ أهلِها ... إذا عدم المعروف في آل عبّادِ
حللتُ بهم ضيفاً ثلاثة أشهرٍ ... بغير قِرًى ثم ارتحلتُ بلا زادِ[1]

وإذا كان المعتمد بن عباد وحاشيته وحكام الطوائف، قد قطعوا عيشهم بالتنعم واللذة، لاهينَ عن مصير بلادهم وشؤون مواطنيهم، فإن دعاة الإسلام وأهل الخير والجهاد، أنكروا تلك الحال المنافية لقيم الأمة وتعاليم الإسلام؛ ولذلك فإنهم ما إن شاهدوا يوسف بن تاشفين وعلموا تمسكه بالإسلام وتعاليم الشرع الحنيف، حتى مالوا إلى صفه متخلين

---

(١) نفح الطيب: ٢/ ٤٥٩.

عن حكامهم المنحرفين عـن الجادة، الغارقين بالعبـث والترَّهات من الأمور.

وإذا كان ثمة من يقول: إن حياة اللهو الباذخة التي عاشها حكام الطوائف ويعيشها الكثير من الحكام الذين هم على شاكلتهم، هي نتاج ثقافـة ومدنية فإننـا نقول: إن يوسـف بن تاشفين كان حجة على هذه الدعـوة، وإن الثقافة والمدنيـة والرقي الإنسـاني هو التمسـك بتعاليم الإسلام، وإقامة العدل وحماية الحدود ورعاية المواطنين، وهذا ما فرَّط به حكام الطوائف عندما تمسكوا بأهل الفن والذوق الناعم وجعلوا من قصورهم مرتعاً للجواري والغلمان وأهل الشعر والندماء، بينما أثبت يوسف بن تاشفين نجاحه الحضاري والعسكري عندما التزم تعاليم الشرع الإسلامي وقرَّب أهل العلم والدين، فوحَّد البلاد ونشر العدل وصدَّ الأعداء.

لذلك سرعان ما أدرك فساد حكام الطوائف، وأنكر عليهم حالتهم العاجزة عن تلبية متطلبات المرحلة التي يعيشونها.

وفي مدينة إشبيلية عندما حل ابن تاشفين ضيفاً على ابن عباد بعد معركة الزلاقة ردَّ بحزم على أحد أصحابه عندما أراد أن ينبهه إلى تأمل حال المعتمد وما هو عليه من النعمة فقال:

«الذي يلوح من أمر هذا الرجل ـ يعني المعتمد ـ أنه مضيع لما في يده من الملك، لأن هذه الأموال التي تعينه على هذه الأحوال، لا بد أن

يكون لها أرباب، لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً، فأَخْذُه بالظلم، وإخراجُهُ في هذه الترهات يعد من أفحش الاستهتار، ومن كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الأَجْوَفَين متى يجد همة في حفظ بلاده وضبطها، وحفظ رعيته والتوفر على مصالحها؟!

ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته هل تختلف فتقصر عما عليه في بعض الأوقات؟ فقيل له: بل كل زمانه على هذا، قال: أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظاً من ذلك؟ قالوا: لا، قال: فكيف ترون رضاهم عنه؟ قالوا: لا رضا لهم عنه، فأطرق يوسف وسكت»[1].

وبعد أن تعرفنا بشكل موجز إلى جوانب من شخصية المعتمد بن عباد وأعوانه، وخطه السياسي الذي كان ينتهجه في حكم البلاد، فلننظر الآن في الأسباب التي أدت إلى عزله عام ٤٨٤هـ ثم بعد ذلك نقله إلى المغرب، وسجنه في مدينة أغمات حتى وفاته عام ٤٨٨هـ.

عزل المعتمد بن عباد عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م:

منذ أن استولى أمير المسلمين على إمارة غرناطة، للأسباب التي ذكرناها، توجس ابن عباد وباقي ملوك الطوائف خِيفة من المرابطين، لكن يوسف ما كان ليقدم على أي إجراء ضدهم إلا بعد إعذار وإنذار،

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص١٢٠.

وبعد أن ثبتت اتصالات المعتمد بالأعداء بشكل يقين، ولما قدم ابن عباد إلى غرناطة للسلام على أمير المسلمين ورأى انتشار جند المرابطين فيها ولاحظ غضب يوسف على أمراء الطوائف، جزع جزعاً شديداً ونهض مسرعاً إلى بلاده يطوي البلاد والمسافات، ولما لاحظ المرابطون المعتمد على تلك الحال أشاروا على أمير المسلمين باعتقاله «فأبى حتى يلوح قِبَلَه ذَنْبٌ يؤخذ به»[1]. وبعد أن انصرف المعتمد أرسل أمير المسلمين في أثره القائد جرور الحشمي يقول له: «الأمير يحتاج إلى تذكارك بعض الأمر»[2]، لكن المعتمد لم يلبِ طلب أمير المسلمين وتابع سيره حتى وصل قرطبة، وفي طريقه كان يوحي لمن يشاهده من حكام الطوائف بالعودة إلى بلادهم، فقال لابن الأفطَس: «أُنجُ بنفسك فقد ترى ما حل بصاحب غرناطة وغداً بنا»[3].

ولما ظهر لأمير المسلمين نفور ابن عباد وتشككه، أرسل إليه يطلب منه القدوم عليه ويقول له: «نريد الاجتماع بك فيما نحن بسبيله»[4].

لكن ابن عباد امتنع ثانية عن تلبية هذه الدعوة، والتي ربما كان فيها تغيير لكثير من الأمور لو أن ابن عباد لبّاها، وقد كان عذر ابن عباد في

---

(١) التبيان، ص١٦٨.
(٢) م. ن.
(٣) م. ن، ص١٦٩.
(٤) م. ن.

ذلك النفور والامتناع خوفه من مصير مشابه لمصير صاحب غرناطة.

فلمّا علم أمير المسلمين ذلك طلب منه سد الثغور والعناية بالربط، وإلغاء الضرائب والمكوس والأخذ بالقوانين الشرعية الإسلامية التي يعمل بها المرابطون في دولتهم. «فامتنع ابن عباد جهده وبنى على الشر»[1] وأخذ في بناء الأسوار وعمل القنطرة فقال له ابنه الرشيد: «ألم أقل لك يا أبت: يخرجنا هذا الصحراوي من بلادنا إن أنتَ أوردته علينا؟! . قال: يا بني لا ينجي حذر من قدر»[2].

اتصال المعتمد السري بالنصارى:

يبدو أن المعتمد قد أوغل في طريق الشر والخروج من الصف، فراسل ألفونسو ملك إسبانية يستحثه على نصرته ومؤازرته لطرد المرابطين من الأندلس والعمل على تكوين حلف للقضاء عليهم، مقدماً له كل الإغراءات والتسهيلات في هذا السبيل، ولكن لحسن حظ المسلمين آنذاك، فقد وقعت رسائل المعتمد إلى ألفونسو بيد المرابطين، فأرسل إليه أمير المسلمين يحذره من التمادي في عداء المسلمين والتحالف مع أعدائهم، ويخبره بأن هذا المسلك السيّئ مكشوف، ويرفضه كل المسلمين وقال له: «ظفرت بكتبك إلى الرومي وإرسالك عنه»[3].

---

(١) م. ن، ص١٦٩.
(٢) الحلل، ص٧٢.
(٣) م. ن.

ومن العجب أن ابن عباد لم ينكر ذلك مع علمه أن هذا الأمر يحاربه كل المسلمين بما فيهم أهل مملكته إشبيلية لأنه مخالف لكل مصالحهم القريبة والبعيدة. ومما يدل على أن المعتمد قد قطع خطوات كبيرة في هذا الطريق، رَدُّه على أمير المسلمين بما يؤكد هذه الاتصالات، لكنه يحاول تبريرها حيث يقول: «اضطرتني الضرورة إلى ذلك للمدافعة ولو يوماً واحداً»[1].

ولما يئس أمير المسلمين من استصلاح ابن عباد وإعادته إلى الصف وتبين خلافه استفتى في أمره الفقهاء بعد أن قدم كل ما لديه من البينات والحجج التي تدينه، فأشار الفقهاء على يوسف بن تاشفين بوجوب جهاده، بعد أن استنفد ما في وسعه من المحاولات لاستصلاحه وإعادته إلى الجماعة، فبدأ أمير المسلمين بمراسلة حصون المعتمد وقلاعه يدعوها للالتحاق بصف المرابطين وإعلان الطاعة والتبرؤ من المعتمد فاستجاب أغلب معاقل المعتمد لهذه الدعوة «وقامت عليه الرعايا بكل قطر» «ومعاقله قد ذهب أكثرها بالطاعة»[2].

وبعد أن توافرت الأسباب الموجبة لإخضاع المعتمد باشر أمير المسلمين بتنفيذ خطة عسكرية شاملة أسفرت عن استيلاء المرابطين

---

(١) م. ن.

(٢) التبيان، ص١٦٩.

على مملكة بني عباد، وإنهاء حكمهم في الأندلس وذلك عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م.

وقد كان أمير المسلمين في مدينة سَبْتَة، يترقب الأنباء ويتابع التطورات المستجدة على الساحة العسكرية، يرصد ردود فعل النصارى القشتاليين وحكام الطوائف.

استيلاء المرابطين على قرطبة:

وقد كانت الاستعدادات العسكرية في مدينة قرطبة عالية، يقود العمليات الدفاعية فيها المأمون بن المعتمد، وكانت التعليمات تقضي بالدفاع عنها حتى الموت، إذ إن المعتمد كان يرى ثبات إشبيلية مرهوناً بصمود قرطبة لذلك أوصى ابنه بالثبات والصبر وقال له: «لا تجزع فالموت أهون من الذل، وليس السلطان إلا من القصر إلى القبر»[1].

فصمم المأمون على الثبات، ونقل أهله وماله إلى (حصن المدور) الذي شحنه بالمؤن والعدد.

وقد حاصر جيش المرابطين مدينة قرطبة بقيادة أبي عبد الله بن الحاج ثم انضم إليه القائد بطي بن إسماعيل الذي دخل مدينة جَيّان صلحاً[2].

---

(١) ابن بلقين، التبيان، ص١٧٠.
(٢) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٠٠.

وعلى الرغم من التشديد على أمر المقاومة في قرطبة استطاع التيار الشعبي المؤيد للمرابطين أن يتغلب على جهود المأمون بن المعتمد الذي قتل داخل المدينة ومعه وزيره، ففتحت قرطبة أبوابها للمرابطين الذين دخلوها في شهر صفر من عام ٤٨٤هـ[(١)].

وعلى أثر دخول المرابطين مدينة قرطبة خضعت لهم مدن بياسة، وأبذة، وحصن البلاط، وحصن المدور، والصخيرة، وشقورة، في شرق مدينة قرطبة وغربها، وأقام المرابطون فيها حتى استقامت أمورها، واستقرت أوضاعها، ثم أرسلوا تعزيزات عسكرية إلى ثغورها، بينما سارت قوة من ألف فارس إلى (قلعة رباح) في أقصى بلاد الإسلام الأندلسية فتمكنت هذه القوة من حمايتها من الأخطار الخارجية، وترتيب أمورها الإدارية، وبذلك لم يعد للمعتمد سوى (رُنْدَة) و(ميرتلة) و(قرمونة) و(إشبيلية) فأما قرمونة حصن إشبيلية فقد حاصرها القائد سير بن أبي بكر حتى دخلها عَنْوَةً في شهر ربيع الأول من عام ٤٨٤هـ.

وأما حصنا رُندة ومارتلة، فلم يدخلهما المرابطون إلا بعد أسر المعتمد وكتابته لولديه فيهما يأمرهما بالتسليم، وتعد مدينة رندة أحد معاقل الأندلس المنيعة وقواعدها المرتفعة، حاصرها جرور الحشمي حتى سلم أميرها أبو خالد يزيد الراضي بن المعتمد الذي قتل بأمر من

---

(١) الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ص١٩.

جرور، فرثاه المعتمد مع أخيه المأمون أمير قرطبة بقوله:

ونجمان زيـنٍ للزَّمـانِ احتواهما   بقرطبـةَ النكداءِ أو رُنـدةَ القبرُ[1]

كذلك استسـلم أبو بكـر بن المعتمد أمير ميرتلـة ـ وهي حصن جنوب البرتغال الحالية ـ بأمر من أبيه بعد أسره فأبقى[2] المرابطون على حياته بعد أن حوسب وصودرت أمواله. وبعد أن سقطت معاقل إشبيلية بيد المرابطين هاجمها القائد سير بن أبي بكر بقوات كثيفة ومن جهات عدة، وقد عرض على المعتمد التسليم والسير إلى المغرب بأهله وماله ولكنه لم يُجب، وأخذ يزيد في بناء الأسوار وإعداد العدة، وبعد دخول المرابطين قرمونة اشتد الأمر على المعتمد وضاقت به السبل.

استنجاد المعتمد بألفونسو السادس:

«فبعث إلى ألفنش ـ لعنه الله ـ يستغيث به ويستصرخه على لمتونة ـ أهل المغرب ـ ويعده بإعطاء البلاد وبذل الطارف والتلاد إن كشف عنه ما هو فيه من الحصار»[3].

وقد اهتبل ألفونسو هذه الفرصة، وأعد حملة قوية كان يرجو أن يكسر بها شوكة المرابطين، ويطردهم من الأندلس، لاستكمال مشاريع

---

(١) المصدر السابق، ص٢١.
(٢) المراكشي، المعجب، ص٢٠٤.
(٣) المصدر السابق نفسه.

حركة الاسترداد، وبعث أفضل قواده وأكثرهم خبرة في حرب المسلمين، وهو البرهانس على رأس (عشرين ألف فارس) وأربعين ألف راجل. فلما علم القائد سير بن أبي بكر بتوجه قوات ألفونسو إلى إشبيلية هيأ قواته لصد الهجوم، وأعد خطة جريئة لحرمان النصارى من الوصول إلى إشبيلية، فانتخب من جنده «عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة، وقدم عليهم إبراهيم بن إسحاق اللمتوني، وبعثهم للقاء الروم، فالتقى الجمعان عند حصن المدور، فكانت بينهم حروب شديدة استشهد فيها خلق كثير من المرابطين ومنحهم الله النصر، فهزموا الروم وقتلوهم ولم يفلت منهم إلا القليل»[1].

وعلى الرغم من انقطاع أمل المعتمد من وصول قوات النصارى فإنه أصر على مقاومة الحصار، مع معرفته باستحالة الصمود أمام قوات المرابطين وكثرة مؤيديهم داخل إشبيلية. ويبدو أن بعض عقلاء إشبيلية نصحوه بإعلان الطاعة والخضوع لإخوانه المرابطين وقبول مطالبهم، لكنه أصر على العناد والمدافعة عن سلطانه، وقد ذكر ذلك بقوله:

قالوا: الخضوعُ سياسةٌ ... فَلْيَبْدُ منكَ لهمْ خُضوعُ
وألذُّ من طعمِ الخضوعِ ... على فمي السُّمُّ النقيعُ[2]

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٠١.
(٢) المراكشي، المعجب، ص٢٠٢.

وكان حصار إشبيلية يزداد في كل يوم قسوة، وأوضاعها تزداد سوءاً، ودائرة التأييد للمرابطين تزداد اتساعاً، والمعتمد كما وصفه ابن خاقان في قلائده: «لاهٍ براحٍ، ومحيا وسيم، زاهٍ بفتاة تنادمه، ناه عن هدم أنس هو هادمه... قد ولي المدامة ملامَه، وثنى إلى ركنها طوافَه واستلامه»(1).

وقد أسفرت حالة المعتمد تلك وإصراره على مقاومة المرابطين إلى نفور أهل إشبيلية منه، وزيادة رغبتهم بالتخلص منه، لذلك قاموا بانتفاضة داخلية ضد حكمه، وتهاون الكثير من أتباعه في الدفاع عنه، وقد أشار إلى ذلك بقوله:

إن تَستلبْ عنّي الدُّنا ملكي وتُسلمني الجموعُ
فالقلبُ بين ضُلوعه لم تُسْلِمِ القلبَ الضلوعُ

وبهذه الإشارة الواضحة عن رغبة جموع أهل إشبيلية بتسليمه والتخلي عنه ما يدل على انحراف سياسته عندما أغرق نفسه بكل أنواع النعيم وأغدق على ندمائه كل أنواع العطايا، وبذل الأموال لشعرائه واقتصر على مجالس اللهو والجواري. ولهذا سرعان ما لفظته جموع الشعب وتطلعت إلى من يلبي لها طموحاتها ويسد ثغورها ويحكم بهدي شريعتها.

---

(1) الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، ص٢٤.

نهاية المعتمد:

أفلت زمام الأمور من يد المعتمد بعد انتفاض أهل إشبيلية ضده، وتمكن المرابطون من فتح ثغر في سور المدينة فتمكنوا من «دخولها من جهة الوادي وهو أسهل الأماكن في ـ ٢٢ رجب عام ٤٨٤هـ ـ»[١] بعد حصار دام أربعة أشهر وقد قبض على المعتمد في قصره، وأعطي الأمان في نفسه وأهله وذويه على الرغم من كل المتاعب التي سببها للمرابطين، والعقبات التي نصبها في طريق المجاهدين، بل على الرغم من اتصاله بالنصارى واستقدامه لقواتهم التي كلفت المرابطين ثمناً باهظاً أثناء تصديهم لها.

وقد وصف الفتح بن خاقان حالة المعتمد يوم دخول المرابطين إشبيلية ـ والفتح بن خاقان من أكثر المعجبين بالمعتمد ـ فقال: «حتى دخل البلد من واديه، وبدت من المكروه بواديه.. وهو مستمسك بعرى لذاته، منغمس فيها بذاته، ملقًى بين جواريه، مغتر بودائع ملكه وعواريه»[٢].

ولم يستسلم المعتمد حتى يئس من المقاومة واستنفد كل إمكانياته العسكرية وتحالفاته السياسية، ولشعوره بفظاعة ما اجتناه بتحالفه مع الأعداء ورفضه التفاهم مع المرابطين ولشدة تعلقه بالملك، حاول أن

---

(١) التبيان، ص١٧٠.

(٢) قلائد العقيان، ص٢٢.

يقدم على الانتحار، لكن الله نجاه من هذه الكبيرة، وقد عزم على أفظع أمر وقال: بيدي لا بيد عمر، ، ثم صرفه تقاه عما كان نواه فنزل من القصر بالقسر إلى قبة الأسر، فقيد للحين وحان له يوم شر ما ظن أنه يحين، ولما قيدت قدماه وبعدت عنه رقة الكبل ورحماه قال يخاطبه:

إليكَ فلـو كانتْ قيـودُك أشـعرتْ   تَضَـرَّمَ منهـا كـلُّ كـفٍّ ومِعْصَـمِ
مخافـةَ مـن كـان الرجالُ بسَـيْبِه   ومـن سـيفُه في جنـةٍ أو جهنمِ(١)

ولما آلمه ولازمه كسره، ورضه وواهاه ثقله وأعياه نقله قال:

تبـدلـتُ مـن عـزٍّ ظِـلِّ البنـودِ   بِـذلِّ الحـديـدِ وثِقْـلِ القيـودِ
وكـان حـديـدي سِنـانـاً ذَليقـاً   وعَضْبـاً رقيقـاً صقيـلَ الحـديـدِ
فقــد صــارَ ذاك وذا أدهمــاً   يَعَضُّ بسـاقي عَـضَّ الأُسُـودِ(٢)

ثم حمل المعتمد وأهله إلى بلاد المغرب حيث نزل بمدينة طنجة وهو في طريقه إلى مقر إقامته الإجبارية قرب مراكش في مدينة أغمات. وقد وصف شاعرُ المعتمد، أبو بكر بن اللبان رحيل المعتمد وأهلـه، وركوبهم في السفن بقصيدة يقول فيها:

تبكي السماءُ بِمُزْنٍ رائحٍ غادي   علـى البهـاليـلِ مـن أبنـاءِ عَبَّـادِ
سارتْ سفائنُهـم والنَّوحُ يصحَبُها   كـأنَّهـا إبـلٌ يحـدو بهـا الحـادي

---

(١) م. ن.
(٢) م. ن، ص٢٢.

المعتمد بن عباد وموقف بعض الشعراء منه في مدينة طنجة :

ولما كان زوار القصور في أكثر الأزمنـة من أصحاب المصالح والأهواء وكثيرٌ منهم من المنتفعين وطلاب الدنيا، ولما كان المعتمد قد اصطنع الكثير منهم وأغدق عليهم أموال دولته ليصفقوا له ويزينوا له الشهوات، فإنه نمَّى فيهم صفة الانتفاع؛ لذلك لم يجد منهم أيام محنته إلا القليل من المخلصين، حتى إن بعض شعرائه الذين أغرقهم بالأموال والعطايا أيام حكمه لم يرحموا له الحال الذي آل إليه في أسره .

ففي أثناء إقامة المعتمد في مدينة طنجة لقيه الشاعر أبو الحسن علي الحصري المقيم في طنجـة والذي سـبق له أن مدح المعتمد في إشبيلية، فرفع إليه أشعاراً قديمة كان قد مدحه بها وأضاف إليها قصيدة استجدَّها ولم يكن لدى المعتمد في ذلك اليوم مما زود به أكثر من ستة وثلاثين مثقالاً، فطبع عليها وكتب معها بقطعة شعرية يعتذر من قلتها، فلم يجبه الحصري عن القطعة الشعرية مع سهولة الشعر على خاطره .

وقد سمع زعانفة الشعراء ومحترفو الكُذْيَةِ والانتفاع بما صنع المعتمد مع الحصري، فتعرضوا له بكل طريق وقصدوه من كل ناحية حتى قال في ذلك متعجباً:

شعـراءُ طنجـةَ كلُّهـم والمغـربِ ذهبوا من الإغرابِ أبعدَ مَذهبِ
سـألوا العسـيرَ من الأسيرِ وإنَّه بسؤالهم لأحقُّ فاعجَبْ واعْجبِ

لـــولا الحيـــاءُ وعـــزةٌ لَخمِيَّـــةٌ طي الحشا ساواهمُ في المطلبِ[1]

ولعل في هذا الموقف الذي وقفه بعض الشعراء ممن جعل الكلمة الجميلة سلعة معروضة تباع وتشترى بالمال لا بنبل المواقف وكريم الفعال ما فيه من العبرة بوجوب اجتباء إخوان الصدق من أهل العقائد الصافية والضمائر النقية ممن سلك طريقاً سهلاً واضحاً في هذه الحياة. وقد أقام المعتمد في مدينة طنجة أياماً ثم نقل إلى مدينة مكناسة فأقام بها أشهراً، إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى أغمات فأقام بها حتى آخر أيامه ينظر إلى الأيام كيف يداولها الله تعالى بين الناس، فتراه هناك في صراع مع نفسه التي تتقاسمها الأشجان والحسرات، تارة يلهو بشعره وأخرى مع بعض زواره ولاسيَّما الأوفياء من شعرائه.

من أشعار المعتمد في سجنه:

وفي سجنه يتفكر في تقلب الأقدار وتصريف الأمور، فيصور كل ما يدور حوله أو يخطر في خلده بأشعاره الرقيقة وأسلوبه الفني المؤثر، وبهذه الإمكانيات الأدبية والأبيات الشعرية التي نظمها في مدينة أغمات استطاع أن يؤثر في نفوس متتبعي أخباره، وقراء كتب الأدب، أو ممن لا ينظر إلى الحياة إلا من زاوية واحدة، ولذلك لاحظنا أن بعض المؤرخين والكتاب ينعتون يوسف بن تاشفين بالقسوة والغلظة من دون تمعن في الحقائق، والنظر إلى الوقائع والأحداث، متناسين أو متجاهلين، بأن

(١) المراكشي، المعجب، ص٢٠٥.

المعتمد ومعه حكام الطوائف أوشكوا أن يضيعوا أمة، ويدثروا تاريخاً مجيداً غذَّته دماء المجاهدين في الأندلس، وأن يوسف بن تاشفين أنقذ هذه الأمة وأحيا ذلك التاريخ بما بذله هو والمرابطون من دماء زكية وإمكانيات هائلة استرخصوها في سبيل الله وحقوق الأخوة والجوار.

وفيما يتعلق بالمعتمد لا نستطيع أن ننهي الحديث عنه بهذا القدر من دون أن نأخذ العبرة ونتزود ببعض الحكم التي سجلها المعتمد في نظمه، مع تقديرنا الكبير لأمير المسلمين الذي أنفذ وصايا الشرع الحنيف وأخذ بأحكام القضاء الإسلامي من دون أن يتأثر بصداقاته مع حكام الطوائف أو بعواطفه تجاههم.

فمن شعر المعتمد الذي نظمه بمناسبة أول عيد يمر به في مدينة أغمات بعد أن يرى بناته على غير الحال الذي كنَّ عليها أيام حكمه فيقول:

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسرورا ... فساءَك العيدُ في أَغْماتَ مأسورا
من باتَ بعدَك في ملكٍ يُسَرُّ به ... فإنَّما باتَ بالأحلامِ مغرورا

وللمعتمد كثير من الأشعار المعبرة والمؤثرة والتي قد لا يملك قارئها إلا أن يشفق على حاله وما آل إليه من السجن والبعد بعد العز والتمكن. ومن أشعاره حينما فقد من يجالسه، وبعُد عنه من كان يؤنسه قوله:

تؤمل للنفس الشجيةَ فرجة ... وتأبى الخطوبُ السودُ إلا تماديا

نعيمٌ ويؤسٌ ذا لذلك ناسخٌ — ويعدَهما نسخُ المنايا الأمانيا[1]

ويبكي المعتمد قصورَه، عندما تذكر منازله فشاقَتْه، وتصور بهجتها فراقَتْه، وتخيل استيحاش أوطانه فشاقته فقال:

بكى المبارَكُ في إِثْرِ ابنِ عبّادِ — بكى على إِثْرِ غُزلانٍ وآسادِ
بكى الوحيدُ بكى الزاهي وقبتُه — والنهر والتاجُ كلٌّ ذلُّه بادِ[2]

وتطوف به الذكريات إلى يوم الزلاقة عندما كانت القلوب مؤتلفة والمودة قائمة ويتذكر دور ابن تاشفين في إحراز ذلك النصر العظيم فينظم هذه الأبيات مشيداً بموقفه ذلك اليوم فيقول:

ويوم العروبة ذدتَ العِدَا — نصرتَ الهدى وأبيتَ الفِرارا
ثبتَّ هناك وإنَّ القلوبَ — بين الضلوع لتأبَى القَرارا
فلله درُّكَ في هولِه — لقد زادَ بأسُك فيه اشتهارا
وقلبي نَزوعٌ إلى يوسفٍ — فلولا الضلوعُ عليه لطارا[3]

ثم يزداد حنينه إلى بلاده، ويتذكر حاله السابق وما آل إليه، فيخونه الصبر، ويبكي ويزفر عبراته وهو يردد:

يقولون: صبراً، لاسبيلَ إلى الصبرِ — سأبكي وأبكي ما تَطاولَ من عمري

---

(١) قلائد العقيان، ص٢٦.
(٢) قلائد العقيان، ص٢٤. المبارك، الوحيد، الزاهي: أسماء قصور المعتمد.
(٣) علي أدهم، المعتمد بن عباد، ص٢٩٨.

لكنه يعود فيتماسك ويتجمل بالصبر ويتأمل في تقلبات الدهر فيقول:

مَنْ يَصْحَبِ الدهرَ لم يَعدِمْ تقلُّبَه ... والشوكُ ينبتُ فيه الوردُ والآسُ
يمرُّ حيناً وتحلولي حوادثُه ... فقلَّما جرحتْ إلا انثنتْ تأسو

ثم يعود فيصارع اليأس والسخط ويحاول أن يحمل نفسه على الرضا بقضاء الله ليبعث الطمأنينة في قلبه والراحة في نفسه فيقول:

اقنعْ بحظِّكَ في دنياكَ ما كانا ... وعَزِّ نفسَك أن فارقتَ أوطانا
في اللهِ مِنْ كلِّ مفقودٍ مضى عِوَضٌ ... فأشْعِرِ القلبَ سَلواناً وإيمانا
أكلَّما سنحتْ ذكرى طَرِبْتَ لها ... سَحَّتْ دموعُك في خديك طُوفانا
وطِّن على الكره وارقبْ إثرَهُ فَرَجاً ... واستغنمِ اللهَ تغنَمْ منه غفرانا

المعتمد وبعض زواره في مدينة أغمات:

ولم يقض المعتمد أيامه كلها بعيداً عن بعض شعرائه المجيدين وبعض أصدقائه المخلصين، بل كان الكثير منهم يزوره ويتجاذب معهم الأحاديث والأشعار الممتعة.

ومن هؤلاء أبو بكر الداني المعروف بابن اللبّانة، وهو محمد بن عيسى من أهل مدينة دانية على ساحل البحر المتوسط، وكان المعتمد يخصه بالتقريب والصلات الجزيلة، فلما ورد على المعتمد في مدينة أغمات سُرَّ به كثيراً وتذاكر معه كثيراً من القصائد، وأنشده كثيراً من الأشعار وجادله بقصيدة مشهورة يصفها صاحب (القلائد) بأنها أبدع من

أناشيد (مَعْبد)، وأصدع للكبد من مراثي (أربد) أو إبكاء (ذي الرُّمة) بالمربد، منها قوله:

لكلِّ شيءٍ مِنَ الأشياءِ مِيقاتُ وللمُنى من منائيهنّ غاياتُ
والدَّهْرُ في صِبغَةِ الحِرْباءِ مُنْغَمِسٌ ألوانُ حُلَّتِه فيها استحالاتُ[1]

ولما عزم ابن اللبانة على السفر بعث إليه المعتمد مع ابنه شرف الدولة بعشرين مثقالاً مرابطية وثوبين غير مخيطين وكتب معها:

إليك النَّزْرُ مِنْ كفِّ الأسيرِ فإنْ تقبلْ تكنْ عينَ الشَّكورِ

في قصيدة طويلة، فرد الداني صلته هذه وكتب إليه في قصيدة:

(جذيمةُ) أنتَ والأيامُ خانتْ وما أنا من يُقصِّرُ عن (قصيرِ)[2]

ومن الشعراء الذين زاروه وأنشدوه وأنشدهم الشاعر ابن حمديس، والشاعر أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الذي زوده المعتمد بما تيسر في يده لما عزم على الرحيل، فامتنع عن أخذها مكتفياً بما للمعتمد عنده من أياد سالفة.

وممن زار المعتمد في أغمات: الطبيب الأندلسي الشهير الوزير العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر، الذي كان يشرف على علاج أمير

(١) قلائد العقيان، ص٢٩.
(٢) المراكشي، المعجب، ص٢٢٠.

المسلمين في مراكش، فكتب إليه المعتمد راغباً في علاج زوجته الرُّميكية فأجابه الوزير مؤدِّياً حقه، ثم دعا له بطول البقاء. فكتب إليه المعتمد يشكر له، ويذكر فيها هذا الدعاء فيقول:

دعا لي بالبقاء وكيفَ يهوى ... أسيرٌ أن يَطولَ به البقاءُ!
ولكنَّ الدُّعاءَ إذا دعاهَ ... ضميرٌ خالِصٌ نفعَ الدعاءُ
سيُسلي النفسَ عما فاتَ علمي ... بأنَّ الكلَّ يدرِكُهُ الفَنَاءُ(١)

نستنتج من كل ما مر أن الحياة الباذخة المترفة التي كان يعيشها المعتمد في بلاده متنقلاً بين قصوره الزاهية وجواريه الحسان غير ممكنة في دولة المرابطين الذين يميلون للزهد والخشونة وحياة العمل والجهاد، مشغولين بنشر الإسلام وتحمُّل تَبِعاتِ ذلك وإعادة الناس إلى العمل بأحكامه وتهيئة المجتمعات لحمل رايته، وبالتالي لو أن المعتمد هُيئ له أن يعيش كعيشة المرابطين الخالية من التكلف، لرأى تلك العيشة عيشة ضنكاً وقد يتضجر منها ويصورها في أشعاره حالة من الشقاء، فكيف به إذا حددت إقامته ومنع من التنقل والرحلات، وهو الذي كان إن أقام احتفالاً في قصر اختار لأنسه وشرابه قصراً آخر، وصور ذلك بروحه الأدبية أو نظمه قصيدة غنائية ترنم بها ندماؤه وجواريه.

ولو أننا عرضنا الأخطاء السياسية الخطيرة التي ارتكبها ابن عباد على أحدث قوانين هذا العصر الوضعية، لوجدنا أن السجن المؤبد من

---

(١) م. ن، ص٢١٨.

العقوبات المخففة جداً لمن خان أمته واتصل بأعدائها.

وإذا كان علماء المسلمين المعاصرين لتلك الأحداث قد أجمعوا على شرعية الإجراءات التي اتخذها يوسف بن تاشفين ضد حكام الطوائف، وأيدته الخلافة العباسية وأشادت بما أقدم عليه يوسف فإنه يصبح من الفضول أو من سوء النية إصدار الأحكام جُزافاً جرياً وراء العاطفة وهوى النفس، أو ترديداً لأقاويل المستشرقين، وعليه ترد الآراء والأحكام التي تطعن في عدالة أمير المسلمين في هذه القضية على وجه الخصوص، أو تنعته بالقسوة على ابن عباد وأمثاله من الحكام.

إن القيود التي كان يتألم منها المعتمد لم تكن حالة دائمة لأنه قُيد أثناء نقله من إشبيلية إلى أغمات، وأثناء قيام حركة ولده عبد الجبار في حصن أركش القريب من إشبيلية، وقد أشار إلى ذلك الفتح بن خاقان بقوله: «وأقام بالعُدْوة ـ المغرب ـ بُرهةً لا يروع له سِرْب وإن لم يكن آمناً، ولا يثور له كَرْبٌ وإن كان في ضلوعه كامناً، إلى أن ثار أحد بنيه بأركش ـ وهو معقلٌ مجاورٌ لإشبيلية ـ فسار نحوه الأمير ابن أبي بكر رحمة الله عليه قبل أن يرتد طرف استقامته إليه فوجده وشره قد تَشمّر، وضره قد تَنمّر.. وانحشرت إليه الجيوش من كل قطر... حتى غرضه أحد الرماة فرماه بسهم أصماه فهوى في مطلعه، وخرَّ قتيلاً في موضعه.. فاعتقل المعتمد خلال تلك الحال وأثناءها...»[1].

---

(١) قلائد العقيان، ص٢٥.

ولم يكن أمير المسلمين مخطئاً في تشديد الحراسة عليه أثناء ثورة ابنه، فهاهو المعتمد ما أن يعلم بثورة ولده، حتى يتطلع للعودة إلى سلطانه وينشد للحرب والسلاح فيقول:

كـذا يهلـك السيـفُ فـي جَفنِـه ... إذا هَـزَّ كـفٌّ طـويـلُ الحنيـنِ
كـذا يعطـشُ الـرمـحُ لـم أعتقلـه ... ولـم تَـروِهِ مـن نَجيـعٍ يمينـي
كـأن الفـوارسَ فيـه لُيـوثٌ ... تُـراعـي فـرائسَهـا فـي كَمينِ[1]

هكذا يتذكر المعتمد سلاحه ويحن إلى القتال وركوب الخيل، وكما قال في ذلك صاحب (القلائد): «ولما زأر الشبل خيفة ثورة الأسد، ولم يرجُ صلاح الكل والبعضُ قد فسد»[2].

فالمعتمد بن عباد ـ وكما تبين ـ محكوم عليه بالإقامة الجبرية في مدينة أغمات، ولن تكون هذه الإقامة من دون رقابة وحراسة، إلا أنه يتمكن من استقبال زواره، ومراسلة أصدقائه ويحتفل بقدوم شعرائه ويجيزهم بما يقع تحت يده أحياناً، ولذلك فإن الدعاوى التي تنال من أمير المسلمين في شأن المعتمد خاصة وحكام الطوائف عامة، هي دعاوى غير دقيقة، تقوم على أسس باطلة، أخذت من روايات مؤرخين عاشوا في ظل دولة منافسة أو معادية لدولة المرابطين، مثل دولة

(١) م. ن، ص٢٧.
(٢) المصدر السابق، ص٢٦.

الموحدين التي قامت على أنقاض الدولة المرابطية، أو من روايات كتاب ومؤرخين مخالفين لفكر المرابطين آخذين عليهم تمسكهم بأحكام الكتاب والسنة.

وقد أورد صاحب كتاب (الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى) كلمات هادئة متينة متبصرة حيث قال: «واعلم أنه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حطٌّ من رتبة أمير المسلمين وغض عليه: إما لكونه من أهل الصحراء، وإما في كونه تحامل على ملوك الأندلس حتى فعل بهم ما فعل.. واعلم أن هذا الكلام جدير بالرد، وأصله من بعض أدباء الأندلس الذين كانوا ينادمون ملوكها ويستظلون بظلهم ويغدون ويروحون في نعمتهم، فحين فعل أمير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل أخذهم من ذلك ما يأخذ النفوس البشرية من الذبِّ عن الصديق والمحاماة عن القريب حتى باللسان، وإلا فقد كان أمير المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمتَ، ومن ركوب الجادّة وتحري طريق الحق على الوصف الذي سمعت...

وهذا ابن خلدون إمام الفن ومتحري الصدق، نقل أن ملوك الأندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها، ثم وصلوا أيديهم بالطاغية، وبذلوا له الأموال في مظاهرته إياهم على أمير المسلمين، ثم لم يقدم على قتالهم واستنزلهم عن سرير ملكهم حتى تعددت لديه فتاوى الأئمة الأعلام من أهل المشرق والمغرب بذلك، فافهم هذا واعرفه، والله تعالى يقبل الجميع بالعفو والصفح الجميل بمنه

وكرمه»[1].

ولعلي بعد كل هذا أكون قد أسهمت في توضيح بعض الجوانب الغامضة من تاريخ هذه الحقبة، وأزلت ما علق في بعض الأذهان من مغالطات وسوء تقدير لمواقف أمير المسلمين من حكام الطوائف، وهو الذي جعل من مصالح الأمة العليا المتمثلة في صحة العقيدة وسلامتها ووحدة أرض المسلمين وحمايتها شُغْلَه الشاغل وهدفه السامي، الذي يسعى إلى تحقيقه بكل جهده.

أما المعتمد فقد أدركه ما يدرك نهاية كل عيش وغاية كل ملك وجيش فقضى نحبه عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م ودفن في مدينة أغمات.

وبقيت الأندلس سالمة عزيزة بعد أن عاد إليها نور الإسلام ساطعاً وهّاجاً كما كان أيام الخلافة، يرعاها أمير المسلمين وإخوانه المجاهدون بعقيدتهم الإسلامية السمحاء وإيمانهم المكين بالله ورسوله ﷺ فأظهروا من ضروب الجهاد والتضحية ما صدق بهم الظنون وأقر العيون.

٥ ـ المتوكل عمر بن الأفطس ملك بَطَلْيَوس وسياسته المترددة بين الولاء للمرابطين والاتصال بالصليبيين:

لم يكن المتوكل عمر بن الأفطس يختلف عن جاره وصديقه المعتمد بن عباد، وهو وإن لم يمتلك سعة مملكة إشبيلية أو مزاج ابن

---

(١) السلاوي، الاستقصا: ٢/ ٥٧.

عباد الفني ومستواه الشعري المتقدم، لكنه كان على طريقته في إقامة مجالس الأنس واللهو ونظم الشعر والاعتداد بالنفس، إضافة إلى التفريط في جنب الله والبعد عن هدي الإسلام وعدم الوقوف عند أوامره ونواهيه.

وقد عمل المتوكل بن الأفطس على محاولة ابتزاز الظروف المحيطة به لصالح استمراره في الحكم، ففي الوقت الذي كان يظهر فيه على أنه أحد أعوان المرابطين وأنه أحد المجاهدين الذابِّين عن حمى الدين، كان يمد يده إلى ألفونسو السادس ويعقد معه الاتفاقيات السرية ويتنازل له عن بعض المعاقل والحصون الإسلامية من أجل كسب ثقة النصارى للاعتماد عليهم ساعة الشدة.

وفي الوقت الذي كان من الواجب عليه، أن يستفيد من تجربة جاره المعتمد الذي كان يمتلك من القوة والدهاء السياسي ما يفوق إمكانياته بكثير، حيث أثبتت سياسة المعتمد التي اتبعها ضد المرابطين فشَلها التام على الصعيدين الخارجي والداخلي.

ففي الوقت الذي عجز فيه حلفاؤه النصارى عن تأمين الحماية له، بهزيمتهم العسكرية أمام المرابطين ازدادت عزلته الداخلية حتى تخلى عنه أهل إشبيلية وفتحوا أبواب مدينتهم لإخوانهم المرابطين.

وقد كان ابن الأفطس يعلم أن المسلمين من أبناء مملكته وفي كل بلاد الإسلام، يؤمنون بحياة الوحدة وتحكيم الشرع الإسلامي فقد ازداد موقفه حراجة، وتردد في اعتماد أي من السياستين.

أيوغل في طريق التحالفات مع أعداء أمته الذين لا يرضيهم سوى التخلي عن كل قيم الأمة ومصالحها؟ أم يسلك طريق الحق ويتخلى عن الهوى وحب الذات؟ .

ويبدو أنه لم يستطع الأخذ بأحد هذين الاتجاهين وبقي مذبذباً بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

وقد وصفه زميله أمير غرناطة وهو في تلك الحال بأنه أشبه بالسمكة العاجزة الموصوفة في كتاب دمنة لم تزل في تقلب وتردد حتى أخذها الصياد.

«وهو كذلك يريد أن يخلط: يخاطب الأمير ـ يوسف ـ بإظهار الطاعة والمشاركة في أمر الرومي (ألفونش) ويخاطب ألفونش ليستعين به على مُلمة إن دهتْه من المرابطين»[1] .

ولم يستطع ابن الأفطس التكتم على هذه الحالة وإخفاءها، فالمرابطون الذين تعرفوا على أخلاق حكام الطوائف السياسية لم يعودوا يثقون بأحد منهم، ولما لم يكن من سياستهم أن يأخذوا أحداً منهم من دون أن يظهر تلبسه بمداخلة النصارى لكل أبناء مملكته فقد اكتفوا بمراقبته وترصد حركاته، أما أعوانه من السياسيين فقد كانوا يلحظون حالته تلك ولكن أكثرهم إدراكاً لما فيه ابن الأفطس كان ولده المنصور،

---

(١) التبيان، ص١٧٢٣ .

الذي كان داهية في الأمور حذراً من المداخلات السياسية، لذلك أشار على أبيه بسلوك خط واضح والتخلي عن سياسته الازدواجية وقال له:

«هذا التردد لا يجزئك، ولا يغني عنك ما تُري من إظهار الطاعة للمرابط ولا طاعة أهل بلدك ومحبتهم التي كانوا يعرضون عليك، فلو أنهم يرون بعض حقيقة في عزيمة لما أبقوا عليك كالذي رأيت صنع بغيرك، فإما أن تصغي للمرابط فلن تبلغ مرضاته إلا بالانخلاع له ووضع اليد في يديه، وتقنع بأن تكون متحرياً متخلياً عن الرياسة فعاجلْ ذلك تجدْ عنده الأمان، وإن نفرتْ نفسك عنه فلا تتأخر عن الفرار منه بنفسك وأهلك وجميع أموالك يجعلك الرومي - ألفونسو السادس - في أي بلد شئت وربما سوغها لك كما فعل بابن ذي النون في بلنسية وتترك مدينة بطليوس لا تدخل على المسلمين داخلة، فيحصل لك النجاة بمهجتك وسلامة البلد للمسلمين»[1].

واضح من هذا النص أن المنصور قد أشار على أبيه برأي سديد جريء متفهم تفهماً عميقاً لكل الظروف المحيطة بمملكة بطليوس آنذاك داخلياً وخارجياً.

ومع التحفظ على إشارة المنصور على أبيه بترك بلاد المسلمين واللجوء إلى النصارى إذ لا مبرر لهذا الإجراء لو أعلن المتوكل الطاعة للمرابطين، نقول: لو أن المتوكل أخذ برأي ابنه لجنَّب نفسه وحاشيته

---

(١) التبيان، ص١٧٣.

الكثير من المعاناة التي حصلت لهم ولوفَّر على إخوانه المرابطين الكثير من الجهد والتضحيات التي بذلوها لإخضاع بطليوس واستعادة الحصون والمعاقل التي تنازل عنها للنصارى لكنه سفه رأي ابنه، واستمر في نهج سياسته ذات الوجهين راجياً أن يطرأ تغير على الظروف الدولية بما يخدم توجهاته، لذلك رد على المنصور قائلاً: «لا أترك موضعي وعسى أن تهيئ الأقدار ضدَّ ما تظن»[1].

ومضياً في سياسته تلك ذهب إلى غرناطة أثناء دخول أمير المسلمين إليها عام ٤٨٣هـ، للسلام ولإظهار الولاء وحسن النية تجاه المرابطين، لكن الأنباء التي كانت تصل أمير المسلمين من داخل بطليوس وخاصة من داعية المرابطين المقيم في ثغر بطليوس الشيخ ابن الأحسن كانت تشير إلى عكس ما يظهره المتوكل، لذلك قوبل في غرناطة بجفوة من أمير المسلمين شأنه شأن المعتمد، وبدلاً من أن يتعظ من لقائه بيوسف بن تاشفين ويسلك الطريق الذي يُرضي رعيته ويزيل جفوة أمير المسلمين، أخذ يزيد من اتصالاته بالنصارى.

تحالف ابن الأفطس مع النصارى ووقوف أهل بطليوس مع المرابطين:

أخذ ابن الأفطس يزيد من سفاراته إلى النصارى لتوثيق عرى التحالف المضاد للمرابطين ويقدم الإغراءات والتنازلات الكبيرة مقابل

---

(١) م. ن.

عقد التحالفات العسكرية الموجهة ضد مصلحة المسلمين عامة وأهل مملكة بطليوس خاصة.

وفي الوقت نفسه كان يعمل على كسب رضا الأمير سير بن أبي بكر القائد العام لقوات المرابطين في الأندلس، وزيادة طمأنته على ثبات موقفه من قضية الجهاد وأطماع ألفونسو في بلاد المسلمين، إلا أن الذي يظهر من خلال موقف أهل بطليوس المعارض لابن الأفطس وخروجهم عن طاعته وسعيهم عليه عند المرابطين ومراسلتهم، لتخليصهم من خطر التحالف مع النصارى ما يدل على أن المتوكل قد قطع خطوات عملية كبيرة في هذه المملكة، إذ أقدم المتوكل على التنازل عن مدن وحصون مهمة للنصارى ثمناً لتحالفهم معه ضد إخوانه المرابطين، ومن المناطق التي تنازل عنها (أشبونة، وشنترة، وشنترين)[1]، «وداخل الرومي فحقت عليه المطالبة وسعى عليه جهراً بعد السعي سراً»[2].

ولما كان الأمير سير بن أبي بكر مفوضاً من أمير المسلمين في شأن مملكة بطليوس، فقد رأى من الواجب تلبية رغبة أهالي بطليوس بتدارك مدينتهم قبل أن تدخلها قوات ألفونسو الذي حصل على موافقة ابن الأفطس وحاشيته بأنهم «يملكون مدينة بطليوس»[3].

---

(١) السامرائي، ص١٧٥.

(٢) التبيان، ص١٧٢.

(٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: ٦/ ١٨٧.

لذلك أسـرع الأمير سير بن أبي بكر بإعداد قواته والتوجه نحـو مملكـة ابن الأفطس الذي تحصن في قصبة بطليـوس وقـاوم القوات المرابطية وصمد للحصار، أملاً في وصول قوات ألفونسو لمساعدته تنفيذاً للاتفاقيات المعقودة فيما بينهم؛ لكن الظاهرَ أن النصارى الذين ذاقوا مرارة هزائمهم أمام قوات المرابطين مِراراً ومنها هزيمتهم قرب حصن المدور عام ٤٨٤هـ عندما أرادوا الاتصال بابن عباد في إشبيلية، لم يستطيعوا أن يفُوا بعهودهم لابن الأفطس الذي لم يكن أقل استعداداً عن ابن عباد في تقديم التنازلات للنصارى والتنسيق معهم ضد المرابطين.

وعلى الرغم من تمكن قوات أمير المسلمين التي يقودها سير بن أبي بكر من مدينة بطليوس فإنه لم يهمل جانب المفاوضات والاتصال بحراس الأسوار وقادة جند المتوكل تجنباً لسفك الدماء وقد استعان الأمير سير ببعض أهل الأندلس في اتصالاته تلك، ونظراً لكثرة المؤيدين لأمير المسلمين لم يجد سير بن أبي بكر صعوبة في الحصول على ما يريد، ولم يستطع ملك بطليوس أن يكتشف سر تلك الاتصالات «حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلاً ويفتحوا له الباب»[١].

وبهذه السياسة تمكن سير بن أبي بكر من دخول قصبة المدينة الحصينـة والقبض على ابـن الأفطـس عمر المتوكل وولديـه الفضل

(١) التبيان، ص١٧٤.

والعباس أوائل عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وحكم عليهم بالإعدام لما ثبت عليهم «من مداخلتهم الطاغية وأن يملكوه مدينة بطليوس»[١] و«لما كان من عمله ـ ابن الأفطس ـ مع النصارى والمعاقل التي أعطاهم»[٢].

أما المنصور بن المتوكل الذي أشار على أبيه باتباع الحزم ونبذ التردد، فقد أخذ بالرأي الذي أشار به على والده الذي كان قد بعثه مع معظم ذخائره إلى حصن (منتانجش) القريب من بلاد ألفونسو فتحصن به إلى أن دخل المرابطون مدينة بطليوس، فسار بأهله وأمواله إلى ألفونسو ولجأ عنده وتنصَّر[٣]. ثم صار في جملة الروم يتطرق معهم بلاد المسلمين[٤].

وقد يكون فيما قام به المنصور هذا من ردَّة عن الإسلام وانضمام إلى صف الأعداء الدليل الوثيق على ضعف الانتماء الإسلامي والوازع الديني عند رؤساء الطوائف واستعدادهم التام للتفريط بمصالح الأمة ومصير أبنائها إذا تعرضت عروشهم ومصالحهم الشخصية للخطر، كما يدل على صدق توجه المرابطين وصحة تقديرهم وتحوطهم للأمور وبالتالي خطورة تسليم قيادة المسلمين ومصيرهم إلى من فسدت

---

(١) ابن خلدون: ٦/ ١٨٧.
(٢) التبيان، ص١٧٤.
(٣) السامرائي، ص١٧٦.
(٤) التبيان، ص٣٤.

أخلاقهم وماتت ضمائرهم وضعف انتماؤهم لعقيدتهم الصافية وتاريخهم الأصيل.

أما نجم الدولة سعد بن عمر المتوكل فقد سجن إلى أن استقرت الأمور للمرابطين فأطلق سراحه.

مشهد من ازدواجية حكام الطوائف وإصرارهم على المجون:

يبدو أن كثيراً ممن تبقى من زعماء ووزراء الطوائف وأعيانهم قد أصروا على عدم تغيير منهج حياتهم، ولم يعتبروا بمصير سادتهم فيقلعوا عما اعتادوه من حياة اللهو والبطالة ومجالس الأنس والمدامة لا في أفراحهم ولا في أحزانهم، ومن ذلك ما نظمه وزير المتوكل أبو بكر بن القبطرنة عندما ضمه مجلس سهر وكأس مع نجم الدولة سعد بن المتوكل فتذكر أيام أنسه السالفة مع الفضل بن المتوكل فقال:

يا سعدُ ساعدْني ولستَ بخيلاً   وامننْ بها خمراً تفيضُ همولا
واحبسْ عليَّ دموعَ عينِكَ ساعةً   وابرِدْ بها ممّا ألمَّ غَليلا
إن يصبحِ الفضلُ القتيلَ فإنني   أصبحتُ من وَجدي به مقتولا[1]

ولم يعدم زعماء الطوائف من يذكرهم بالله وبسوء ملكهم، وخطورة منهجهم على مصيرهم ومستقبل أيامهم، لكنهم لم يستطيعوا

---

(١) قلائد العقيان، ص٤٤.

نبذ ما اعتادوه من حياة المجون والإدمان على الشراب والخمرة لضعف إراداتهم وموت هممهم. ولعل في هذه الحادثة ما يشير إلى ذلك:

يروي صاحب (القلائد) عن الوزير أبي محمد بن عبدون أن الجذبَ قد توالى بمملكة المتوكل بن الأفطس «حتى جفت مدانيها، وأغبرت جوانبها... وأبدت الخمائل عُبوسَها، وشكت الأرض للسماء بوسَها، فأقلع المتوكل عن الشرب واللهو، ونزع ملابس الخيلاء والزهو، وأظهر الخشوع، وأكثر السجود والركوع، إلى أن غيم الجو، وانسجم النو،.. وزهت النجاد والأغوار، واتفق أن وصل أبو يوسف المغني، والأرض قد لبست زخارفها... والمتوكل ما فض لتوبته ختاماً... فبعث إليه مركوباً وكتب معه:

بعثتُ إليك جناحاً فَطِرْ   على خيفةٍ من عيون البشرْ

فأتاه ومضى لهم يوم من السرور، ما مرَّ لذي رعين، ولا تصور قبل عيونهم لعين...

فتلقاهم ابن مغاني قاضي حضرته، وأنزلهم عنده، وأورى لهم بالمبرة زنده، وقدم لهم طعاماً، واعتقد قبوله مَنّاً وإنعاماً. وعندما طعموا قعد القاضي بباب المجلس رقيباً لا يبرح... فخرج أبو محمد... فلقي ابن خيرون منتظراً له وقد أعد لحضوره منزله... ولما حضر له وقت الأنس وحينه... وجه من يرقب المتوكل حتى يقوم جليسه ويزول موحشه لا أنيسه، فأقام رسوله وهو بمكانه لا يريمه، وقد لازمه غريمه،

فما انفصل حتى ظن أن عارض الليل قد نصل، فلما علم أبو محمد بانفصاله بعث إلى المتوكل بقطيع خمر وطبق ورد وكتب معهما:

إليكَهــا فــاجتلبهــا منيــرةً ... وقد خبا حتى الشهابُ الثاقبُ
واقفــةً بــالبــاب لــم يـؤذنْ لهـا ... إلا وقــد كــاد ينــامُ الحــاجــبُ
فبعضُهـا مـن المخـاف جـامِـدٌ ... وبعضُهـا مـن الحيــاء ذائــبُ

فركب إليه، ونقل معه ما كان بالمجلس بين يديه، وباتا ليلتهما لا يريمان السهر، ولا يشيحان برقاً إلا الكأس والزهر»[1].

وبهذه القصة تبين لنا أن الازدواجية تكاد أن تكون حالة ثابتة تطبع تصرفات وأفعال رؤساء الطوائف. فمثلما كان المتوكل يعمل على إرضاء المسلمين والنصارى في الجانب السياسي، نراه لا يستطيع أن يتخلص من هذه الازدواجية في الجانب الروحي أو الاجتماعي. فما إن يشعر بحاجته إلى الدعاء واللجوء إلى الله تعالى حتى يرتدي ثياب الخاشعين ويتظاهر بمظهر الصالحين، إلى أن ينكشف الضر، ويرتفع الكرب، فيعـود إلى لهوه وفجوره، وما أن يرى القاضي حتى يعود إلى التظاهـر بتمسكه بالتوبة، والإقلاع عـن المعاصي، ويبـدو أن القاضي كـان بـه خبيراً، لذلك أطال معه الجلوس والسهر، لعله ينقذه من الآثام ولو أيام ضيافته عنده، لكن المتوكل تغلب عليه شهوته، ولا يستطيع أن يغمض

---

(١) قلائد العقيان، ص٤٣.

عينيه حتى يملأ جوفه بالحرام.

كل هذا يفعله رؤساء الطوائف ويتباهون به والعدو يهاجم بلادهم ويسبي رعاياهم وينهب محاصيلهم وهم في غيهم يعمهون.

وإذا تمعنّا في تلك الحال التي كان عليها هؤلاء القوم، وفي حياة الوزير الشاعر ابن عبدون الذي كانت كل أيامه مع سيده المتوكل على هذه الشاكلة التي أخبرنا بها ابن عبدون نفسه، إذا تمعنا في ذلك فإننا لن نعجب إذا شاهدنا هؤلاء الشعراء وقد أظلمت الدنيا في أعينهم بعد أن فقدوا مصابيحها، ومادت بهم الأرض بعد أن فقدت رواسيها.

ولذلك نظم ابن عبدون قصيدة في رثاء سادته: المتوكل والفضل والعباس، اشتملت على كل ملك قتل، وأشارت إلى من غدر منهم وختل، تُكبرها المسامع، ويعتبرها السامع، مطلعها:

الـدهرُ يفجَعُ بعدَ العَيْنِ بالأثـرِ ... فما البكاءُ على الأشباحِ والصورِ
أنهـاكَ أنهـاكَ لا آلـوكَ معـذرةً ... عن نومةٍ بينَ نابِ الليثِ والظُّفُرِ

ومنها:

بني المظفرِ والأيـامُ ما بـرحتْ ... مَراحلاً والورى منها على سَفَرِ
سُحقاً ليومكمُ يومـاً ولا حملـتْ ... بمثلـه ليلـةٌ فـي مُقبـل العمـرِ(١)

(١) قلائد العقيان، ص٣٧.

وعلى كل حال فإن المرابطين لم يتوقفوا عند حدود مدينة بطليوس، بل كان الواجب يملي عليهم إصلاح ما أفسده المتوكل باتفاقاته الشاذة مع الأعداء، لذلك تابع المرابطون جهادهم، فسارت حملة باتجاه ثغر لشبونةَ الذي تنازل عنه المتوكل للنصارى فأصبحت لشبونة تحت حكم الكونت ريمون البرجوني صهر ألفونسو السادس، واستطاعت الحملة المرابطية أن تستعيد لشبونة بعد أن أبادت حاميتها[1]، وبعد لشبونة واصل المرابطون زحفهم حتى سيطروا على مدينتي شلب ويابرة في غرب الأندلس[2].

وبينما كانت العمليات العسكرية متواصلة في غربي الأندلس ضد النصارى الذين استطاعوا بأساليبهم الدبلوماسية الملتوية أن يسيطروا على كثير من المدن والقلاع الحدودية، مستعملين بذلك الخداع والعهود المعسولة، ومستغلين الظروف الدولية آنذاك وضعف العقيدة والانتماء الفعلي للإسلام في نفوس حكام الطوائف، كان المجاهدون المؤمنون بمصير أمتهم الواحد ينفذون رغبة شعوب شرق الأندلس بتخليصهم من رؤسائهم الفسقة والمتواطئين مع النصارى، والانضمام إلى دولة الوحدة والجهاد التي يقودها أمير المسلمين مستظلاً بهدي الإسلام وإرشادات القرآن.

---

(١) الحلل الموشية، ص٧٢؛ السامرائي، علاقات المرابطين، ص١٧٦.
(٢) حسن محمود، ص٣٠٥.

فمثلما استولى المرابطون من قبلُ على مدن بياسَة، وأبذة، وحصن لييط، وشقورة تمكن القائد محمد بن عائشة حوالي عام ٤٨٥هـ من السيطرة على مدن مُرْسِية، ودانِية، وشاطِبَة في شرق الأندلس[١]. كما خضعت للمرابطين مدينة نبرة. وفي حوالي عام ٤٨٦هـ وصلت قوات المرابطين إلى منطقة أفراغَة[٢]، وكانت قوات مرابطية أخرى تقترب من حدود إمارة بني رزين (السهلة) وإمارة البونت، وبذلك أصبح المرابطون يقتربون من منطقة بَلَنْسِيَة التي كان فيها أميرها المنافق القادر بن ذي النون، الذي فتح حصون هذه المدينة لكثير من الشذاذ والعصابات الصليبية التي يقودها لذريق البيفاري، الملقب بالقمبيطور، لذلك أصبحت الأعمال العسكرية في منطقة بلنسية ذات طابع خاص، استغرق فترة من الزمن لتداخل كثير من الأمور السياسية والعسكرية في شؤون هذه الإمارة.

* * *

(١) ابن الكردبوس، ص١٠٧؛ ابن أبي زرع، ص١٠١.

(٢) ابن أبي زرع، ص١٠١.

الفَصل الثامِن

مملكة بلنسية وظهور القنبيطور

المعروف بالسيد

الفصل الثامن

مملكة بلنسية وظهور القنبيطور

المعروف بالسيد

حكم القادر بن ذي النـون وإدخاله القنبيطور الصليبي إلى بلنسية:

حكمها بعد انتهاء عهد الخلافة بعض الفتيان الصقالبة، ثم تغلب عليها العامريون الذين استمروا في حكمها حتى عام ٤٧٨هـ[١]، وعندما سلم القادر بن ذي النون طليطلة إلى ألفونسو السادس، الذي كافأه بأن أرسل معه قائده البرهانس وقوة من النصارى استطاع القادر الذي فرَّط بطليطلة أن يدخل مدينة بلنسية ويتملكها تحت حمايتهم، ومنذ أن ملك القادر مدينة بلنسية «أحدث فيها أحداثاً وغير أحكاماً وأظهر منكراً كثيراً وصادق ألفونسو وهاداه وراسله»[٢].

وكان القادر يفرض قوته داخل بلنسـية ويهدد البلاد الإسـلامية المجاورة له بهذه القوة الأجنبية التي أدخلته بلنسية، شأنه في ذلك شأن

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٣/ ٢٠٣.
(٢) م. ن.

كل الحكام المستبدين الذين جعلوا الحفاظ على مقعد السلطة غاية تبرِّر لها كل الوسائل.

لكن الشعوب المؤمنة ما كانت تثق بالمفرِّطين، ولا تركن للظالمين والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

وإن ولاء هذه الشعوب وانتماءها لم يكن إلا لعقيدتها وقياداتها المؤمنة برسالتها في الحياة، ولم يكن أهل بلنسية إلا من هذه الشعوب المؤمنة؛ لذلك سرعان ما لفظوا هذا الحاكم المتسلط على رقابهم، الذي يهددهم بمصيرهم ويتسليم بلادهم إلى أعدائهم، كما فعل بمدينة طليطلة.

وأخذوا يتحينون الفرصة للخلاص منه ومن أنصاره الصليبيين الذين يقودهم أحد قادة ألفونسو السادس الكبار ويدعى القنبيطور، واسمه رودريجو (رذريق) دياث الفيفاري (Elcid campiador) من مواليد قرية فيفار قرب مدينة برغش عاصمة قَشْتالة[١].

وقد كان هذا القنبيطور الصليبي سبباً في تعرض مدينة بلنسية المسلمة إلى مأساة تفوق كل المآسي التي يتفنن الصليبيون في تنفيذها ضد المسلمين.

---

(١) الحجي، التاريخ الأندلس، ص٣٦٩.

وكـان القنبيطور أحد مغامري الصليبية الهمجيين يقود آلافاً من المرتزقة، زادوا على سبعة آلاف مقاتل يسخرهم ويبيع خدماتهم لمن يزيد له في الأجر، لا توجد لديه قيم تردعه أو عهود تمنعه، كل شيء مباح عنده: الغدر، الجشع، سفك الدماء، النهب والسلب واللصوصية، لا همَّ له سوى جمع الغنائم والأموال، وما يحرم عليه اليوم يحل له غداً، وقد ساعدته ظروف المرحلة التي كانت تمر بها منطقة شرق الأندلس، ومع كل هذه المواصفات الرديئة والوحشية لازال الإسبان يعتبرونه من أبطالهم[1] الوطنيين والقوميين وينسجون حول سيرته القصص والأساطير، ويرون فيه البطل الذي لا يقهر.

وقد وجد هذا المغامر ضالته التي ينشدها في هذا الأمير المنافق القادر بن ذي النون الذي كان ككثير من رؤساء الطوائف يسالمون أعداء أمتهم ويركنون إلى حمايتهم مقابل أموال يجبونها لهم من أفواه رعاياهم، وعدوهم في كل ذلك يزداد قوة وهم يزدادون ضعفاً.

وقد ساعد على ظهور القنبيطور العمى السياسي الذي أصاب أمراء الطوائف ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] ومن هؤلاء أمير سَرَقُسْطَة الذي يشير إليه ابن بسام في (كتاب الذخيرة) فيقول: «ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود... بعساكر أمير المسلمين تقبل من كل

---

(١) م. ن، ص٣٧١.

حدب وصوب، وتطلع على أطرافه من كل مرقب، آسد كلباً من أكلب الجلالقة يسمى (رذريق) ويدعى بالقنبيطور وكان عقالاً وداءً عضالاً، له في الجزيرة وقائع على طوائفها بضروب المكروه، وكان بنو هود قديماً هم الذين أخرجوه من الخمول، مستظهرين به على بغيهم الطويل وسعيهم المذموم المخذول، وسلّطوه على أقطار الجزيرة، يضع قدمه على صفحات أنجادها، ويركز علمه على أفلاذ أكبادها، حتى غلظ أمره، وعمَّ أقاصيها وأدانيها شره»[1].

وقد حدث أثناء خدمة القنبيطور في سرقسطة أن طلب القادر أمير بلنسية نجدة أحمد المستعين أمير سرقسطة لدفع خطر المنذر صاحب طرطوشة ولاردة، وهو عم أحمد المستعين الطامع ببلنسية.

سار المستعين ومعه رذريق صوب بلنسية لنجدتها وكانت قوات المستعين تبلغ (٤٠٠) أربعمئة[2] فارس بينما مرتزقة القنبيطور ثلاثة آلاف فارس، وفي ظاهر بلنسية جرت مفاوضات بين القادر بن ذي النون وبين القنبيطور الذي يظهر في هذه المفاوضات وغيرها على حقيقته الصليبية وإتقانه اللعب على الحبال، ففي الوقت الذي يتعاقد مع المستعين الذي دفع له الأموال الطائلة مقابل مساعدته في الاستيلاء على بلنسية يستقبل رسل القادر بن ذي النون ويأخذ منه الأموال وينصحه سراً

(١) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٣/ ٤٦.
(٢) ابن الكردبوس، نص تاريخ الأندلس، ص٩٨.

بعدم تسليم المدينة، ومن جهة أخرى يرسل إلى المنذر ـ عم المستعين وخصمه ـ يتحالف معه ويصادقه ويعتبر غشه ودجله هذا كسباً لصليبيته فيرسل إلى ألفونسو السادس يخبره بما حقق من نجاح وبأنه «تابع له وأن أولئك الفرسان الذين يقودهم في أراضي المسلمين دون أية نفقة من الملك إنما هم تحت تصرف الملك ينزلون ضرباتهم بـ(الكفرة) وفي وسعهم أن يحصلوا على شرقي الأندلس بسهولة»[١].

وأمام بلاهة هؤلاء الأمراء وخيانتهم للأمانة التي في أعناقهم تجاه رعاياهم استطاع القنبيطور أن يحقق كسباً كبيراً على الصعيد السياسي والعسكري والاقتصادي.

ففي الجانب السياسي وطد الخلاف بين هؤلاء الأمراء بينما وثق تحالفاتهم معه كل على انفراد، بنفس الوقت الذي حصل فيه على أموال طائلة تحولت إلى مورد سنوي يحصل عليه رذريق تنفيذاً للاتفاقيات التي أبرمها بغشه وخداعه لهؤلاء الأمراء.

وأمام هذا النجاح الذي حققه القنبيطور استقبل في بلاط ألفونسو، وحصل على وثيقة تفوض له امتلاك كل المناطق التي ينتزعها من المسلمين ملكاً له ولأولاده من بعده وعاد من قشتالة مملكة ألفونسو يقود سبعة آلاف صليبي جعل منهم عصابة لإرهاب الرعايا المسلمين،

---

(١) عنان، دول الطوائف، ص٢٣٦.

ولابتزاز حكامهم المتواطئين معه من خلال المعاهدات التي أبرمها معهم بمكره ويتظاهره أنه يعمل من أجل حمايتهم وتثبيت عروشهم، بينما حقيقته أنه يزرع الفرقة فيما بينهم ويسلب أموالهم ويحطم إمكانياتهم العسكرية من خلال ضرب بعضهم ببعض متبعاً أسلوب ألفونسو الذي استعمله مع كبار ملوك غرب الأندلس، أمثال ابن عباد وابن الأفطس وابن بُلّقين، كل هذا يحدث والشعوب المسلمة مغلوبة على أمرها لخلودها إلى الراحة وإيثارها العافية مع سلاطينها فندر من يقول كلمة الحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والنبي ﷺ يقول: «لَتأمُرُنَّ بالمعروف ولَتنهَوُنَّ عن المنكر أو ليُسَلِّطَنَّ اللهُ عليكم شرارَكم ثم يدعو خيارُكم فلا يُستجابُ لهم»[1].

كان من المفروض على أهل غرب الأندلس أن يستفيدوا من تجربة إخوانهم في شرق الأندلس الذين عانوا الويلات من خلال تحالفهم مع دول النصارى عندما امتص ألفونسو أموالهم ولم يعد يرضى منهم إلا بتسليم البلاد، ولو لاحظ هؤلاء الأمراء القنبيطور وهو في منطقة الكدية، شمال بلنسية وأموالهم تجبى إليه ورسلهم تترى عليه ناشدين رضاه وتفويض الأمر إليه لعلموا أنهم في الجهالة غارقون، إذ ما أشبه موقف ألفونسو في طليطلة بموقف هذا القنبيطور في شمال بلنسية.

وإذا كانت العبرة تُستقى من تجارب الشعوب وتاريخ الأمم فما

---

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول: ١/ ٣٣٢.

أحوج أمتنا في هذا العصر إلى استقاء العبرة الصالحة من تاريخها الذي دون لها كل الأحداث وأشار إلى كل الأخطار وأوضح أن لا عزة لهذه الأمة ولا سيادة إلا بتمسكها بعقيدتها التي تملأ النفوس بالأنفة والحمية الإسلامية فترفض الركون للأجنبي، وتنبذ الفتن التي يعمُّ بلاؤها كل أبناء المجتمع حكاماً ومحكومين ولهذا حذرنا الله تعالى من هذه الحالة بقوله:

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

إذاً كان أعداء أهل الأندلس يعملون على تقويض حكم المسلمين ضمن برامج محددة ومدروسة وربما لازال أعداء الإسلام يتمسكون بنفس تلك البرامج والتي تقضي بالعمل على تكريس حالة الفرقة والخلاف في الصف الإسلامي، ثم العمل على امتصاص الإمكانيات الاقتصادية، وبالتالي توجيه الضربة النهائية لاقتلاع أي شكل من أشكال السيادة والاستقلال في توجهات الأمة، وبذلك تكون تابعة ضعيفة لا تملك أن تقول كلمة (لا) في وجه أي غاصب.

كان لقاء القنبيطور مع ألفونسو يهدف إلى وضع الخطط وتنسيق الأعمال المضادة للمسلمين، وقد حصل القنبيطور على موافقة ألفونسو ودعمه؛ لذلك عاد يقود عصابات صليبية تزيد على سبعة آلاف مقاتل.

كانت استراتيجية هذا القائد تقوم أولاً على المكر والخداع، حيث يتقرب من بعض رؤساء الطوائف متظاهراً بالولاء والإخلاص لهم،

وبالعمل للدفاع عن مصالحهم ومشاريعهم التوسعية في بلاد جيرانهم، حتى إذا تمكن موقفه، واطمأن إلى إمكانياته، وثَّق علاقاته السرية بأمراء آخرين، حتى إذا عصفت بهم ريح الفتنة والخلاف، وشعر بحاجتهم إلى استخدام قوته، أخذ يملي شروطه عليهم حتى تمكن من فرض حمايته على الكثير منهم، كل ذلك لبعدهم عن دينهم، وقِصَرِ نظرهم، وكثرة معاصيهم، وقد أشار إلى هذه الحالة المنحرفة عن هدي العقيدة الإسلامية الفقيه الزاهد ابن عسّال على إثر سقوط مدينة بربشتر عام ٤٥٦هـ بقوله:

لـولا ذنـوبُ المسلميـنَ وأنَّهـم ركبـوا الكبـائـرَ مـا لهـنَّ خَفـاءُ
ما كان يُنْصَرُ للنصارى فارسٌ أبداً عليهم، فالذُّنوبُ الدَّاءُ[(١)]

وبهذه السياسة تمكن القنبيطور من فرض الضرائب الطائلة على أمراء شنتمرية الشرق ومربيطر، والقادر أمير بلنسية الذي دفع له الأموال واضعاً نفسه تحت حمايته إضافة لما يرتبط به من علاقات مع أمراء سرقسطة جمع من خلالها الكثير من الأموال وبذلك أصبحت إمكانياته تفوق إمكانيات أي أمير في الجانب العسكري والاقتصادي.

«وقد أخذ بمخنق بلنسية وألقى زوره عليها، يجبي رعيتها ويستغلها حاضرة وبادية، وقد استضعف ابن ذي النون ملكها المشؤوم وكان قد

---

(١) ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب: ٢/ ٢١.

اجتلبه ليحتزم به فرمى بسهمه إلى نحره فخلعه اللعين وبقي حتى أراد الله بما أراد من حتفـه، وكان أيضاً صاحب سرقسـطة ابن هود يمير لذريق وأصحابه النصارى ويعضده بالسلطة . . . »[1].

وواضح من خلال هذا النص أن السلطة الحقيقية في بلنسية قد أصبحت بيد القنبيطور وبقيت بلنسية على هذه الحال تعاني من تفريط حاكمها المنافق ومن خلفه عصابات القنبيطور، إلى شهر شعبان من عام ٤٨٥هـ حيث انتقل القنبيطـور إلى سرقسطة واستخلف على أطعمتـه المختزنة وضرائبه المفترضة ببلنسية، ولا شك أن هذا من العجب أن يأتي صليبي خالي الوفاض من كل فضيلة وخلق كريم فيتمكن من بلد إسـلامي يستلب خيراته ويجني ثماره ويذل أهله وحاكمه، والأمـراءُ المحيطون به من جيرانه يعينونه على ذلك ويفتحون له أبواب قلاعهم وحمى بلادهم إلى الحد الذي أصبحوا فيه وكلاء لهذا الأجنبي الدخيل، يحرسـون أمتعته ويجبـون له الأمـوال من رعاياهم، ولكن إذا ارتضى السلاطين لأنفسهم التبعية للأجنبي فهل تقبل الشـعوب المؤمنـة بالله وبرسوله ﷺ المتمسكة بعقيدتها وكرامتها بأقل من الإطاحة بهم وتطهيـر البلاد من أعوانهم وحلفائهم.

إن ما فعله أهل بلنسية يدل على أن الشعوب المسلمة لا تقبل التبعية ولا تقبل التفريط بأي شيء من حقوقها، وهي وإن سلبت إرادتها في

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٣١.

بعض الحقب التاريخية فسرعان ما تستردها عندما تحين لها أول بارقة خلاص.

ومن المعلوم لدينا أن المرابطين خلال هذه الفترة أي عام ٤٨٥هـ وما قبلها وبعدها أيضاً يصبّون جهودهم في غرب الأندلس، وأن قوتهم الرئيسة التي يقودها الأمير سير بن أبي بكر مستمرة في جهادها ضد قوات ألفونسو وتعمل على قطع أي اتصال بينه وبين حلفائه في غرب الأندلس، وفي هذه الفترة كان أمير المسلمين في المغرب يرسل الإمدادات والتوجيهات والخطط العسكرية إلى قادته المنتشرين في الأندلس.

ثورة ابن جحّاف والاستنجاد بالمرابطين:

أما في شرق الأندلس فقد وصلت طلائع المجاهدين إلى مدينة شاطِبَة ودانية وهنا لاحت لأهل بلنسية بارقة الخلاص من القادر بن ذي النون وحلفائه النصارى، ووقع الإجماع من القاضي أبي أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف بن يُمن المعافري، وصاحب الأحكام ابن واجب وأهل الحل والعقد من أهل بلنسية على إعلان الثورة ضد النصارى والقادر بن ذي النون، للتخلص من ظلمهم وتعسفهم والاتصال بالقائد المرابطي محمد بن عائشة لمساندتهم في مواجهة قوات القنبيطور.

ولما وصل البلنسيون إلى القائد ابن عائشة كانت مهامه قد تشعبت وكثرت واجباته العسكرية والإدارية لإقرار الأوضاع وتنظيم الأعمال في المناطق التي خضعت للمرابطين لذلك اكتفى بإرسال مجاميع من

المجاهدين ما بين ثلاثمئة[1] أو خمسمئة[2] بقيادة القائد (أبو نصر) وقد شقت هذه العصبة طريقها إلى بلنسية، واستولت على عدة قلاع واقعة في طريقها.

وما كادت كتيبة (أبو نصر) المجاهدة تقترب من بلنسية حتى فر أعوان القادر بأموالهم وعيالهم إلى القلاع المجاورة، أما جند القنبيطور المتسلطين على رقاب أهل بلنسية فقد فروا إلى سيدهم في سرقسطة، وبهذا نستدل على أن عصابات القنبيطور لم تبدِ مقاومة حقيقية، وأن هذه الهالة التي يُلبسها المستشرقون لهذا المغامر إنما جاءته من خلال ما حققه من مكاسب استلبها من أشباه الرجال وأشباه القادة المتسلطين على رقاب المسلمين في مناطق شرق الأندلس، الذين سلطوا على أنفسهم ورعاياهم أمثال هؤلاء الصليبيين، ومن غير الممكن أن يكتسب أي قائد للمسلمين صفة القيادة الشرعية في بلاده وهو متلبس بأخلاق أعدائهم وعاداتهم، يفتح مغاليق بلاده لهم يطوفون بها كيفما شاؤوا وأنَّى شاؤوا، لهم كل الرعاية والتبجيل بينما يحرم المسلمون من كل هذا. . .

ولما كان القادر بن ذي النون من هذا الصنف اللاشرعي في حكمه، سرعان ما اختفى عن الأنظار، وجدَّ في الهرب لعله ينجو من حساب شعبه الذي عانى الهوان والذل خلال فترة تسلطه.

---

(١) م. ن.
(٢) حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص٣٩٣.

لكن ثوار بلنسية تمكنوا منه وأجروا له محاكمة شرعية اقتضت أن يسلم إلى فتى من بني الحديدي ينفذ فيه حكم (الإعدام) قصاصاً كما فُعل بوليِّه أبي بكر بن الحديدي زعيم طليطلة، وهذا منقلب الظالمين، وذلك في رمضان من عام ٤٨٥هـ وبهذا تخلصت بلنسية من هذا الحاكم الذي هدد مصيرها بعدما سلط عليها أعداءها.

وبدخول المرابطين إلى بلنسية تمكن أهلها من إقامة حكومة منتخبة من أهلها يرأسها القاضي ابن جحاف، فاستتبَّ الأمر فيها وطابت الحياة إلى حين، بعد أن حَكَّم فيها شرع الله وألغى كل ما يخالف الكتاب والسنة من ضرائب ولم يبقِ سوى العشر والزكاة.

وقد جُنَّ جنون القنبيطور لما حصل في بلنسية، إذ كان يعتبرها مزرعة خالصة له يجني منها ما يشاء من المحاصيل المخصبة إذ بلغت ضرائبه التي يجنيها له القادر «مئة ألف دينار في العام»[١].

إن هذا المستأسد على بلاد شرق الأندلس ومنطقة الثغر الأعلى لم يستطع أن يفعل شيئاً ضد بلنسية وهي محمية بهذه الثلة القليلة من المجاهدين، وإن دلَّ هذا الموقف على شيء فإنما يدل على أن المسلمين إذا حكَّموا دينهم، وتشربت معاني الجهاد في نفوسهم، فإن أقوى القوى العاتية تهابهم وتخشى مواجهتهم لتحقق قول الله تعالى فيهم: ﴿إِن تَنصُرُوا

---

(١) ابن الكردبوس، نص تاريخ الأندلس، ص١٠٣.

اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] وقوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣].

مخادعة القنبيطور واستغناء ابن جحاف عن نصرة المرابطين:

وأمام خشية القنبيطور من مواجهة المرابطين عاد إلى أسلوبه القديم القائم على الدبلوماسية الماكرة يستعمله مع القاضي ابن جحاف فأخذ يراسله ويقدم له عروض المساعدة والخدمة، وأن يكون عوناً له في تثبيت حكمه، وفي كل ذلك يصور له المرابطين بأنهم خطر على مستقبله ومستقبل منطقة شرق الأندلس السياسي، ويبدو أن ابن جحاف لا يخلُ من بعض عيوب عصره، والتي كان أخطرها وأشدها فتكاً ذلك المرض الذي فتك بأهل الأندلس في القرن الخامس حتى جعلهم شيعاً وأحزاباً ذلك هو حب الذات وحب الظهور وتقليد الكبار من عظماء التاريخ.

«وتبوأ ابن جحاف تبوأ الرياسة ورتَّب أرزاق الجند والخدمة واستشعر غلظة الرؤساء وأظهر أبهة الملك، وطمح بصره إلى قضية القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد، فما حسن النظر ولا ساعده القدر، فكان يجلس مكتنفاً بالوزراء والفقهاء والزعماء، والغلمة أمامه، ويركب فيتقدمه العبيد والطرد ويتأخر عنه الجند وتستقبله المصانعة بالدعاء والثناء»[1].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢/ ٣٢.

وهذا السلوك ومظاهر الأبهة لا تمتُّ إلى الخلق الإسلامي الذي رسمه نبي هذه الأمة ﷺ بمظهره وأدائه في الحكم وفي القيادة، ومن بعده الراشدون من قادة هذه الأمة، فكان حريٌّ بابن جحاف أن يترسَّم خطى هؤلاء الكرام الأبرار وأن يعتبر بما آل إليه حال أمراء الطوائف، وأن يستشعر ما عليه حال أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي اقتصر على القليل من دنياه، واكتفى بالأدنى من متاعها في مظهره ومأكله، وصرف جهده ووقته لخدمة الأمة وإعزاز المسلمين وجمع كلمتهم.

إلا أن ابن جحاف تغافل عن كل هذا فوقع بما وقع به أمراء الطوائف، ولم يعد يمتاز كثيراً عنهم فأصيب بداء العظمة والحرص على البقاء وغيرها من الأمراض التي مزقت الصفوف وخالفت بين القلوب، وضلَّ بسببها الكثير من القادة والدعاة، فتشتت جندهم وانفضَّت جموعهم.

ويبدو أن القنبيطور قد ضرب على هذا الوتر وأخذ يخاطب ابن جحاف بما يدغدغ أحلامه ويزيد من آماله، «ثم كاد القنبيطور عدو الله ابنَ جحاف وخدعه، وداخله في إقامة أوده وتوطيد ملكه إذا صرف اللمتونيين ـ أي المرابطين ـ وأزعجهم، أنه يسوغ استبداده بالملك ويقيمه مقام ابن ذي النون ويقاتل عنه من يريده»(١).

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٥٠.

وبهذا الأسـلوب القديم المبني على المكـر والخداع اسـتطاع القنبيطور أن يقنع القاضي ابن جحاف بالاستغناء عن خدمات إخوانـه المرابطين، وأن يصرفهم عن بلنسية بعد أن استثقل القوم وضاق بمؤونتهم حتى استشعروا ذلك منه، وابن جحاف يزداد غلظة واحتجاباً عنهم ظاناً أن الدنيا أصبحت ملك يديه فصرف إخوانه المرابطين، وجلـس يدير شؤون بلنسية غافلاً عن أن أعداء الإسلام لا عهد لهم ولا ميثاق، وأنهم كما وصفهم الله جل شأنه ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨].

وهكذا يتبين أن القاضي ابن جحاف ارتكب خطأ استراتيجياً عندما أصغى لنصح عدوه واطمأن إلى عهوده التي لم يفِ بها في يوم من الأيام، فكان بذلك يسعى إلى حتفه بِظِلْفِه، فنُكبت بلنسية بهذه السياسة الغافلة نكبـة لازال الناس يتحدثـون عنها ويعجبون من ظلم الإنسـان لأخيـه الإنسان.

سقوط بلنسية بيد النصارى:

خُدع ابن جحاف بعهود القنبيطور كما أسـلفنا فصرف إخوانـه المرابطين، وبذلك حقق أمنيـة عدوه، وانسـاق إلى مقتله، فما إن علم القنبيطور بخروج ثلة المرابطين من بلنسية حتى ذهب عنه روعه وعاد إلى نهجه العدواني فجمع الجند وأكثر من الأقوات والسلاح وأطبق على

بلنسية ينتسف الزرع ويهدم الدور ويسبي الناس، يزيده جرأة على ذلك تخاذل جيران بلنسية عن نجدتها.

وتمادى القنبيطور في مطالبيه ثم طلب من ابن جحاف أن يسلمه موارد المدينة، ويقدم ابنه رهينة إلا أن ابن جحاف رفض هذه المطالب وقرر الاستمرار بالمقاومة بعد أن أدركه الندم على تفريطه بالمرابطين الذين صرفهم بأمر منه. ولم يعد أمام ابن جحاف سوى العمل على إطالة أمد الحصار والسعي للحصول على نجدة أخرى من المرابطين ترفع عنه طوق الحصار.

فاتُخذت التدابير الاقتصادية داخل بلنسية، وأرسلت الوفود عام ٤٨٦هـ لطلب النجدة من المرابطين حتى وصلت أخبارهم إلى أمير المسلمين الذي جدَّ في أمرهم وأوعز إلى قادته القريبين من بلنسية إلى العمل على إنقاذ هذه المدينة من الحصار، لكن لم يكن من السهل تنفيذ رغبة أمير المسلمين بهذه السرعة لكثرة الجبهات المستعرة ولبعد الشقة وفي هذا الوقت أكمل النصارى حصار بلنسية حتى لم يعد أحد يستطيع الدخول أو الخروج من المدينة. وفي عام ٤٨٧هـ[١] ضاقت النفوس وزاد حقد العدو وهلك أكثر الناس جوعاً، وأكلت الجلود والدواب وغير ذلك، ومن فرّ إلى المحلة فُقئت عيناه أو قُطعت يداه أو دُقَّت ساقاه أو قُتل فرضي الناس بالموت داخل المدينة وزادت هذه الأزمة على أزمة

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٣٣.

طليطلة أضعافاً لطول فترة الحصار، وتضاعف حقد النصارى على أهل بلنسية لصبرهم وطلبهم النصرة، فعمد الصليبيون إلى العمل بكل الوسائل التي تزيد من محنة هذه المدينة الباسلة وما أبرع الصليبيين في ابتكار الوسائل التي تزيد من معاناة الإنسانية جرياً وراء ما اتصفوا به من جشع وحب للتسلط والسيطرة؛ ولكي تزداد محنة أهل بلنسية سوءاً «جد الطاغية في حرق من خرج من المدينة لئلا يخرج الضعفاء ويتوفر القوت على الأغنياء، فهان على الناس الإحراق بالنار، فعبث فيهم بالقتل وعلقت جثثهم في صوامع الأرباض ـ الضواحي ـ وبواسق الأشجار»[1].

وهنا يتبادر تساؤل عن مقاييس البطولة والوطنية عند أتباع القنبيطور ومن هم على دينه ومذهبه.

أليس من العجب أن يُتخذ هذا المغامر الذي يدعى القنبيطور بطلاً وطنياً في إسبانية وفي بلاد الصليبية عامة، أم أن البطولة في عرف الصليبية هي التشفي بمعاناة الشعوب الأخرى لاسيَّما المسلمة منها؟!.

ونظراً لتجرد القنبيطور من المشاعر الإنسانية فقد جلب على بلنسية مزيداً من المعاناة والآلام، وفي هذا الصدد يذكر ابن علقمة وهو ممن شهد الحصار وذاق ويلاته واسمه محمد بن خلف الصدفي الذي كتب تاريخ بلنسية وسجل فيه هذه الأحداث المروعة في كتاب أسماه

---

(١) م. ن: ٣٩/٤.

(البيـان الواضح في الملم الفادح)[1] وصف بأنه يبكي القارئ ويذهل العاقل.

إن مما امتحن به أهل بلنسية في عام ٤٨٧هـ الغلاء حتى بلغ رطل القمح في ربيع الأول بمثقال ونصف ورطل الشعير بمثقال، ورطل زريعة الكتـان سـتة أثمان المثقال وأوقيـة الجبن ثلاثـة دراهم وأوقية البصل بدرهـم، وبيضـة دجاجـة بثلاثة دراهم.

وفي ربيع الثاني عظم البـلاء وتضاعف الغلاء، واستوى في انعدام القـوت الفقراء والأغنياء، فأمر ابن جحاف باقتحام الدور فحصاً عن القوت. وانسلخ هذا الشهر ورمق سـائر الناس بـالجلود والأصمـاغ وعروق السـوس ومن دون هـؤلاء بالفئران والقطط وجيف بني آدم.

ودخل جمادى الأولى وعدمت الأقوات بالجملة وهلك الناس ولم يبق من ذلك الجمّ إلا نزر يسير، وتوالى اليبس، واستحكم الوباء، وبينما الرجل يمشي يسقط ميتاً ولم يبق ما يدبُّ على أربع إلا اثنان لابن جحاف وابنه واثنان لابن رتبير، وباع ابن رتبير فرسه من الجزارين بمئتي مثقال واستثنى منه عشرة أرطال فبيع الرطل منه أوله بعشرة دنانير وآخره باثني عشر ديناراً ورأسه بخمسة عشر مثقالاً[2]. وأمام هذا الوضع المؤلم

---

(١) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٣٧٨.

(٢) ابن عذاري، البيان: ٤/ ٣٨.

والصمود الرائع الذي استمر أكثر من عشرين[1] شهراً متواصلاً، وأهل بلنسية ينتظرون العون والمدد لكن دون جدوى، فبلغ بهم السيل الزبى، وانتهوا من الصبر إلى الغاية القصوى، ولا نصر ولا غوث، فألجأتهم الحال إلى دخول العدو بحكم الاضطرار لا بحكم الاختيار فتجمع أهل بلنسية إلى قاضيهم وبسطوا له القول وأعلموه بجلية الحال وانعدام الطعام والاضطرار إلى أكل الجيف والكلاب إلى أن أكل الناسُ الناسَ ومن مات منهم أكلوه[2].

فأجمع أهل بلنسية إجراء المفاوضات مع القنبيطور لتسليم المدينة إليه «فأجاب في هذا الشأن وعقد نيته على الختر ونقض العهد وإعطاء أمان مثله من الأنجاس، فخرج إليه القاضي وعقد عليه العقود وأخذ المواثيق والعهود وحزم في كل ذلك وبلغ الغاية التي ما بعدها غاية ولا وراءها لمجتهد نهاية فلما كمل الأمر فتحت له الأبواب ودخل المدينة بجملته وذلك في جمادى الأولى من هذه السنة عام ٤٨٧هـ»[3]. ولكن متى كان للطغاة عهد وميثاق والله تعالى يقول: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨]، ومتى احتكموا إلى معاهدة أو قانون وهم يرون الناس دونهم وأن القانون لديهم هو المصلحة

(١) ابن الكردبوس، نص تاريخ الأندلس، ص١٠٣.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ١٤٧.
(٣) م. ن، ص٨٤.

التي تخدم عروشـهم وتزيـد من تسـلطهم، أمـا العبث بحيـاة النـاس وحرمانهم من حقوقهم الطبيعية التي وهبها الله لهم في الحياة والعيـش الحر الكريم، وحـروب الإبـادة والتشـريد الجماعي ونهـب الممتلكات واستيطان البيوت واغتصاب الأرض؛ كل ذلك مشروع في دنيا الطغاة لسد شرههم وإشباع جشعهم وكأنهم فيها خالدون.

حرق القاضي ابن جحاف:

خرج القاضي إلى القنبيطـور يوم الخميـس منسلخ شهر جمادى الأولى من عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م[١]، ودخل اللعين إلى المدينة مع جملة من رجاله وصعد جماعة منهم فملكوا الأبراج والأبواب وبذلك بدأ بنقض عهوده التي أعطاها لأهل بلنسية والتي كانت تنص على الشروط التالية: «أن يبقى ابن جحاف قاضياً للمدينة وحاكماً لها، وأن يؤمن في نفسه وماله وأهله، وأن يؤمن السكان في أنفسهم وأموالهم، وأن يتولى مندوب السيد ـ القنبيطور ـ الإشراف على تحصيل الضرائب وأن تحتل المدينة حامية من النصارى المعاهدين الذين يعيشون بين المسلمين وأن يرابط السيد بجيشه في ـ ضاحية ـ جيالة، وألا يغير شيئاً من شرائع المدينة وأحكامها»[٢].

لكنـه نقض كل هذه العهود وأخذ يختلق الذرائع للتنكيل بأهل

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٤٩.

(٢) عنان، دول الطوائف، ص٢٤٤.

بلنسية، وقد أورد ابن بسام المعاصر لهذه الأحداث نصاً يبين فيه السبب الذي اختلقه القنبيطور لاعتقال القاضي فيقول: «تم للطاغية لذريق مراده الذميم من دخول بلنسية سنة ثمان وثمانين على وجه من وجوه غدره، وبعد إذعان من القاضي المذكور بسطوة كبره ودخوله طائعاً في أمره، على وسائل اتخذها، وعهود ومواثيق بزعمه أخذها، لم يمتد لها أمد ولا كثر لأيامها عدد، وبقي معه مديدة يضجر من صحبته ويلتمس السبيل إلى نكبته حتى أمكنته، زعموا بسبب ذخيرة نفيسة من ذخائر ابن ذي النون. . ولعلها كانت منه حيلة أدارها وداهية من دواهيه أسداها وأثارها. فانحنى على أمواله بالنهاب وعليه وعلى أهله وولده بأنواع العذاب، حتى بلغ جهده ويئس مما عنده فأضرم له ناراً أتلفت ذِماءهُ ـ روحه ـ وحرقت أشلاءه.

حدثني من رآه في ذلك المقام وقد حفر له حفير إلى رفغيه ـ أصول فخذيه ـ وأضرمت النار حواليه، وهو يضم ما بَعُدَ من الحطب بيديه، ليكون أسرع لذهابه، وأقصر لمدة عذابه، كتبها الله في صحيفة حسناته، ومحا بها سالف سيئاته، وكفانا بعد اليوم نقماته، ويسرنا إلى ما يزلف إلى مرضاته، وهمَّ يومئذ الطاغية ـ لعنه الله ـ بتحريق زوجته وبناته»[1].

وقد أورد ابن عذاري وصفاً كاملاً أيضاً لمشاهد المأساة الهمجية التي ارتكبها القنبيطور الصليبي بحق قاضي بلنسية فيقول: «لمَّا تمهدت

---

(١) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٣٨٢.

بلنسية للقنبيطور ـ لعنه الله ـ بدأ بثقاف قاضيها ابن جحاف وثقاف أهله وقرابته فعمهم الثقاف وبلغتهم المحنة وجعل يطلبهم بمال حفيد ابن ذي النون، ولم يزل يستخرج ما عندهم حتى استصفى أموالهم واستنفد أحوالهم، فلما لم يترك لهم ظاهراً ولا باطناً أمر بإضرام النار وسيق القاضي أبو المطرف يرسف في قيوده، وأهله وبنوه حوله، وقد حشر الناس من المسلمين والروم. . . وأمر به وبجملته بذلك الضرم وقد لفح الوجوه على المسافة البعيدة فضجَّ المسلمون والروم وتضرعوا إليه في ترك الأطفال والعيال إذ لا ذنب ولا علم بتلك الأمور عندهم فأسعف الرعية في رغبتهم بعد جهد ومدة وترك النساء والصبية، وحفر للقاضي حفرة وأدخل فيها إلى حجزته وسوِّي التراب حوله وضمت النار إليه فلما دنت منه ولفحت وجهه قال: «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم ضمها إلى جسده فاحترق ـ رحمه الله تعالى ـ»[1].

بهذه الوحشية يتعامل الطغاة مع كل من يقف ضد مخططاتهم العدوانية، والقاضي ابن جحاف ليس إلا مجاهداً من المجاهدين الذين وقفوا في وجه الطاغية فاستطاع بجرأته أن يزيل إرهاق ابن ذنون لأهالي بلنسية، وهو إن كان قد أخطأ عندما صرف المرابطين الذين جاؤوا لنجدته إلا أنه مسح كل أخطائه بصموده وثباته الرائع في وجه القنبيطور الذي تميَّز من الغيظ على ابن جحاف لاستنجاده بالمرابطين.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٣٧.

«ولم يكن غضب الطاغية عليه إلا لشدة صبره على تلك الأزمة واجتهاده في طلب النصرة ودفعه إياه بالمطاولة رجاءً في استمساك البلدة ـ للإسلام ـ وإبقاء الكلمة»[1].

وهكذا قضى ابن جحاف نحبه بعد أن استنفد كل طاقاته الجهادية وضرب أروع الأمثلة في الثبات والصبر ومطاولة العدوان حتى أُعذر، مما زاد من حنق وحقد الطاغية الصليبي الذي مثل أخلاق الغرب ووحشيتهم في حالات تمكُّنهم وغلبتهم أتم تمثيل ـ لاسيَّما إذا كان ذلك في مواجهة أحد من المسلمين ـ اتضح ذلك في النهاية المؤلمة والمصير المرعب المقرون بكل أشكال الإرهاب للأبرياء من الأطفال والنساء وعامة أهل بلنسية؛ الذين تعرضوا للترويع والتهديد بإحراقهم مع أميرهم ابن جحاف، عندما حشرهم القنبيطور ليشاهدوا بطلهم يلقى نهايته تلك بين مظاهر التشفي والتلذذ بإبراز مظاهر الاقتدار والقوة الخالية من كل وجوه المروءة والرحمة والرجولة، إلا أن مواجهة ابن جحاف لإرهاب القنبيطور بثقة المؤمنين وإخلاص المجاهدين صنعت له نصراً خالداً وهزيمة لصليبية القنبيطور ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨].

محنة أهل بلنسية على يد القنبيطور ٤٨٨هـ/١٠٩٥م:

لم تنتهِ محنة أهل بلنسية عند الحد الذي أسلفنا القول فيه بل استمرت عليهم حتى شهر شعبان فعندما اتصلت الأنباء بأهل بلنسية أن

(١) م. ن، ص٣٨.

عساكر المسلمين بمدينة مرسية، أشاع النصارى «أنه متى هجمت علينا محلة المسلمين ـ معسكرهم ـ أمضينا السيف على أهل بلنسية»[1].

وقد كان القنبيطور يخشى المواجهة مع المرابطين كما اتضح ذلك عندما كان في بلنسية مجموعة منهم لذلك شدد على أهل بلنسية وابتلاهم بأنواع المحن وعمل كل ما في وسعه على تجريدهم من السلاح، واعتقد أن سياسة تجريد المسلمين من السلاح سياسة ثابتة لدى القوى الصليبية كافة، وقد أخذت شكلاً شبه نهائي في هذا العصر تتجلى صوره في الإجراءات والترتيبات الأمنية والعسكرية المعاصرة.

ومن المعلوم أن تجريد المسلمين من السلاح ليس غاية بذاته وإنما هو وسيلة، أما الهدف فهو إزالة العقبات والحواجز التي قد تعترض سياسات التوسع أو استخدام أراضي الإسلام كقواعد عسكرية أو اقتصادية أو لابتزاز خيرات وثروات البلاد الإسلامية.

وفي مثل هذه المواقف من العبر ماينبه على وجوب الحذر والاستعداد والتحفُّز لمواجهة مرحلة ما بعد سياسة التجريد من السلاح التي هي أشد خطراً وأكثر أهوالاً والتي ستشمل بنتائجها جميع أبناء الأمة وبجميع مشاربهم وتوجهاتهم السياسية والفكرية.

وقد كانت سياسة القنبيطور المتوحشة ضد أهل بلنسية تنطلق من

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٤٠.

خوفه من قيام تعاون بين المرابطين وأهل بلنسية، لذلك أصدر أوامره وأعطى تعليماته الظالمة:

«من وجد عنده شيء من آلات الحديد فماله ودمه حلال، فبرئ الناس منه حتى الإبر والمسامير ووضعوا ذلك بباب القصر وقد تضاعف الجزع والخوف»[1].

ومن خلال التأمل في هذا النص يتضح الترابط الوثيق بين أعداء هذه الأمة في الماضي والحاضر، وكم يبذلون من الجهد لتبقى هذه الأمة مجردة من سلاحها وبعيدة عن عقيدتها؛ لأن الأمة التي لا تملك السلاح وهي مجردة من العقيدة لا يعتد بها ولا تحترم إرادتها مهما اتسعت مساحتها وكثرت شعوبها. بل إن مساحتها وشعبها ستُسخر لإرادة الأجنبي وخدمة مخططاته وأهدافه.

وهذا ما يتبين في سياسة القنبيطور عندما استأسد على أهل هذه المدينة المنكوبة به وبأعوانه بعد أن جردها من مجاهديها وسلاحها، وأصدر أوامره باجتماع أهل بلنسية:

«فلما تكامل الناس لحق بهم المترجم مع زعماء الروم فميزهم، فمن كان من أهل اليسار صرف إلى المدينة، ومن كان من أهل النجدة جرد ونفي وغلب على الظن أنهم قتلوا فكان الحزن في دورهم،

---

(١) م. ن، ص٤٠.

واستمرت الحال على ذلك شهر رمضان»[١].

ومما زاد من شراسة القنبيطور ووحشيته فشل إحدى المحاولات التي قامت بها بعض كتائب المرابطين لإنقاذ بلنسية، فتجبر الطاغية وأصدر أوامره مرة أخرى «باجتماع المسلمين إلى القصر ثم خرج عليهم ونظر إليهم وعرَّض بذكر المرابطين وكثرتهم وأن ذلك ما أغنى عنهم وجعل ينظر في عطفه ويشمخ بأنفه ثم قال: انظروا لي في سبعمئة ألف مثقال وإلا هلكتم وأحلت السيوف عليكم، ثم خرج وبقي المسلمون في القصر وأغلق عليهم الباب فصاروا في سجن والروم تحفُّهم بالأسلحة فرأوا الموت ووقع البهت وخرست الألسنة»[٢].

وأمام كل هذه الشواهد والدلائل البينة على وحشية الصليبية، هل ينخدع عاقل فيعتقد يقيناً أن لهؤلاء ذمماً وقيماً وأعرافاً إنسانية فيما يتعلق بالتعامل مع المسلمين، أليس هذا الصليبي هو الذي قطع على نفسه العهود والوعود وأعطى المواثيق وأشهد الشهود على الوفاء لأهل بلنسية وعدم التدخل في شؤونهم وقضاياهم الداخلية؟.

لقد اتضح مما سبق أن هؤلاء القوم يجعلون من التنكيل بالمسلمين العُزَّل بطولة ويعتقدون أن المكر والخداع وإعطاء المواثيق والعهود ونقضها سياسة يدينون بها على مر العصور.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) م. ن.

وأمام اتضاح هذا الجانب في السياسة الصليبية، يثار تساؤل عن حقيقة العلاقة التي تربط بين اليهود والنصارى أو بين الصليبية والصهيونية إذ لم ترتفع راية للنصارى في زاوية من أرض الإسلام إلا واليهود ممسكون بساريتها ولم تقم لليهود دعوة إلا والنصارى جنود مخلصون فيها، فما الذي يربط بين هؤلاء، ومعتقداتهم التي يدينون بها متباينة ولغاتهم مختلفة وأصولهم متباعدة وتاريخهم غير مشترك، والكثير من النكبات والمآسي التي أصابتهم على مر التاريخ من كيد بعضهم للبعض الآخر وليست النازيّة منا ببعيد؟.

فهل المصلحة هي التي تربط بين هؤلاء؟ وهل من الممكن أن تتفق مصالحهم على مر التاريخ؟ إن الذي يجمع هؤلاء المتناقضين هو العداء الكامن في نفوسهم لهذه الأمة ولعقيدتها و(ملة الكفر واحدة).

وقد نبّه القرآن الكريم على الترابط بين اليهود والنصارى وحذر من موالاتهم، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

والتاريخ يحمل الكثير من الشواهد التي تثبت ذلك، وفي العلاقة التي تربط بين اليهود والنصارى في هذا القرن ما يفسر معاني هذه الآية تمام التفسير.

وعلى كل حال فإن القنبيطور كان يتخذ من اليهود وزراء له، شأنه

في ذلك شأن ألفونسو السادس وشأن الكثير من دول وقوى الغرب في هذا العصر.

ونظراً لبراعة اليهود في الابتزاز والاستغلال ولتجردهم من كل موازين الرحمة والإنسانية فقد أوكل القنبيطور إلى وزيره اليهودي، استخلاص الأموال التي طلبها من أهل بلنسية «ثم رجع اليهودي وزيره إليهم وقال لهم: لم أزل الاطفه حتى قاطعته عليكم بمئتي ألف مثقال فبادروا بتوزيعها وافدوا أنفسكم منه، فتوزع العدد على الأموال واشتد ثقاف الأغنياء وبلغ اليهودي ـ لعنه الله ـ من المسلمين مبلغ الغاية في العذاب، وسلط اليهود على الإسلام فبلغوا النهاية في النكال والنكاية، ومنهم الأمناء الموكلون والمتصرفون وأصحاب الرسوم وخدام البر والبحر، وجلس اليهودي للقبض بصاحب المدينة من الضرب بالعصا والسوط، وقيض لكل منهم شيطاناً يخرج معه كل عدو فإن جاء بشيء وإلا أخذ بالسوط والعذاب، وتمادت هذه المحنة مدة فلا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

وقد صور الشاعر الأندلسي ابن خفاجة ما آل إليه حال مدينة بلنسية وما عانته من تخريب وهمجية الصليبية ووحشيتها فقال:

عـاثـتْ بسـاحتِـكِ الظِّبـا يـا دارُ ومَحَـا محـاسنَـكِ البِلَـىٰ والنـارُ

(١) المقري، نفح الطيب: ٢/ ٥٧٧.

فإذا تردَّدَ في جنابِكِ ناظِرٌ   طالَ اعتبارٌ فيكِ واستعبَارُ
أرضٌ تقاذفتِ الخطوبُ بأهلِها   وتمخَّضَتْ بخرابِهَا الأقدارُ
كتبتْ يدُ الحَدَثانِ في عَرَصاتها   لا أنتِ أنتِ، ولا الدِّيارُ دِيارُ[1]

وبهذه الهمجية وسياسة الإرهاب والترويع استطاع القنبيطور أن يحصل على الكثير من مطالبه وأن يوطد أمره في بلنسية إلى حين، وجعل منها قاعدة للعبث الصليبي في تلك الجهات، فكثر شر الغارات الصليبية وعظم ضررها وانقطعت السابلة وسدت الطرق، وأصبح أهل تلك الجهات المجاورة لبلنسية في ضيق شديد فخاطب الناس أمير المسلمين وأعلموه بفساد الحال في شرق الأندلس وإشراف الأمة على الهلاك.

فجد في أمرهم واستجاب لمطلبهم وتحرك إلى مدينة سبتة ليكون قريباً من ساحة الجهاد ومشرفاً على حال رعيته، معالجاً لكل معاناة تعترض حياتهم وأمنهم، وكما قال الشاعر:

فإذا أرادَ اللهُ نصرَ الدِّينِ   استصرخَ الناسُ ابنَ تاشُفينِ
فجاءَهم كالصُّبْحِ في أثرِ غَسَقْ   مستدرِكاً لمَا تبقّى من رَمَقْ

وقد تدارك أمير المسلمين الموقف في شرق الأندلس وأعاد إليها الأمن والطمأنينة بعد أن طهرها من الصليبيين الذين عاثوا فيها فساداً، فتمهد الطريق إلى بلنسية التي أشرق فيها نور الإسلام ثانية.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٤١.

يوسف بن تاشفين يتدارك بلنسية، وإجراءاته التي اتخذها لتحريرها:

استطاع المرابطون أن يوقفوا تقدم قوات النصارى في شرق الأندلس على الرغم من اشتباكهم المستمر مع قوات ألفونسو السادس من جهة، ومع ملوك الطوائف من جهة أخرى. وكان جهد المرابطين وتعليمات أمير المسلمين تقضي بوجوب قطع أي شكل من أشكال الاتصال بين قوات النصارى ورؤساء الطوائف مما أوجب على المرابطين حشد الكثير من القوات وتوزيعها على أكثر من جبهة وعلى الرغم من جسامة هذه المهام وصعوبتها لم يكن يوسف بن تاشفين غافلاً عن متابعة سير الأحداث في بلنسية لذلك كانت توجيهاته تصدر بين الحين والآخر إلى بعض قادته القريبين من حدود بلنسية لشنّ الغارات على قوات القنبيطور ومن يتحالف معها والعمل المستمر على وقف أي تقدم لقوات النصارى. ومن هذه الحملات:

حملة أبي بكر بن إبراهيم ٤٨٦هـ:

في عام ٤٨٦هـ وصلت قوة من المرابطين إلى قرب بلنسية بقيادة الأمير أبي بكر بن إبراهيم بناء على توصية من أمير المسلمين بهذا الشأن، إلا أن هذه القوة لم تتمكن من الاستمرار في مهمتها نظراً لرداءة الطقس وغزارة الأمطار التي دمرت الطرق وأعاقت حركة الحملة، مما تسبب في نقص المواد التموينية. وقد بادر أبو بكر بن إبراهيم بإعلام أمير المسلمين بما آل إليه حال حملته وبما اتخذه من إجراءات.

حملة محمد بن تاشفين:

لم تكن حملة أبو بكر موفقة فكانت نتيجتها مؤلمة لأمير المسلمين، لذلك شكَّل قوة أخرى تقدر بأربعة آلاف فارس، بقيادة الأمير أبي عبد الله محمد بن تاشفين، وكلفت هذه القوة بمهاجمة بلنسية وقد استطاعت أن تشقَّ طريقها إلى بلنسية وتنال من قوات القنبيطور المتحصن في أسوارها المنيعة، إلا أنه من غير المعقول أن يرتجى من هذه الحملة أن تحقق أهدافها خلال فترة قصيرة وذلك لمناعة حصون بلنسية، وبعدها عن قوات المرابطين الرئيسة.

ومن المعلوم أن القنبيطور لم يستطع أن يقتحم هذه المدينة إلا بعد أن أمضى على حصارها عشرين شهراً ونفدت أقواتها وفتح أهلها الأبواب بعد أن عقدوا معه اتفاقية التسليم التي نقضها ولم يفِ بها، كما أن نوعية هذه القوات لم تكن من الطبقة العسكرية الأولى التي يملكها المرابطون، ومع ذلك أدخلت هذه القوة الرعب في قلوب قوات القنبيطور الذي ارتاع لمقدم المرابطين إلى قرب أسوار بلنسية فأرسل يستغيث بألفونسو[1].

وقد حدث خلال هذه الفترة التي حاصر بها محمد بن تاشفين بلنسية أن تخلف عن قيادة جنده لمرض ألمَّ به[2]، مما وفر فرصة

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٣٦.
(٢) المصدر السابق نفسه.

للقنبيطور الذي كان يرقب ويتابع حركة القوة المرابطية فقاد مجموعة من قواته وتسلل إلى معسكر المرابطين منتهزاً فرصة تفرقهم عن المعسكر وقلة الحرس فيه مما مكن عصاباته من نهب أكثر محتوياته من سلاح ومواد تموينية فاضطر المرابطون للانسحاب من دون تحقيق أهدافهم.

ولما علم أمير المسلمين بهذا النبأ بلغ منه كل مبلغ لتضييع الحزم وتمكين العدو من معسكر المسلمين لذلك أمر محمد بن تاشفين بالقدوم إلى المغرب، وأرسل مكانه أبا الحسن علي بن الحاج[1] الذي لحق بمدينة شاطبة، ومن هناك بدأ ببناء قوة جديدة للمرابطين في هذه الجهة.

ويبدو أن أمر بلنسية قد أهم يوسف بن تاشفين، يتضح ذلك من هذه الحملات المتلاحقة على الرغم من بعد الشقة وشراسة العدو، ولما لم تفلح الحملات المرابطية بتخليص المسلمين في بلنسية ازداد اهتمام يوسف بن تاشفين بها وأشفق على من فيها من المسلمين؛ لذلك أقام في مدينة سبتة المغربية وباشر بإرسال المدد إلى الأندلس لتشديد الخناق على قوى النصرانية فيها، وللتمكن من الوصول إلى بلنسية وبالتالي استعادتها من القنبيطور الذي علا شأنه في تلك الفترة، وطغى اسمه على اسم سيده ألفونسو السادس.

معركة كنشرة ٤٩٠هـ:

تمكن أمير المسلمين من تجريد حملة أخرى لإغاثة بلنسية اشترك

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٣٨.

فيها عدد من فرسان بني هلال فضلاً عن المرابطين وبعض أهل الأندلس، وقاد هذه القوة القائد محمد بن الحاج عام ٤٩٠هـ فالتقى بألفونسو السادس وقواته في منطقة كنشرة (كنسويجرا[1] Consuagra) جنوب شرق طليطلة، فكانت بينهم جولات وحملات إلى أن زلزل الله أقدام المشركين وولوا مدبرين، فالتحفتهم السيوف واختطفتهم الحتوف، وآب المسلمون إلى قرطبة سالمين ظافرين غانمين، وقد قتل في هذه المعركة ابن القنبيطور الوحيد المدعو (ديجو Diego) فشفى الله بذلك قلوب أهل بلنسية الذين فقدوا كثيراً من أبنائهم على يد القنبيطور حرقاً بالنار وقتلاً بالسيوف، فسُرَّ أمير المسلمين بهذا النصر وهزيمة العدو.

معركة قونقة ٤٩٠هـ:

في الوقت الذي كان فيه المرابطون مشتبكين مع الصليبيين في كنشرة، كان محمد بن تاشفين المدعو محمد بن عائشة، يقود كوكبة من المجاهدين إلى مدينة كنكة أو قونقة[2] -Cueca- شرقي مدريد على نهر شقر فالتقوا مع البرهانس القائد القشتالي الشهير والذي يلي ألفونسو في قيادة جيوش النصرانية، تؤازره قوات أراجونية أرسلها ـ بدرو الأول ـ ملك أراجون للمساهمة في هذه المعركة لكنهم هزموا جميعاً أمام ثبات

---

(١) ابن الكردبوس، نص تاريخ الأندلس، ص١٠٧.

(٢) ابن الكردبوس، نص تاريخ الأندلس، ص١٠٨؛ السامرائي، علاقات المرابطين، ص١٨٧.

المرابطين واستبسالهم في الجهاد، ومن ثم قتل القائد البرهانس Alvarhanez ـ أشهر القادة القشتاليين وأكثرهم خبرة في حرب المسلمين واستأصلوا معسكره وانصرفوا فرحين مستبشرين بالنصر على الظالمين.

معركة جزيرة شقر:

اتضح من خلال الحملات المرابطية المتلاحقة أن خطة يوسف بن تاشفين تهدف إلى زيادة الضغط على القوات الصليبية في كافة جبهات الأندلس لإشغالها عن التجمع فضلاً عن إرهاقها ودفعها إلى اليأس وبالتالي تحطيم معنويات أفرادها تمهيداً لتحرير بلنسية واستنقاذها من هيمنة القنبيطور الذي سام أهلها ألواناً من الذل والتنكيل والعذاب، ولتحقيق هذه المهمة نهض القائد محمد بن عائشة قاتل البرهانس، إلى منطقة جزيرة شقر جنوب بلنسية بعد أن أعلن أهدافه ووجهته «وذكر أنه يؤمها ويقصدها ويقدمها فالتقى بجملة من جند القنبيطور فأوقع بهم وقتلهم شر قتلة، ولم يفلت إلا اليسير من تلك الجملة، فلما وصل الفَلُّ إليه مات همّاً وغمّاً لا رحمه الله»[1].

وقد كانت وفاة القنبيطور تتويجاً لخطة المرابطين الرامية إلى تجريد منطقة بلنسية من القوى الصليبية التي تحميها وتخلصاً من الجحيم الذي كان يصطلي به أهل الثغر الإسلامي ونهاية للغدر والهمجية

---

(١) المقري، نفح الطيب: ٢/ ٥٧٧.

والإرهاب والعبث بأرواح الأبرياء والتفنن في قتل وإحراق الهداة المتقين كما فعل بالقاضي ابن جحاف والكثير من علماء[1] وأعيان بلنسية الذين أحرقوا وهم أحياء، لا لشيء فعلوه أو لذنب اقترفوه بل لأنهم لم يستطيعوا أن يسدوا جشعه ويلبوا رغباته في جمع الأموال له، ولم يتخلوا عن دينهم ومبادئهم التي تغيظ الطغاة، فجاءت نهايته تلك تعبر عن المصير الذي سيؤول إليه كل ظالم، إذ لم يزرع في حياته إلا الظلم لذلك لم يحصد إلا الهزائم والخسران في كل ميدان، فمنيت قواته بهزائم متلاحقة وقتل ولده الوحيد ديجو عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م وبذلك ثأر المرابطون لإخوانهم أهل بلنسية ودفع القنبيطور ثمن إجرامه واستهتاره وهو حي ينظر ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وهناك الكثير من الأمثلة على أعماله الشنيعة والتي منها تحويل جامع بلنسية إلى كنيسة[2]، وكان يقود عصاباته الصليبية ومجاميع الأشرار الذين لحقوا به إلى أطراف بلاد المسلمين فيقتل الرجال ويسلب النساء والأطفال «إلى أن انتهى بيعهم للمسلم الأسير بخبزة وقدح خمر ورطل حوت، ومن لم يفد نفسه قطع لسانه وفقئت أجفانه وسلطت عليه الكلاب الضارية فأخذته أخذة رابية»[3].

---

(١) ابن الكردبوس، نص تاريخ الأندلس، ص١٠٨.
(٢) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص٣٧٩.
(٣) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١٠٣.

هذه هي بعض مظاهر سيرة القنبيطور، إرهاب وتمثيل وعبث وسطو وانتهاك واغتصاب وغدر وجشع إلى غير ذلك من صفات السوء التي تلبَّس بها قادة وزعماء الصليبية، ولا عجب في كل ذلك فهم ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠] ولكن العجب من مثقفي القرن العشرين وتلامذة الاستشراق الذين يرددون ما يسمعونه من أساتذتهم من دون تمحيص فيرون في الطاغية المتوحش جامع رذائل عصره بطلاً ويجعلون منه زعيماً وقائداً، فضلاً عن المستشرقين الذين يرون فيه القدوة والمثل الذي يحتذى به، ولا غرابة فمن الممكن لو أنه عاش في هذا العصر، لباركوا له جرائمه وإفساده في الأرض وإرهابه للأبرياء من المسلمين ولبرروا له كل ذلك ولوضعوا النظريات والبراهين المزيفة على أن كل الذي فعله كان ضرورة لحفظ أمن القنبيطور واستتباب سبل السلام والرخاء في تلك المنطقة إلى غير ذلك من التبريرات التي تُزوَّر فيها الحقائق وتعكس الوقائع. فهل من مدّكر؟.

حصار طليطلة عام ٤٩٣هـ/١٠٩٩م:

بعد هلاك القنبيطور عام ٤٩٢هـ تولت زوجته شيمانة إدارة مدينة بلنسية، وقد نسَّق أتباع القنبيطور أعمالهم العسكرية مع ألفونسو السادس، وهذا ما أوجب على يوسف بن تاشفين أن يوجه أعماله العسكرية على جبهتين تخضعان لإدارة واحدة تقريباً؛ لذلك رأى أن يوجه حملة عسكرية على الجبهة الرئيسة التي يقودها ألفونسو في العاصمة طليطلة، وذلك لإضعاف خطوط الاتصال بين هاتين الجبهتين ولإرباك مخططاتهم

الموحدة ضد المرابطين، فجهز حملة عسكرية أوكل قيادتها إلى حفيده الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين الذي توفي والده أبو بكر في سبتة يوم الزلاقة، وكان ولي عهد أبيه يوسف ـ وعبرت هذه الحملة إلى الأندلس عام ٤٩٣هـ وقد كان في قيادتها الأمير سير بن أبي بكر القائد العام لجيش المرابطين في الأندلس وكذلك القائد محمد بن الحاج. كانت مهمة هذه الحملة مهاجمة طليطلة عاصمة ألفونسو وتحطيم قوتها العسكرية إن خرجت لمواجهة المرابطين، وقد سارت هذه القوة الكبيرة بقيادتها الموحدة التي تمتلك خبرات عسكرية واسعة في حرب قوات ألفونسو السادس لذلك لم يستطع ألفونسو مواجهتها وتحصن في عاصمته، فحاصروها وشنُّوا الغارات على نواحيها وتغلبوا على جملة من حصونها، وسبَوا سبياً كثيراً وغنموا غُنماً غزيراً، وصدروا ظافرين(١) من دون أن يجرؤ ألفونسو على التعرُّض لهم.

استعادة بلنسية ٤٩٥هـ/١١٠٢م:

استطاع أمير المسلمين بهذه الحملات العسكرية الموفقة أن يكسر شوكة النصارى ويملأ قلوبهم رعباً، وأن يقتل أعتى قادتهم ويقضي على زهرة قواتهم.

وبذلك تمهد السبيل أمام المجاهدين لتحرير بلنسية التي عانت من

---

(١) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١٠٩.

طغيان القنبيطور وهمجية الصليبيين الذين رفعت الكنيسة لهم الصليب شعاراً وشرعت بحشدهم وتهيئتهم في أوروبة لإعلان بدء الحملات الصليبية، وتوجيهها إلى المشرق العربي الإسلامي للسيطرة على القدس الشريف.

ولم تكن مخططات الصليبية هذه غائبة عن المرابطين بل كان أمير المسلمين يدرك كل هذه التوجهات لذلك زاد من ضرباته وضغطه على المعسكر الصليبي في إسبانية. ففي عام ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م وجه الأمير أبو محمد مزدلي بن سلنكان وهو من كبار قادة المرابطين على رأس حملة عسكرية كبيرة لطرد الصليبيين من بلنسية، فيمَّم هذا الأمير صوبها ونـزل بالقرب منها في معسكر قلبيرة -Cullera- جنوبي بلنسية وشدد الحصار عليها لمدة سبعة أشهر.

وكان النصارى الذين في بلنسية قد استصرخوا ألفونسو لإنقاذهم من المرابطين، فخرج ألفونسو يقود جيشاً كبيراً إلى بلنسية «فلما كان على فرسخين منها أفرج الأمير مزدلي عنها وصار بمحلته إلى قلبيرة فأقام الأذفونش ببلنسية شهراً والروم ترومه على التمسك بها ويرغبونه فيها، ويهونون عليه أمر جيوش المسلمين فلما ألحوا عليه فرج بجيوشه لقصد قلبيرة، وهو يظهر القصد لأكل الزرع وفساده ـ يريد استطلاع جيش الأمير مزدلي في باطن أمره ـ فتحرك الأمير مزدلي لما اتصل به ذلك من هنالك وكتَّب الكتائب وعبأ المواكب في وجـه الأذفونش. . . فكانت بين الفريقين مكافحـة عظيمة عامة النهار، وعند المغرب أخذ الأذفونش

في الصدر إلى بلنسية وجدَّ في إخلائها وخرج بجميع من كان فيها من الروم وأضرمت النار في الجامع والقصر وبعض الدور، وصدر الأمير مزدلي إلى بلنسية في شهر رجب عام ٤٩٥هـ فأنقذ الله بلنسية من يد الشرك وملكة الروم وطهرها، وصرف إليها نور الإسلام ودين محمد عليه السلام بعد ثمانية أعوام وشهر ونصف، وبعد نفوذ القدر السابق في علم الله تعالى وهلك من هلك فيها، جعل الله ذلك تمحيصاً لهم وتطهيراً بعزته»[(١)].

وباستعادة بلنسية من النصارى وانضمامها للمرابطين اتضح أن الظلم لا يدوم وأن الجهاد هو سبيل النصر، فانتشر فيها الأمن وعمت الطمأنينة وساد الاستقرار في منطقة شرق الأندلس وفتح الباب أمام المرابطين لمزيد من التقدم نحو الشمال فاستعاد يوسف بن تاشفين مدن مربيطر والمنارة والسهلة وغيرها من القلاع والمناطق الحصينة التابعة لمنطقة بلنسية، وبانضمام هذا الإقليم إلى دولة المرابطين تمكن بنو هود الجذاميون حكام سرقسطة من التفرغ لمواجهة غارات النصارى على إقليم سرقسطة بعد أن اطمأنوا إلى سلامة خطوطهم الخلفية وحماية المرابطين لظهر إمارتهم.

استيلاء المرابطين على إمارة البونت ٤٩٦هـ/١١٠٣م:

مدينة البونت قاعدة هذه الإمارة المسماة باسمها حكمها آل قاسم

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٤١.

الفهري منذ بداية فتنة الطوائف السياسية في الأندلس، وقد شاركت هذه الإمارة في أحداث بلنسية القريبة منها، ففي الحملة التي قادها الأمير محمد بن تاشفين ٤٨٨هـ شارك من البونت نظام الدولة[1] بقوة من إمارته.

ولما استعاد المرابطون إمارة بلنسية عام ٤٩٥هـ أخضعوا معظم الحصون والقلاع القريبة منها بسهولة ويسر، وذلك أمر طبيعي إذ يُعدّ ثمرة لجهادهم الطويل الذي استمر أكثر من عشر سنين في شرق الأندلس، فمنذ الانتهاء من عمليات حصن لييط عام ٤٨١هـ أرسل أمير المسلمين قوات مرابطية إلى مناطق شرق الأندلس للدفاع عنها وللوقوف في وجه المد الصليبي الذي تدعمه الكنيسة في روما، علماً أن كنائس إسبانية قد خضعت لكنيسة روما قبل هذه الفترة؛ لذلك قاد الأمير داوود بن عائشة فرقة من المرابطين أخضعت إمارة البونت عام ٤٩٦هـ/ ١١٠٣م[2] ويذكر أن آل قاسم الفهري استمروا في حكم هذه الإمارة إلى عام ٥٠٠هـ.

ضم سهلة بني رزين إلى دولة المرابطين:

سهلة بني رزين أو شنتمرية الشرق مدينة عظيمة في شرق الأندلس وتسمى السهلة، تغلّب عليها هذيل بن خلف بن لب بن رزين منذ بداية الفتنة ويقال لهم بنو الأصلع، واستمر بنو رزين بحكم هذه الإمارة إلى

---

(١) ابن العذاري، البيان المغرب: ٤/ ٤٠.

(٢) ابن الأبار، الحلة السيراء: ٢/ ١١٤.

عام ٤٩٦هـ، وقد أدى أمراؤها الضريبة لألفونسو ودفعوا له الأموال قبل عبور أمير المسلمين إلى الزلاقة عام ٤٧٩هـ، ثم امتنعوا عن دفع هذه الضريبة بعد نصر الزلاقة واستمروا على ذلك إلى أن دهمهم القنبيطور بعصاباته الصليبية التي جاء يقودها من قشتالة وعسكر شمال شرق السهلة، وأخذ يعبث في محاصيلها وينسف زروعها ويقتل أو يسبي من يقع في يديه من أهلها، وبدلاً من أن يجمع أمير السهلة ابن رزين الجيوش ويتعاون مع الأمراء المجاورين له على مقاومة هذه العصابات وطردها خرج ابن رزين إلى القنبيطور واتفق معه على أداء ضريبة سنوية يؤديها إلى ألفونسو إضافة إلى مبلغ من المال يقدمه حالاً إلى القنبيطور على أن يرحل عن إمارته، وبذلك ساهم في تمكين قوة القنبيطور الذي أخذ الأموال وانتقل بعصابته الصليبية إلى إمارة بلنسية[1]، وكان أشد ما يحز في نفس يوسف بن تاشفين هذه السياسة المتخاذلة التي ينتهجها أمراء الطوائف مع أعدائهم الذين عاثوا في بلاد المسلمين فساداً من دون أن يجدوا من رؤساء الطوائف أية مقاومة.

وفي عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٣م جدد ابن رزين ما بينه وبين القنبيطور، وفي عام ٤٨٨هـ شارك عبد الملك بن رزين في قوة المرابطين التي وجهها إلى أمير المسلمين للعمل على إنقاذ بلنسية حيث أرسل عبد الملك ابنه يحيى[2] في مجموعة من قواته للمساهمة في حملة الأمير محمد بن

(١) عنان، دول الطوائف، ص٢٥٧.
(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٤٠.

تاشفين، وبعد إنقاذ بلنسية بجيوش المرابطين عام ٤٩٥هـ توفي عبد الملك عام ٤٩٦هـ بعد أن اعترف بطاعة المرابطين فخلفه ابنه يحيى حسام الدولة ٤٩٦هـ - ٤٩٧هـ بوصية من أبيه، إلا أن هذا الأمير كان «مدمناً للخمر مكثراً من الغثيان ضعيف العقل، ومن ضعف عقله أن ألفنش لما أخذ الثغور وتملكها أهدى إليه كل ملك من ملوك الطوائف الهدايا الجليلة فلم يلتفت إلى أحد منهم ولا كافأه على هديته فأهدى إليه حسام الدولة هدية جليلة من الحلي والحلل والخيل والبغال وتحف الملوك يعجز عنها الوصف فأعجب ألفنش بهديته، فكافأه عليها بقرد فكان من ضعف عقله يفخر بذلك القرد على ملـوك الأندلس فانظر إلى هذا السخف وهذا الخذلان، ولم يزل على سخفه وخذلانه إلى أن خلعه المرابطون يوم الإثنين الثامن من رجب سنة سبع وتسعين وأربعمئة فكانت دولته سنة واحدة وانقرضت دولتهم»[(١)].

فهل يلام أمير المسلمين على عـزل هؤلاء الأمراء الذين كانـوا يقودون دولة الإسلام في الأندلس إلى الضياع؟ وهل يتبين الكُتّاب الذين وصفوا أمير المسلمين بالقسوة أو التطرف عندما أزال رؤساء الطوائف الذين تسلطوا على رقاب المسلمين يفرقون جماعتهم ويسلبون أموالهم ويفرطون ببلادهم ويهدمون شريعتهم ويعطلون أحكامها؟! .

هل يتبين لهم الحق ويعودون إلى الصواب وينقضون ما ردده من

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ٣١٠.

أقوال تصف أمير المسلمين بغير صفة الإخلاص والسعي لخدمة الأمة وتطلعاتها وحماية بنائها والتمكين لها في الأرض، ويحمدون مساعيه الجميلة وأياديه البيضاء في استنقاذ الأندلس وتوحيد المغرب، ونشر العدل وإزاحة الطغاة والعملاء الذين كانوا يجثمون على صدور المسلمين في الأندلس، ويشكرونه كما شكره أبناء عصره الذين قال شاعرهم محمد بن سوار:

جوزيتَ خيراً من رعيّتك التي لم تَرْضَ فيها غير ما يُرضيه؟

وبعد كل ما قدمه المرابطون لبلنسية لم يتوقف جهادهم عند حدودها بل كانوا في تقدم مستمر طيلة أيام أمير المسلمين ولم يتراجعوا في موقف كان يجب عليهم أن يتقدموا فيه.

لذلك ما إن استقر الحال في بلنسية حتى قاد الأمير مزدلي حملة إلى برشلونة فبلغ إلى أعماقها وتغلب على حصونها قسراً، ورجع وأيدي المسلمين قد مُلِئَتْ من غنائم المشركين، وغنم الأمير مزدلي نواقيسَ وصلباناً وأواني قد كُللت فضة وعقياناً، فأمر أن تصنع منها ثريات وتوقد في جامع بلنسية. ومضياً على طريق الجهاد وقهر الصليبية قاد الأمير علي بن الحاج حملة خرجت من قرطبة وفي صحبته القائد ابن يحون أو تجوت واتجهت هذه الحملة: «نحو قَشْتالة فلقيهما الرنك ـ زوج بنت ألفونسو تيريسا ـ لعنه الله ـ بجموعه الغزيرة فأوقعوا به وقعة مبيرة،

وقرقروا الظليم بكل مكان[1] ولإثبات قدرة المرابطين واستعدادهم غير المحدود للتضحية في سبيل سيادة عقيدتهم وإعزاز أمتهم استمروا في إعداد حملات الجهاد وتوجيهها إلى عمق أراضي النصارى في شمال إسبانية، فبعد الحملة التي قادها علي بن الحاج جهز المرابطون حملة أخرى قادها أحد قادة المرابطين المدعو (يغالة) بقصد الجهاد في سبيل الله، فاتجه هذا القائد بحملته إلى ناحية قلعة أيوب فالتقى بطائفة من الروم فهزمهم هزيمة شنيعة واستباح محلتهم المنيعة وسبى وغنم وصدر وقد سلم»[2].

ومن خلال هذا الجهاد والمرابطة المستمرة استطاع أمير المسلمين أن يثبت تفوق مبدأ الجهاد والعمل العسكري المستمر على مبادئ السياسة والمصانعة ودفع الأموال وإباحة الثروات لشراء السلم من الصليبيين، تلك السياسة المتخاذلة التي انتهجها رؤساء الطوائف لفترة تزيد على نصف قرن تمكن خلالها النصارى من السيطرة على الكثير من المدن والحصون الإسلامية المنيعة، ومن ثم فرض إرادة دول شمال إسبانية وابتزاز أموال المسلمين وخيراتهم، والعمل على صدهم عن انتهاج مبدأ الجهاد متبعين في ذلك كل السبل، إلى أن تمكن يوسف بن تاشفين من خلع هؤلاء الرؤساء المتخاذلين عن مواجهة أعدائهم

---

(١) م. ن، ص١١١.
(٢) المصدر السابق نفسه.

المتصارعين فيما بينهم. وأمام جهاد وإعداد المرابطين الثابت على مبادئ الإسلام وعزيمتهم القوية على المواجهة وقيادتهم المتحفزة والمتيقظة تمكنوا من استعادة الكثير من حقوق مسلمي الأندلس السليبة فأحيوا الآمال وأقروا العيون بنتائج جهادهم وصبرهم، فأثلجوا صدور المسلمين في كل مكان عندما أخذوا بمبدأ الجهاد كما في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

وبهذه التضحيات الثمينة والجهد المتواصل والعمل الدؤوب تمكن أمير المسلمين من تحقيق أهداف الجهاد التي رسمها المرابطون، واستنقذ بذلك بلاد الأندلس من ملوك الطوائف المتحالفين مع النصارى ولم يبقَ سوى إمارة سَرَقُسْطَة في الثغر الأعلى والتي يحكمها بنو هود الذين أحسنوا التعامل مع توجهات أمير المسلمين الذي كافأهم بالاعتراف بإمارتهم ومساندتهم ضد اعتداءات الصليبيين كما سيتضح ذلك.

إمارة سَرَقُسْطَة (الثغر الأعلى):

حكم إمارة سرقسطة بنو هود الجذاميين منذ عام ٤٣٨هـ واستمروا في حكمها إلى عام ٥٠٣هـ[١] عندما ضمها أمير المسلمين علي بن

---

(١) م. ن: ٣/ ٢٢٢.

يوسف إلى دولة المرابطين استجابة لرغبة أهلها بعد أن اتصل أميرهم بالنصارى، ومايهمنا هنا من تاريخ هذه الإمارة هو علاقتها بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين وما اتخذته من مواقف تجاه جهاد المرابطين للنصارى في الأندلس ففي عام ٤٧٩هـ كان ألفونسو يحاصر سرقسطة وقد بذل له أميرها المستعين أموالاً طائلة لكي يرفع عنه الحصار، لكنه أبى إلا دخول المدينة ولما عبر أمير المسلمين البحر إلى الأندلس في ذلك العام راسل ألفونسو أحمد المستعين أمير سرقسطة يطلب منه الأموال التي عرضها عليه مقابل رفع الحصار، لكن المستعين أبى ذلك؛ إذ إن أخبار عبور المرابطين إلى الأندلس قد نما إليه، مما اضطر ألفونسو إلى الانسحاب خائباً، وبذلك نجت سرقسطة من خطر الحصار، ومن دفع الأموال وإهدار ثرواتها للأجنبي، وكان ذلك نتيجة أو ثمرة مباشرة لعبور المرابطين إلى الأندلس جنتها إمارة سرقسطة قبل وقوع معركة الزلاّقة التي لم يشارك فيها بنو هود، وذلك لاشتراك حدود إمارتهم مع عدد من الإمارات النصرانية.

بعد ذلك دخل المستعين بن هود في منافسة مع المنذر صاحب (لاردة) للسيطرة على مدينة بَلَنْسِيَة، تحالف خلالها مع القنبيطور ومع ملك برشلونة النصراني، وكانت نتيجة هذا التحالف مع النصارى استيلاء القنبيطور على بلنسية كما أسلفنا، وسَيْمَهُ لأهلها أشدَّ أنواع العسف والجور، وسيطرة ملك أراغون (سانشو راميرث)[1] على مدينة

(١) السامرائي، علاقات المرابطين، ص١٩٥.

منتشون إحدى مدن المستعين في سياسته المعتمدة على التحالف والصداقة مع النصارى، كما ثبت هذا الفشل لرؤساء الطوائف كافة إذ إن هذه السياسة لم تجلب على أمتنا سوى النكبات والدمار وضياع البلاد وإهدار الثروة والكرامة، وتعميق حالة الخلاف في صفوف أبنائها بينما أثبتت سياسة أمير المسلمين وجماعة المرابطين نجاحها الكامل عندما انتهجت مبدأ الجهاد والإعداد المستمر ورد العدوان والجرأة على العدو وتربية الأمة وإعدادها للثبات في وجه كل الاحتمالات.

فاستطاع المرابطون من خلال تمسكهم بالإسلام وفهمهم العميق لسياسات النصارى المخادعة التي اعتمدوها مع أمراء الطوائف، أن يعيدوا الأمور إلى نصابها ويحفظوا للأمة دورَها الريادي ورَفْعَ لوائها خفاقاً في الجبهات كافة.

العلاقات بين سرقسطة والمرابطين في عهد يوسف بن تاشفين:

وبعد أن استعاد المرابطون بلنسية من الصليبيين أصبحوا في تماس مع حدود سرقسطة، وفي الوقت ذاته ازداد ضغط النصارى على بني هود مما اضطر المستعين إلى اتباع سياسة الاعتماد على المرابطين؛ فأرسل ابنه عبد الملك عماد الدولة ليؤكد ولاءه وإخلاصه لقضية الإسلام في الأندلس أمام أمير المسلمين وليبين له أنه بريء من تهمة التآمر مع

النصارى على جيوش المرابطين[1]، ونظراً لحراجة موقف المستعين وشدة الأخطار المحدقة ببلاده آثر أمير المسلمين أن ينمي هذا التوجه الذي بادر به ابن هود الداعي إلى تناسي مواقفه السابقة وإلى بدء صفحة جديدة من علاقات الأخوة والتعاون؛ لذلك استقبل يوسف بن تاشفين سفارة ابن هود في مراكش بكل تكريم، ولبى مطالبه وأوصى قادته بالأندلس بشد أَزْرِ المستعين والدفاع عن سرقسطة، ضد هجمات النصارى.

وقد جاء في خطاب ابن هود لأمير المسلمين قوله: «نحن بينكم وبين العدو سداً لا يصل إليكم منه ضرر ومنّا عَين تطرف، وقد قنعنا بمسالمتكم فاقنعوا منا بها، إلى ما نعينكم به من نفيس الذخائر»[2]، فأجابه أمير المسلمين إلى ما أراد وزوّد سفارته بكتاب جاء فيه: «من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى المستعين بالله أحمد بن هود أدام الله تأييده... وأما الذي عندنا لجنابك الكريم ومجدك العميم ومحلك المعلوم فودٌّ صريح، وعقد من ذات الله تعالى صحيح، ووردنا منشأة السيادة والنبل والنباهة والفضل أبو مروان عبد الملك... ومعه خاصتك الوزيران: أبو الأصبغ وأبو عامر أكرمهما الله بتقواه.. وأسفرنا

---

(١) حسين مؤنس، الثغر الأعلى في عصر المرابطين، مجلة كلية الآداب: ٢/ ١٠٤، جامعة فؤاد الأول، ١٩٤٩م.

(٢) الحلل الموشية، ص٧٤.

لهما عن وجه قصدنا فيه حتى استبانوه، وجملته الوفاق وجِماعُهُ الانتظام في سلك ما يرضي الله تعالى والاتساق، إن شاء الله تعالى والسلام»[1].

من الواضح في هذا الكتاب المفعم بمشاعر المودة والتقدير أن أمير المسلمين قبل رجاء المستعين في عدم التعرض لبلاده مقابل الاشتراك في جهاد النصارى وأن يسد الثغرة التي هو عليها، وأوضح له أن هذه المودة قائمة على الأخوة في ذات الله تعالى الهادفة إلى خدمة الإسلام والمسلمين والمنتظمة في سلك ما يرضي الله، ومثلما أقر أمير المسلمين المستعين في إمارته وأجابه إلى إقامة علاقات التعاون والصفاء كذلك لبى طلبه في إنجاده بقوة من المرابطين، يتضح هذا من الكتاب الذي استلمه القائد أبو محمد عبد الله بن فاطمة الذي ولي على بَلَنْسِيَة بعد استعادتها من النصارى وتعيين الأمير مزدلي فاتح بلنسية أميراً على تلمسان[2] «وذلك لما وصل ولد ابن هود من العدوة بكتاب من أمير المسلمين، وبعد وصول هذا الكتاب توجه القائد أبو محمد عبد الله بن فاطمة إليها ـ سرقسطة ـ بجيش كثيف من ألف وخمسمئة فارس»[3]، فاشتدت مقاومة المستعين بهذه القوة وارتفعت معنويات أهل سرقسطة فتمكنوا من الوقوف في وجه جيوش ألفونسو وردها على أعقابها.

---

(١) الحلل الموشية، ص٧٥

(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١١٢.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٤٢.

كما قام القائد أبو محمد عبد الله بن فاطمة بحملات جهادية موفقة ضد الإسبان فغنم وسلم، فعاد الهدوء إلى بلاد المستعين طوال أيام أمير المسلمين.

فتبين بذلك أن الجهاد والاتحاد والتعاون هي وسائل السلام وحفظ أمن البلاد والعباد، وأن ما سوى ذلك من وسائل ما هي إلا سراب ومخادعة للأمة في مصيرها ومستقبلها، فأقام أمير سرقسطة في بلاده مع رعيته آمناً عزيزاً بعد أن استبدل سياسته الخاطئة التي اعتمدت على التحالف مع دول الإسبان، بالتعاون مع إخوانه المرابطين الذين يرون مساندته واجباً شرعياً لا يمكن تركها أو التقصير فيها.

* * *

الفَصل التاسع

العبور الرابع إلى الأندلس

لتنظيم أمورها السياسية والإدارية والعسكرية
ثم العودة إلى المغرب والوفاة

الفصل التاسع

العبور الرابع إلى الأندلس

لتنظيم أمورها السياسية والإدارية والعسكرية
ثم العودة إلى المغرب والوفاة

يتحدث ابن خلدون في الفصل الثلاثين من كتابه المقدمة فيقول:

«وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده إذ وقع بعهد أبي بكر لعمر بمحضر من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم به طاعة عمر، وكذلك عَهْدُ عمر إلى الستة لم ينكره أحد من الصحابة، فدل على أنهم متفقون على هذا العهد عارفون بمشروعيته، والإجماع حجة ولا يتهم الإمام في هذا الأمر»(١).

ونظراً لما قام به أمير المسلمين من جهود متواصلة في خدمة الأمة وبناء دولة الإسلام استغرقت منه عقوداً من السنين أمضى أكثرها في الجهاد من أجل توحيد الصفوف وإزالة أسباب الخلاف والفرقة، حتى تكللت جهوده بالنجاح في إقامة الدولة التي ينشدها المسلمون ويحرص على استمرارها المخلصون، وخوفاً من ضياع تلك الجهود وانفصام

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٢١٠.

عرى الوحدة وتشتت الأمر والعودة إلى حياة الفوضى والتنافس على الحكم من جديد بعد أن انطمست كل مظاهرها، ولما كان أمير المسلمين قد ناهز التسعين من عمره رأى أنه لا بد من وضع أساس مكين وقانون شرعي واضح يقبل به المرابطون ويزيدهم ثقة وطمأنينة على مستقبل دولتهم، وبعد تفكير وتدبر ومشاورة وقع الاختيار على الأمير علي بن يوسف بن تاشفين الذي يلي أخاه الأكبر أبا الطاهر تميم بن يوسف، وذلك لما آنس فيه من نباهة الفكر وحميد الخصال والكفاءة العالية التي تؤهله للقيام بأعباء المسؤولية حق القيام، وقد أشار أحد شعراء الأندلس إلى هذه الناحية بقوله:

وإنْ كانَ في الأسنانِ يحسب ثانياً ... عليٌّ ففي العلياءِ يحسبُ أولا
كذلكم الأيدي سواء بنانُها ... وتختصُّ فيهنَّ الخناصرُ بالحلى[1]

وفي عام ٤٩٥هـ/ ١١٠١م قرر يوسف بن تاشفين أمره في ولاية العهد للأمير علي بن يوسف، وكتب نص العهد ووثيقته أحدُ أعلام البلاغة في ذلك العصر الفقيه أبي محمد بن عبد الغفور، وورد نص وثيقة العهد في كتاب (الحلل الموشية)[2] واحتوى على الكثير من الوصايا القيمة والمواعظ المؤثرة والنصائح المعبرة واشترط أمير المسلمين على ولي

---

(١) الحلل الموشية، ص٧٧.
(٢) المصدر السابق، ص٧٨.

عهده شروطاً وحدد له صلاحيات، منها:

• وجوب استعداده الدائم للدفاع عن بلاد المسلمين وحماية ثغورهم.

• وفي إدارة البلاد ومناصب القضاء أوجب عليه الاعتماد على المرابطين الأوائل من أهل السابقة والتجربة.

• ومن الشروط التي اشترطها ابن تاشفين على ولي العهد فيما يخص الأندلس، أن يترك فيها سبعة عشر ألف فارس[1] موزعين على أقطار معلومة يكون منها: بإشبيلية سبعة آلاف فارس، وبقرطبة ألف فارس، وبغرناطة ألف فارس، وفي شرق الأندلس أربعة آلاف فارس، وباقي المجاهدين يرابطون على ثغور المسلمين للدفاع عن الحدود والمرابطة في الحصون المحاذية للعدو.

• وأن يعهد لمجاهدي الأندلس بحراسة الحدود مع النصارى لأنهم أكثر خبرة بأحوالهم، وأكثر دربة ودراية على قتالهم.

والمتمعن بشروط ولاية العهد يلاحظ أن أمير المسلمين تمسك بالشورى، وأشرك أهل الرأي في هذا الأمر، ولم يغفل مبدأ الاختيار عندما وكل الأمر لابنه الثاني من دون إخوانه، ورسم له الخط السياسي الذي يعمل به وألزمه بانتهاج سياسة الدولة المعلنة التي سارت عليها

---

(١) م. ن، ص٨٠.

جماعة المرابطين منذ نشأتها القائمة على التمسك بأحكام الإسلام وشريعته ورفع لواء الجهاد ومواصلة العمل تحت ظلاله، وسياسة الرعية بالرفق والعدل، وليس لولي العهد أن يحيد عن هذه السياسة؛ وذلك لما أخذ عليه من عهود أمام أهل الرأي ووجوه الدولة ولما تضمنته وثيقة العهد من نصوص واضحة تبيح للقوم التحلل من البيعة ونقضها في حالة مخالفتها أو الخروج عن تعاليمها.

تفقد أحوال الأندلس السياسية والإدارية:

في عام ٤٩٦هـ عبر أمير المسلمين إلى الأندلس عبوره الرابع والأخير وذلك لتفقد أحوالها والنظر في مصالحها، وترتيب أمورها الإدارية، بما يكفل لها الأمن والاستقرار، وكان بصحبته الأميران أبو الطاهر تميم بن يوسف، وأبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين، ولما تجول أمير المسلمين في بلاد الأندلس وتفقد ثغورها، شبَّه وضعها من حيث الأهمية السياسية والعسكرية بعُقاب رأسُه طليطلة، ومنقاره قلعة رباح، وصدره مدينة جَيّان، ومخالبه غَرناطة، وجناحه الأيمن غرب الأندلس، وجناحه الأيسر شرق الأندلس، ومن هذا التشبيه المبسط لحال الأندلس وسياسة أمورها يتبين لنا سعة أفق أمير المسلمين ودقة نظره وشموليته في سياسة البلاد.

وفي مدينة قُرْطبة حاضرة الخلافة الأندلسية أخذت البيعة من أهل

الأندلس عام ٤٩٦هـ[١] للأمير علي بن يوسف بعد أن حضرها كبار قادة المرابطين ورجال الأندلس من المجاهدين والقضاة والفقهاء، وقد شـارك في هذه المناسـبة المستعين بالله بن هود حاكم سرقسـطة، وهو الحاكم الوحيد الذي أبقاه أمير المسلمين من حكام الطوائف يتمتع باستقلاله حيث أرسل ابنه عبد الملك إلى قرطبة وزوده بهدية جليلة منها أربعة عشر ربعاً من آنية الفضة مطرزة باسم المقتدر بن هود، فأمر يوسف ابن تاشفين بضربها قراريط وفرَّقها ليلة عيد النحر في طبقات المرابطين.

وبعد أن حضر عبد الملك بن المستعين البيعة التي عقدت للأمير علي عاد[٢] إلى بلاده سرقسطة وقد كتب نصاً آخر لولاية العهد في مدينة قرطبة عام ٤٩٦هـ من إنشاء الأديب المشهور محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة[٣].

وقبيل عودة أمير المسلمين من الأندلس عام ٤٩٧هـ أوعز إلى واليه على غرناطة علي بن الحاج بالنهوض إلى شرق الأندلس، فانطلق إلى بلنسية وفي هذه الفترة هاجم ألفونسو مدينة سالم، ورداً على هذا الهجوم نسق القائد علي بن الحاج أعماله العسكرية مع القائد الأعلى لشرق الأندلس محمد بن فاطمة[٤] فحاصرا عاصمة ألفونسو.

---

(١) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٠١.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٤٣.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة: ٢/ ٥١٨.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٤٤.

حصار طليطلة:

وضع القائدان المذكوران خطة عسكرية لردع ألفونسو وملاحقته داخل بلاده فحاصرا عاصمته طليطلة، ثم لاحقاه إلى مدينة تطيلة وهو ينسحب أمامهم، وفي مدينة تُطَيلَة إحدى مدن الثغر الأعلى وفي قبلي جامعها دفن القائد أبو الحسن علي بن الحاج حيث وافاه أجله وقضى نحبه هناك[1]، بعد حياة حافلة بالجهاد والعطاء والإخلاص الكامل لقيادة أمير المسلمين، فخلفه ابنه أبو عبد الله بن الحاج الذي اقتفى أثر أبيه وسلك سبيله في عضد الحق وإنصاف المظلوم وسد الثغور.

وقد عادت هذه الحملة بعد أن حققت أهدافها وقهرت العدو وأثقلت بالغنائم التي حصلت عليها.

وفي عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م نقل[2] أمير المسلمين الأمير مزدلي من مدينة بلنسية وعيَّنه أميراً على مدينة تلمسان في المغرب على حدود الدولة الحمادية بعد أن عزل عنها تاشفين بن بلنغمر إثر النزاع الذي حصل بينه وبين أمير بني حماد المنصور بن الناصر بن علناس، وعيَّن أمير المسلمين أبا عبد الله محمد بن فاطمة أميراً على بلنسية خلفاً للأمير مزدلي.

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٤٤.

(٢) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص١١٢.

معركة فحص اللج ٤٩٧هـ:

وفي هذا العام ٤٩٧هـ لقي القائد محمد بن يوسف بن تاشفين المدعو محمد بن عائشة الإسبان في منطقة فحص اللج[1] فانتصر عليهم نصراً رائعاً غنم فيه المرابطون الغنائم الكثيرة.

معركة مقاطع عام ٤٩٨هـ:

وفي عام ٤٩٨هـ حدثت هذه المعركة بعد عودة أمير المسلمين من الأندلس إلى المغرب. ففي هذا العام شاع الخبر بالأندلس بمرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فأرجف أهل النفاق وأصحاب الأهـواء والنفعيين باضطراب أحوال المسلمين، حتى وصلت هذه الأراجيف إلى ألفونسو الذي اعتقد أن الفرصة قد واتته لانشغال المرابطين وقياداتهم بترتيب الأوضاع السياسية والعسكرية أثناء مرض أمير المسلمين. فخرج الصليبيـون في زهاء ثلاثة آلاف وخمسمئة مقاتل وتوغلوا في أراضي إشبيلية، حتى وصلوا إلى موضع يعرف بـ(مقاطع) فغنم الصليبيـون الكثير من الغنائم وأثاروا الرعب في نواحي إشبيلية إلى أن تمكن الأمير سير بن أبي بكر من تجميع قواته والتنسيق مع مجاهدي غرناطة وأميرهم أبي عبـد الله بن الحاج، وبعد إتمام الترتيبات اللازمة وإعداد الخطط سارت هذه القوة المرابطية تجاه العدو فهرب أمامهم إلا أن المرابطين

---

(١) فحص اللج: اسم مكان مختلَف في تحديد موضعه، يرى ابن الكردبوس أن هذا المكان قرب طليطلة ويسميه فحص اللجج وهناك من يسميه فحص الثلج.

تمكنوا من فرض المعركة على القوة الإسبانية المهاجمة فأحرزوا عليها نصراً مؤزراً.

«وبلغ المسلمون الشفاء من القتل فيهم، وكاد السيف يستأصلهم ويفنيهم وصح بعد هذا الفتح الجليل أن الذي قتل منهم ألف وخمسمئة»[1].

استطاع أمير المسلمين بما اتخذه من إجراءات وتدابير أمنية وإدارية في الأندلس من التمكين للمرابطين وزيادة بنائهم شموخاً ورسوخاً، ولم يترك في ذلك البناء ثغرة ولا ضعف وذلك لشعوره بقرب الرحيل عن هذه الدنيا، فمن إجراءاته أن أخذ البيعة لولي العهد في الأندلس من دون أية معارضة، إذ كانت هذه البيعة برضى الجميع ومشاورتهم مما زاد من تماسك مجتمع المرابطين وقوة وحدته.

وقد تمكن أمير المسلمين أيضاً في عبوره الرابع من إقرار أوضاع الأندلس وتعيين الولاة المخلصين لقضية الجهاد بعد أن أوصاهم بوجوب التمسك به والاستعداد الدائم للمواجهة والتضحية، وزودهم بالخطط والتوجيهات المستقاة من تجاربه العسكرية الطويلة.

عودة أمير المسلمين إلى المغرب:

وبعد أن اطمأن أمير المسلمين على أوضاع وأحوال أهل الأندلس

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٤/ ٤٥.

وعلى قوة مواقفهم وحسن تماسكهم وتآزرهم عاد إلى بلاد المغرب، إلى مراكش التي أشاد بنيانها ورسخ قواعدها وأعلى مجدها بجهاده المتواصل، وعمله الدؤوب وإخلاصه في خدمة الأمة وعقيدتها.

ومنذ انقضاء عام ٤٩٧هـ حطَّ أمير المسلمين عصى الترحال بعد هذا العمر المديد الزاخر بالعطاء، والمكلل بالنجاح، بعد أن خصَّصه لخدمة الجهاد وتوحيد البلاد ونشر الدين وتطبيق أحكامه، فارتفعت في عهده راية المرابطين خفاقة تعلن لهذا الوجود دستور الحياة الإسلامية العزيزة التي تسودها مشاعر المحبة والعدل والأخوة فآمن المسلمون وأيقنوا بأنه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومنذ عام ٤٩٨هـ تمكنت علة أمير المسلمين التي مات متأثراً بها، تمكنت من جسده القوي الذي تحمل أعتى الأحداث وأعنف المعارك والأهوال وأخذت تأثيرات تلك العلة تزداد تأثيراتها السلبية عليه.

وصية أمير المسلمين لولي عهده:

لما أحس يوسف بن تاشفين بدنو أجله أوصى ولي عهده الأمير علي بن يوسف بثلاث وصايا:

الوصية الأولى: ألا يهيج أهل جبل درن (أي الأطلس الكبير) ومن ورائه من قبائل المصامدة وأهل القبلة (أي جنوب المغرب).

الوصية الثانية: أن يهادن بني هود حكام سرقسطة وأن يتركهم حائلاً بينهم وبين الروم.

الوصية الثالثة: أن يقبل من محسـني أهل قرطبـة ويتجـاوز عن مسيئيهم.

وفاة أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين:

وفي عام ٥٠٠هـ توفى الله أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بن إبراهيم «فقبض وهو على أوله في العدل والجد ونصر الدين وإظهار الكلمة وعضد الإسلام» بعد جهاد استمر أكثر من نصف قرن قضاه في جنوب المغرب وسواحله وشماله وفي الجزائر ثم الأندلس رحمه الله تعالى وأجزل ثوابه وأسكنه فسيح جناته وجزاه عن أمة محمد ﷺ خير الجزاء.

* * *

الخـــاتمة

تبين في هذا البحث أن بلاد المغرب والأندلس مرت بمراحل من التدهـور والانقسـام والتنـاحر والانحراف والترف واللهو وارتكـاب المعاصي وتعامل بعض زعمائها مع الأجنبي ضد مصالح الأمة، ما يفوق الحالة المتردية التي تحياها الأمة الإسلامية في هذا العصر.

وأنها تعرضت لهجمات صليبية متواصلة هدفت إلى تحطيم قوتها وتمزيق وحدتها وفصلها عن عقيدتها.

ولكن كل تلك المكايد والضغوط لم تنل من الأمة إلا حين توافق إعراضٌ من المسلمين عن عقيدتهم الإسلامية وغفلة عن فهمها والتمسك بتعاليهما.

وأن كل الكبوات التي وقعت بها الأمة الإسلامية أمام أعدائها، كانت بسبب إعراضها عن دينها.

كما اتضح أن بعض زعماء الطوائف في الأندلس اتبعوا كل سبل التعاون والخنوع والانقياد للصليبيين حرصاً على عروشهم، وجرياً وراء نيل رضاهم لكنهم لم يفلحوا في ذلك، فتبين أن ما كان يتبعه الصليبيون في بعض المساعي السياسية ما هو إلا بعض وسائلهم لتفريق الصفوف، والاستفادة من الوقت.

فهم لا يرتضون المسلم حتى لو كان تابعاً لهم، ولا يرونه إلا عدواً وخطراً عليهم، وما حصل للمعتمد بن عباد في هذا الصدد شاهد على ذلك.

وظهر في هذا البحث أن مظاهر الانحلال الأخلاقي وانتشار المحرمات شاهد على ضعف الأمة وتمزقها وتبعيتها للأجنبي.

وتأكد أن التمسك بهدي الإسلام والشريعة المحمدية هما سفينة النجاة ومؤشرات العزة والوحدة والكرامة وأن الإسلام لا يصلح شعاراً لمخادعة المسلمين.

وأن من ينادي بتطبيقه في حياة الأمة عليه أن يبدأ بنفسه وبمن يعول، كما فعل ذلك رسول الله ﷺ ومن بعده الراشدون، وكما فعل ذلك قادة المرابطين الذين قضوا شهداء في سبيل الله وتصديقاً لما كانوا عاهدوا الله عليه، وكما فعل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بزهده وصبره وجهاده وقوة انتمائه لأمته وتمسكه بحدود الشرع وضوابط الدين.

واتضح أن من يصدق مع الله يكن الله معه، وأنه يؤيده بالعناية الإلهية فيبارك جهده ويقبل سعيه.

وفي إنجازات المرابطين التي حققوها مصداق لذلك فقد أعادوا القبائل الضالة إلى هدي الإسلام، واقتلعوا العقائد الفاسدة، وثبتوا عقيدة التوحيد، وأزالوا الفرقة والتباغض، وصنعوا الوحدة والتعاون، واحتكموا إلى الشرع، فانتشر العدل وحصلت الطمأنينة. وقديماً قيل:

«عدل السلطان خير من خصب الزمان».

وتبين أن الأمة لا يمكن أن تقبل بديلاً عن عقيدتها الإسلامية، وأنها مع من يقودها على منهجها بصدق وأمانة.

وهذا ما ظهر من مواقف المسلمين في الأندلس عندما لفظوا زعماء الطوائف المعرضين عن دينهم السادرين في لهوهم، وتمسكوا بقيادة يوسف بن تاشفين، ودعَوا لها وضحَّوا من أجلها، وجاهدوا في سبيل حمايتها، وما ذلك إلا لتمسكه بهدي الإسلام وشريعة محمد عليه الصلاة والسلام؛ فحققوا بتلك المواقف وحدة الأمة، التي تنبثق منها عوامل النصر والقوة والرفاه والتقدم، فانتصروا في الأندلس وهزموا الصليبيين، وأعادوا مجد الأمة وعزتها.

فيستخلص مما سبق أن الحالة المعاصرة في الأمة من الهوان والضعف والتشرذم وتشتت الطاقات وتحكُّم الأجنبي والحرص على رضاه، وانتشار الكبائر والمحرمات والإعراض عن تعاليم الدين، واضطهاد المسلمين في كثير من بلاد المسلمين، ما هي إلا حالة عارضة ستزول بإذن الله تعالى، وأن من أولى علامات ذلك هو التوافق والانسجام بين قيادات المسلمين وأبناء أمتهم وانقياد الجميع لضوابط الدين وأوامر الشرع التي تحفظ الحقوق وتوزع المهام من دون محاباة أو انحياز لأحد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

مُلحَق

رسالة أبي بكر الطرطوشي

إلى السلطان المرابطي

أبي يعقوب يوسف بن تاشفين

مُلحق

رسالة أبي بكر الطرطوشي

إلى السلطان المرابطي

أبي يعقوب يوسف بن تاشفين

وكتب (الطرطوشي) لي كتاباً نسخته من أوله إلى آخره:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن الوليد الطرطوشي إلى الأمير أبي يعقوب ابن تاشفين، سلامٌ عليك، أمَّا بعدُ، فإنِّي أحمَدُ اللهَ إليك الذي لا إلـهَ إلا هو، وأشكره لديك كثيراً كما هو أهلُه، وأخصُّكَ من مواعظِهِ وحِكَمِه ما إنْ أخذتَ به نجوتَ من عظيمِ ما ركبتَ إنْ شاء الله تعالى، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العليّ العظيم، وحسبُنا الله ونعمَ الوكيل:

قال الله سبحانه: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

قال سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ: «أتعلمونَ مَنِ الخليفة؟ الخليفةُ هو الذي يقضي بكتابِ اللهِ، ويُشْفِقُ على الرَّعيَّةِ شفقةَ الرَّجُلِ على أهلِه».

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤١].

فمَنْ مكَّنه اللهُ في الأرض، وآتاه اللهُ سلطاناً، ولم يفعلْ ما أمرَ اللهُ تعالى به في هذه الآية، خِفنا أنْ لا يكونَ من أهلِها، لأنَّ اللهَ تعالى وصفَ هذه الأمة - إذا فتحَ اللهُ تعالى عليهم الأرضَ، وأهلكَ عدوَّهم - بإقامةِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، وأمرٍ بالمعروف، ونهيٍ عن المنكر.

وقال رسول الله ﷺ:

«ما مِنْ أحدٍ يلي عملاً أو نال سلطاناً إلا اهتزَّ به الصّراطُ حينَ يركبُه حتى يزولَ كل عظيمٍ عن حقِّه، فإنْ كانَ مُحْسِناً نجا، وإن كانَ مُسِيئاً هوى سبعينَ خريفاً».

فلمَّا بلغَ ذلك عمرَ بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: «ومَنْ يرغبُ في العملِ بعدَ هذا؟» قال له أبو ذر - رضي الله عنه -: «مَنْ سلبَ اللهُ أنفَه، وأصعرَ خَدَّه».

وروي أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «ما مِنْ والٍ يلي رعيةً مِنَ المُسلمينَ، فيموتُ وهو غاشٌّ لهم إلا حرَّمَ اللهُ تعالى عليه الجنَّة».

وروي أنَّ رسولَ الله ﷺ قال للعباس عمِّه لمَّا قالَ له: أَمِّرني على إمارة، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عباسُ يا عمَّ رسولِ الله، نفسٌ تُحْيِيْها خيرٌ مِنْ إمارةٍ لا تُحْصِيْها، إنَّ الإمارةَ حَسْرَةٌ وندامةٌ يومَ القِيامةِ، فإن استطعتَ أن لا تكونَ أميراً فافعل».

وروي أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ألا كُلُّكُم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّتِه، والرجلُ راعٍ على أهلِ بيتِه، ومسؤولٌ عن رعيّتِه، والمرأةُ راعيةٌ على أهلِ بيتِ زوجِها وولدِها، وهي مسؤولةٌ عنهم، وعبدُ الرَّجلِ راعٍ على مالِ سيِّدِه وهو مسؤولٌ عنه، ألا فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّته».

ولقد بلغَ هذا من نفوس الصحابة والخلفاءِ الراشدين والأئمةِ المهتدين مبلغاً ذهلتْ له عُقولُهم، وطاشتْ حلومُهم، فروي أنَّ عمرَ بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ مرَّ بطريقِ مكّةَ، فأبصرَ راعياً يرعى بمكانٍ جَذبٍ، فناداه: أيا راعِ، قد رأيتُ مكاناً هو أخصبُ من مكانِكَ فالحقْ بهِ، ثم قال: «كلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيّتِه».

وقال عليٌّ: «رأيتُ عمرَ بنَ الخطابِ يعدو على قَتَبٍ، فقلتُ: إلى أين؟».

فقال: «بعيرٌ من إبلِ الصَّدَقةِ قد نَدَّ، وأنا أطلبُه».

فقلتُ: «أذللتَ الخلفاءَ بعدَك يا أميرَ المؤمنين».

فقال: «لا تلُمني يا أبا الحسن، فوالذي بعثَ محمَّداً بالنبوّة، لو أنَّ نحلةً ذهبَتْ بشاطئ الفراتِ لأجدَنَّ بها حَسْرَةً يومَ القيامةِ، إلاّ إنَّه لا حرمةَ لوالٍ ضيّعَ المسلمين».

يا أبا يعقوب! لقد بُليتَ بأمرٍ لو حملتْهُ السماواتُ لانفطرَتْ، ولو حملتْه النجومُ لانكدرَت، ولو حملتْه الأرضُ والجبالُ لتزلزلت

وتدكدكت، إنَّكَ حملْتَ الأمانةَ التي عُرضَتْ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أن يحملْنَها، وأشفَقْنَ منها؛ فروي أنَّ آدم صلوات الله عليه لمَّا استخلفَه اللهُ تعالى في الأرضِ على ذرِّيته، وما فيها من الأنعام، وعهد إليه عهوداً أمره فيها ونهاه، فقام فيها بأمر الله سبحانه إلى أن حضرته الوفاة، فسأل الله ـ سبحانه ـ أن يعلمه مَنْ يستخلفه ويقلّده من الأمانة ما قلّده، فأمرَ أن يعرض ذلك على السماوات بالشرط الذي أُخذَ عليه من الثواب إنْ أطاع، ومن العقابِ إن عصى، فأبينَ أن يقبلْنَه شفقةً من عقابِه، ثم أمره أن يعرضه على الجبالِ والأرض فأبينَها أيضاً، ثم أمره أن يعرضَه على ولدِه فقبله ولده، على شرط أنَّ له الثواب إن أطاع والعقاب إن عصى، فوبَّخه اللهُ تعالى على مسارعته إلى قبولِ ذلك، فقال: وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً لنفسِه، جهولاً بعقابه وما تقلّد لربِّه، وكان الغرضُ تخييراً لا إيجاباً.

وروي أنَّ عمر بن عبد العزيز لما أفضت إليه الخلافةُ، سمعوا في منزله بكاءً عالياً، فسُئلَ عن البكاء، فقيل: إنَّ عمرَ خَيَّرَ جواريه، وقال: «قد نزل بي أمرٌ شغلني عنكنّ، فمَنْ أحبَّت أن أعتقها أعتقتها، ومَن أحبَّتْ أن أمسكها لم يكن لها نصيبٌ مني» قال: فبكينَ يأساً منه.

ثم دعا أفاضلَ المسلمين في زمانه، وعلمائهم في وقته: سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب، ورجاء بن حَيْوَة، فقال لهم: «إنّي قد ابتُليتُ بهذا الأمر، فأشيروا عليَّ بها». فعدَّ الخلافةَ بلاءً، وأنت ونظراؤكَ تعدُّون هذا البلاءَ نعمةً.

فقال له سالم بن عبد الله: «يا أميرَ المؤمنين! إنْ أردتَ النجاةَ من عذابِها فَصُمْ عن الدنيا، وليكنْ إفطارُكَ فيها الموتُ».

وقال محمد بن كعب: «إن أردتَ النجاةَ من عذابِ الله، فليكن كبيرُ المسلمين لك أباً، وأوسطُهم عندك أخاً، وأصغرُهم ولدك، فوقِّر أباك، وارحم أخاك، وتحنَّن على ولدك».

وقال له رجاء بن حَيْوَة: «إنْ أردتَ النجاةَ من عذابِ اللهِ غداً، فأحبَّ للمسلمين ما تحبّ لنفسِك، واكره لهم ما تكرَه لنفسِك، ثم مُتْ متى شئتَ».

وإنّي لأخافُ عليكَ أشدَّ الخوف، فاتّقِ اللهَ يا أبا يعقوب في أمةِ محمد ﷺ، فإنّ لك مع الله تعالى موقفاً يسائلك فيه عنهم شخصاً شخصاً، ذكراً وأنثى، صغيراً وكبيراً، حرّاً وعبداً، ومسلماً وذميّاً، فأعدَّ لذلك المقام كلاماً، ولذلك السؤال جواباً، فوالذي نفسي بيده إنَّ ذلك لحقٌّ مثل ما أنكم تنطقون.

روى عبدُ الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «ما منكم أحدٌ إلا ويخلو بربِّه، ليسَ بينَه وبينَه ترجمانٌ»، و«لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسألَ عن خمسةٍ: عن عمرِه فيما أفناه؟ وعن شبابِه فيما أبلاه؟ وعن مالِه مِنْ أينَ اكتسبَهُ وفيما أنفقَه؟ وماذا عَمِلَ فيما عَلِمَ».

واعلم يا أبا يعقوب! أنّه لا يزني فرجٌ في ولايتكَ ومدى سلطانك وطول عمرك، إلا كنتَ المسؤولَ عنه، والمرتَهَن بجريرته، وكذلك

لا يُشرَبُ فيها نقطةُ مُسْكِرٍ، إلا وأنتَ المسؤول عنها، ولا يُنْتَهَكُ فيها عِرْضُ امرئ مسلمٍ، إلا وأنتَ المطالَبُ به، ولا يُتعامَلُ فيها بالربا، إلا وأنتَ المأخوذُ به، وكذلك سائرُ المظالم.

وكلُّ حرمةٍ انْتُهِكَت من حُرمات اللهِ تعالى، فعهدتُها عليك، لأنَّك قادِرٌ على تغييرها، فأما ما خفيَ من ذلك، ولم يكن ظاهراً يراه المسلمون، فأنتَ المبرَّأُ منه إن شاء الله تعالى.

ألا ترى إلى عمر بن الخطاب كيف أشفقَ أن يطالبَه اللهُ ببعيرٍ من إبلِ الصدقة، وإنَّما البعيرُ هو للمسلمين، فركبَ على بعيرِه، وجعلَ يطلبُه بنفسِه، ولا عذرَ لكَ عندَ الله تعالى أن تقولَ: لم يبلغني، فإنَّك إذا احتجبتَ عن المسلمين فكيف تعلمُه وتراه؟!.

قال الله تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]، مِنْ تركِهم الإنكارَ، وإنَّما قاله لقومٍ سَخِطَ عليهم، هذا بين الأكْفَاء والنظراء، فما ظَنُّكَ بين الولاة والأمراء.

قال الله سبحانه: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. جاء في التفسير، الصغيرة: التبسّم، والكبيرة: الضحك.

ولقد بلغَني أنَّ عبدَ الله العمري لما حجَّ لقيَ هارون الرشيد في الطواف، فقال: «يا هارون!».

فنظرَ إليه الرشيدُ فعرفه فقال: «لبيك يا عماه».

فقال: «كم ترى ها هنا من خلق؟».

قال: «لا يُحصيهم إلا الله تعالى».

قال: «فاعلم أيّها الرجلُ أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يُسْأَلُ عن خاصّةِ نفسِه، وأنتَ وحدَكَ تُسْأَلُ عنهم كلِّهم، فانظر كيف تكون!».

فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً، فجلعوا يعطونه منديلاً يمسحُ به دموعَه، قال له: «واللهِ يا هارون إنَّ الرجلَ لَيُسْرِفُ في مالِ نفسِه فيستحقُّ الحجْرَ عليه، فكيف بمن يسرف في مالِ المسلمين؟!».

ولما دخل طاوس اليماني على سليمان بن عبد الملك قال:

«يا أميرَ المؤمنين! هل تدري مَنْ أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامة؟».

قال سليمان: «قُلْ».

فقال: «أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ مَنْ أشركَه اللهُ في مُلكِه، فجارَ في حُكْمِه».

فاستلقى سليمانُ بن عبد الملك على سريره باكياً، فما زال باكياً حتى قام عنه جلساؤه.

وقال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: «إنَّ الملكَ إذا ملكَ زهّده اللهُ في مالِه، ورغَّبه في مالِ غيرِه، وأشرفُ فعْلِه الإشفاقُ من الفقرِ، فهو يسخَطُ على القليل، ويحسدُ على الكثير، حتى إذا قضى اللهُ نحبَه،

حاسبَه بأشدِّ حسابِه، وأقلِّ عفوِه».

فاحذر يا أبا يعقوب أن تردَ على جنّةٍ عرضُها السماواتُ والأرض، فلا يكونُ لك فيها موقفُ قدَمٍ، أعاذنا اللهُ وإياكَ من هذا الموقف.

ولقد بلغني يا أبا يعقوب! أنَّكَ احتجبتَ عن المسلمين بالحجارة والطين، واتّخذتَ دونهم حجاباً، وأنَّ طالبَ الحاجة ليظلُّ يومَه ببابكَ فما يلقاك، كأنَّك لم تسمع قولَ اللهِ عزَّ وجلّ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، قال الحسن: «لا والله، ما كان رسول الله ﷺ تغلَقُ دونَه الحُجُبُ، ولا يُغدى عليه بالجفان، ولا يُراحُ عليه بها، ولكنَّه كان بارزاً، من أرادَ أنْ يلقى رسولَ اللهِ ﷺ لقيه، وكان يجلسُ بالأرض، ويوضَعُ طعامُه في الأرض، ويلبِسُ الغليظَ، ويركبُ الحِمار، ويردف عليه عبده، ويلعقُ أصابعه، وكان يقول: «مَنْ رغبَ عن سنّتي فليسَ منّي»، قال الحسن: «فما أكثرَ الراغبين عن سنَّتِه التاركينَ لها».

وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يأخذ دِرَّته، ويمشي في الأسواق، ويتفقَّد أمرَ رعيته، وكان يمشي ليلاً في سكك المدينة مع عبد الرحمن بن عوف وغيره من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يحفظون عورات المسلمين، فروي عنه أنّه استعملَ سعد بن أبي وقاص على الكوفة، فبلغه أنَّ سعداً اتّخذَ قصراً، وجعل عليه باباً، وقال: انقطعَ التصويتُ، فأرسَلَ إليه محمّدَ بنَ مسلمة، وقال: «ايتِ سعداً، فأحرقْ عليه بابه». فأتى الكوفةَ، وأخرجَ زنده، واستورى ناره، ثم أحرق الباب، فجعل

سعدُ يعتذِرُ، ويحلفُ بالله ما قال، فقال له محمد بن مسلمة: «تفعلُ ما أمرتُكَ به، وتوري عنك القول».

يا أبا يعقوب! ولقد بلغني أنَّك استأثرتَ على المسلمين بالحظِّ الوافرِ من حطام الدنيا وزخرفتها، فلبسْتَ الناعمَ، وأكلتَ الليّنَ، وتمتَّعتَ بلذَّاتها وشهواتها، كأنَّك لم تسمع قول الله عزَّ وجلّ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، أولم تسمعه سبحانه يقول لنبيّه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

ولقد روت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ قالت: «لقد كان يمرُّ علينا الشهران والثلاثة ما توقَدُ في بيوتِ رسول الله ﷺ نارٌ».

قيل: «فما كان عيشكم؟».

قالت: «الأسوادان: التمرُ والماءُ».

ولقد روي أنَّ فاطمةَ ـ رضي الله عنها ـ قالت: خبزتُ رغيفاً من شعير، فجئتُ منه بكسرة إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا يا فاطمة؟».

فقلتُ: «رغيفٌ خبزتُه يا رسول الله، ولم تطب نفسي أن آكله حتى أجيئكَ بهذه الكسرة».

فقال: «أما إنَّه أولُ طعامٍ دَخَلَ جَوْفَ أبيكِ منذُ ثلاثةِ أيام».

هذا لو شركوكَ في خفض العيش لنهيتَ عنه، لأنَّ الله تعالى أخذَ على الأئمة في مثل ما روي عن يوسف ﷺ أنَّه كان يأكلُ الشعيرَ ويُطعِمُ

عياله الخُشكار[١]، ويطعم المسلمين الحواري[٢]، وكان يجوِّعُ نفسَه.

فقيل له: «أتَجُوعُ وبيدِكَ خزائنُ الأرضِ؟!».

فقال: «أخافُ أنْ أشبعَ فأنسى الجائعين».

وروي أنَّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، لما أفضَتْ إليه الخلافةُ قال: «إنّي أنزلتُ نفسي في مالِ اللهِ سبحانَهُ بمنزلةِ وليِّ اليتيم، إن استغنيتُ استعففتُ، وإنْ افتقَرْتُ أكلتُ بالمعروفِ».

وروي عنه أنَّه قال: «أخبرُكم بما يحلُّ لي من مالِ اللهِ سبحانه، أستحلُّ منه حلتين: حلّة الشتاء وحلّة القيظ، وما أحجُّ عليه وأعتمر، وقوتي وقوت عيالي كقوتِ رجلٍ من قريش لا من أغنيائهم ولا من فقراءهم، ثم أنا بعدُ رجلٌ من المسلمينَ يصيبُني ما أصابهم».

فكيفَ والفقراءُ ببابك يتضاغون، وذوو الحاجات يتردَّدون، وأهل الديون والغرم في السجون محبوسون مأسورون، وأموال المسلمين تحت يدك وفي قبضتكَ؟! أما سمعتَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ ترَكَ مالاً فلورثته، ومَنْ تركَ كَلاً فعلينا»، أما سمعتَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٠].

يا أبا يعقوب! إنَّه قد كبرتِ السِّنُّ، وانحلّتِ القُوى، واشتعلَ

(١) الخُشكار: الخبز الأسمر غير النقي.

(٢) الحواري: الخبز الأبيض النقيّ.

الرأسُ شيباً، وارتحلتِ الدُّنيا مُدْبِرةً، وجاءت الآخرةُ مقبلةً، وحان الفراق، والتفَّت الساقُ بالساقِ، وجاءت سَكْرَةُ الموتِ بالحقِّ، فالبدارَ البدارَ إلى حياةٍ لا موتَ فيها، وشباب لا هرمَ معه، وصحةٍ لا سَقَمَ فيها، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

يروى عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لمّا أصيبَ إخوانُكم يومَ أُحُدٍ، جعلَ اللهُ أرواحَهم في أجوافِ طيرٍ خضرٍ تردُ أنهارَ الجنَّة، وتأكلُ من ثمارِها، وتسرحُ من الجنَّةِ حيثُ شاءَتْ، وتأوي إلى قناديلَ مِنْ ذَهبٍ تحتَ العرشِ، فلمَّا رأوا طِيْبَ مَقِيلِهم ومَطْعَمِهم ومَشْرَبِهم، ورأوا ما أعدَّ اللهُ لهم مِنَ الكرامةِ، قالوا: يا ليتَ قومنا يعلمونَ بما نحنُ فيه من النِّعَمِ، وما صنعَ اللهُ بنا، كي يرغبوا في الجهادِ، ولا ينكلوا عنه، فقال الله تعالى: أنا مخبرٌ عنكم ومبلِّغٌ إخوانكم، ففرحوا بذلك واستبشروا، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ . . . ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٩].

وقال ـ جلَّ من قائلٍ ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١] فما ظنُّكَ بتجارةٍ اللهُ مشتريها يوشِكُ واللهِ أنْ لا تبورَ.

وقال جلَّ من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ

أَلِيمٍ﴾ فلو قطعَ هنا، لانقطعت الأعيان في البحث عن هذه التجارة، لأنَّ الله بفضله وكرمه بيَّنَ مرادَه من ذلك فقال: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١١].

وقال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المُجاهِدِ في سَبيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصائمِ القائمِ لا يفترُ مِنْ صلاةٍ ولا صيامٍ حتّى يرجعَ».

ورويَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «تكفَّلَ اللهُ لِمَنْ جاهَدَ في سبيلِ الله، لا يخرجُه من بيته إلا الجهادُ في سبيلِ اللهِ وتصديق كلمتِه، أن يدخلَه اللهُ الجنَّةَ، أو يردَّه إلى مسكنِه الذي خرجَ منه مع ما نالَ من أجرٍ أو غنيمةٍ».

وقال رسول الله ﷺ: «لولا أنْ أشُقَّ على أمّتي لأحببتُ ألاّ أتخلَّفَ عن سريةٍ تخرجُ في سبيل الله، ولكنّي لا أجدُ ما أحمِلُهم عليه، ويشقُّ عليهم أن يتخلَّفوا بعدي.

والذي نفسي بيده لوددتُ أن أقاتِلَ في سبيلِ اللهِ فأُقتَلُ، ثم أُحيا فأُقتَلُ، ثم أُحيا، فأُقتَلُ.

والذي نفسي بيده، لا يُكْلَمُ أحدٌ في سبيلِ الله ـ والله أعلمُ بمَنْ يُكْلَمُ في سبيله ـ إلاّ جاءَ يومَ القيامةِ وجرحُهُ يثعبُ دماً، اللونُ لونُ الدمِ، والريحُ ريحُ المسكِ».

وقال أنس بن مالك: «استشهدَ عمّي يومَ أُحُدٍ، وكان قد غابَ عن بدرٍ، فقال: «يارسولَ الله! إنْ أشهدني الله قتالَ المشركين ليريني ما أصنعُ» فلمَّا كان يومَ أُحُدٍ، قال: إنّي لأجدُ ريحَ الجنَّةِ من دون أحد، قال: فما

استطعتُ يا رسولَ الله ما صنع، فوجدنا بضعاً وثمانينَ ضربةً بالسيف، أو طعنةً بالرمح، أو رميةً بالسيف، ومثّلَ به المشركون، فنزل فيه وفي أمثاله: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

واعلم يا أبا يعقوب أنَّ الله تعالى فرضَ الجهادَ على كافّةِ المسلمين، ولا يردّه جورُ جائرٍ، ولا فسقُ فاسقٍ إلى أن تقومَ الساعةُ. قال الله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

فلم يرخّص لهذه الأمة في ترك جهاد عدوّهم إلا بإعطاء الجزية أو كلمة الإسلام، وهذه الآية نسخت كلَّ آيةٍ في كتاب الله تتضمّن الإعراضَ عن المشركين.

وروى أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركَ قومٌ الجهادَ إلاَّ عمَّهم العذابُ».

فجهادُ الكفار فرضٌ عليك فيما يليك من ثغور بلاد الأندلس، لأنك أقربُ الملوكِ إليها، وعندك الكراع والسلاح ولأمَةُ الحربِ وآلتها، وجيوش المسلمين وحماة البيضة طائعون لك، وكذلك كل مَن بنواحيك وجنبات أعمالك من المجاهدين والمقاتلين أولي البطش والقوة، وأنتَ في حرج من تضييعِ مَنْ في ثغورِ أرضِ الأندلس من جماعة المسلمين والحُرُمِ والذَّراري، أفلا تأسَّيتَ بمن سافرَ إليها، وأقصى المضي من

أرض الحجاز من حماةِ المسلمين ومجاهديهم حتى استفتحوها، وبثّوا فيها كلمة الإسلام وشهادة التوحيد؟ فكيف بمن يناسخها ويجاورها؟!.

يا أبا يعقوب! إذا أردتَ الظفرَ بالعدوِّ فعليكَ بالعدلِ في الرعية، فقد روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنَّ وفداً من الوفود قدم عليه بالفتوح، فقال له عمر: «متى لقيتم عدوكم؟».

فقال: «من أول النهار».

قال: «فمتى انهزموا؟».

فقال: «من آخر النهار».

فقال عمر: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، وقام الشرك للإيمان من أول النهار حتى اعتدل النهار؟! والله إنْ كان هذا إلا عن ذنبٍ أحدثتموه بعدي أو أحدثتُه بعدَكم، ولقد استعملتُ عليَّ بنَ أمية على اليمن، أستنصرُ لكم بصلاحِه».

وكتب أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ إلى جنده بالشام: «قلّما يؤتى العشرة الآلاف وأكثر إذا أتوا إلا من تلقاءِ الذنوب، فاحترسوا من الذنوب».

ومما أتحفُكَ به، وهو خيرٌ لك من طِلاعِ الأرضِ ذهباً لو أنفقتَهُ في سبيلِ الله، حديثٌ رواه الأئمةُ الثقات عن رسولَ الله ﷺ فروى مسلمٌ في كتابه (الصحيح) نقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لا تزالُ طائفةٌ من أهلِ المغربِ ظاهرينَ على الحقِّ حتى يأتيَ أمرُ الله». واللهُ

أعلمُ هل أرادكم رسولُ الله ﷺ معشرَ المرابطين، أو أراد بذلك جملةَ أهل المغرب، وما هُمْ عليه من التمسُّكِ بالسنّةِ والجماعةِ، وطهارتهم من البدعِ والأحداثِ في الدِّين، والاقتفاءِ لآثارِ مِنَ السلَفِ الصالح رضي الله عنهم.

وإنَّا لنرجو أن تكونوا أولي بقيةٍ ينهون عن الفسادِ في الأرض؛ ولقد كُنَّا في الأرض المقدَّسةِ ـ جبرَ الله مصابها ـ تَترى علينا أخبارُك، وما قمتَ فيه من أداءِ فريضةِ اللهِ تعالى في جهادِ عدوِّه وإعزازِ دينِه وكلمتِه، وكان مَنْ هناك مِنَ العلماءِ، والفقهاءِ، وحَمَلَةِ الدّين، والعُبّادِ، والزُّهّادِ، والمنقطعين إلى الله تعالى يدعون الله سبحانه في نصرِكَ وتأييدِكَ والفتحِ على يديك.

فلئن كنتَ تستنصرُ بجنودِ أهل الأرض، لقد كنّا نستنصرُ لك بجنودِ أهل السماء، حتى قدمَ علينا الأرض المقدّسة الفقيه أبو محمد عبد الله بن العربي وابنه الفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله، فذكروا من سيرتك في جهادِ العدوِّ ـ أهلكه الله تعالى ـ في تلك الأندية والمحافل والحِلَقِ والمجالس، وصبرِكَ على مكافحةِ العدوِّ ومصابرتِه، وإعزازِكَ للدّين وأهلِه، والعلمِ وحَمَلَتِه، ما زادَ المسلمينَ بصيرةً في الدعاءِ لك، وحُسْنِ الاعتقادِ فيك، حتى تمنَّيْنا أن نجاهدَ الكفَّارَ معك، ونكثّر سوادَ المسلمين في جملتك.

نسألُ اللهَ تعالى الذي يهبُ الجزيلَ من فضله أن يهَبَنا وإيّاكَ الشهادةَ في سبيله، ثم إليه سبحانه نضرعُ أن يريكَ الحقَّ حقّاً فتتبعه، والباطلَ

باطلاً فتجتنبه، فصلاحُ الرعيّةِ بصلاحِ الراعي.

والفقيهُ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي ممن صحبنا أعواماً يدارِسُ العلم ويمارِسُه، بلوناه وخبرناه، وهو ممن جمع العلمَ ورعاه، ثم تحقَّقَ به ورعاه، وناظرَ فيه، وجدَّ حتى فاقَ أقرانَه ونظراه، ثم رحل إلى العراقِ، فناظرَ العلماء، وصحب الفقهاء، وجمعَ من مذاهبِ العلمِ عيونَها، وكتبَ من حديثِ رسول الله ﷺ وروى صحيحَه وثابتَه، والله تعالى يؤتي الحكمة مَنْ يشاء، وهو واردٌ عليكَ بما يسرُّكَ، فاشدُدْ عليه يديك، واحفظ فيه وفي أمثالِه وصيةَ اللهِ سبحانه لنبيِّه عليه السلام، قال الله سبحانه وهو أجلُّ القائلين: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. والحمد لله رب العالمين، والسلامُ عليك ورحمةُ الله تعالى وبركاته، وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وآله الطيبين الطاهرين، وسلَّم، وشرَّفَ وكرَّم، وأفضلَ وأنعم[١].

* * *

(١) من كتاب (أبو بكر الطرطوشي) العالم الزاهد الثائر، تأليف الدكتور جمال الدين الشيال (سلسلة أعلام العرب)، رقم (٧٤)، ص(١١٢ ـ ١٢٣).

الفهرس

الفصل الثاني

المرابطون وقبائل برغواطة
واستشهاد عبد الله بن ياسين
(٥٧ ـ ٩٦)

الفصل الثالث

يوسف بن تاشفين وتوحيد المغرب
(٩٧ ـ ١٣٤)

الفصل الرابع
أحوال الأندلس في عهد ملوك الطوائف واستنجاد أهل الأندلس بالمرابطين (١٣٥ ـ ٢١٢)

الفصل الخامس

العبور الأول إلى الأندلس ومعركة الزلاقة
(٢١٣-٢٧٢)

الفصل السابع
العبور الثالث إلى الأندلس وعزل ملوك الطوائف
(٢٩١ ـ ٣٧٤)

الفصل الثامن

مملكة بلنسية وظهور القنبيطور المعروف بالسيد (٣٧٥ـ٤٢٦)

الفصل التاسع

العبور الرابع إلى الأندلس
لتنظيم أمورها السياسية والإدارية والعسكرية
ثم العودة إلى المغرب والوفاة
(٤٢٧ ـ ٤٣٨)

الخاتمة
(٤٣٩ ـ ٤٤١)

ملحق: رسالة أبي بكر الطرطوشي
إلى السلطان المرابطي أبي يعقوب يوسف بن تاشفين
(٤٤٣ ـ ٤٦٠)

* * *

هذا الكتاب

● تعرَّض العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري لهجمتين صليبيتين شرستين، استهدفت الأولى (بلاد الشام) واستهدفت الثانية (بلاد الأندلس).

● وعاثت هاتان الهجمتان الفساد في الأرض لا يردعها خلق ولا دين، معتمدة على سياسة القوة والمخادعة والابتزاز، وحكام العالم الإسلامي مشغولون بتناحرهم وتخاذلهم وانغماسهم بحياة اللهو والترف والمجون، وتغليبهم مصالحهم الشخصية الرخيصة على المصلحة المصيرية لأمتهم، بل استعان بعضهم بالمحتل ضدَّ أخيه متناسياً رابطة الدين والدم.

● بدأت الصحوة الإسلامية يقودها في بلاد الشام يوسف بن أيوب صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ـ٥٨٩هـ)، ويقودها في المغرب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين (٤١٠ ـ ٥٠٠هـ)، وكان كلٌّ منهما مثالاً للحاكم العادل الزاهد الورع الشجاع الصادق، المخلص الحازم، فاقتدى بهما أبناء الأمة، وبدأت عملية البناء والتحرير، فتحوّلت الفرقة إلى وحدة، والضعف إلى قوة، والتخاذل إلى تناصر، والظلم إلى عدل، والجاهلية إلى إيمان. ثم تتوَّجت هذه الجهود المباركة بمعركتي حطين في فلسطين، والزلاَّقة في الأندلس، تلك المعركتان الظافرتان اللتان كانتا نقطة تحوُّل عظيم في التاريخ الإسلامي.

● وهذا الكتاب يتتبع (التجربة المغربية) خطوة خطوة، من بداية دعوة المرابطين، إلى توحيد المغرب تحت راية التوحيد، إلى إشاعة العدل بين الرعية، إلى إنقاذ الأندلس من بين براثن الصليبيين، يقف عند كلِّ حدث محلِّلاً ومعلِّلاً، يربط الحاضر بالماضي، والتطبيق بالمبدأ.

الناشر

0602089